المركز القومي للترجمة

طبقات ناصري

تأليف

شيخ الإسلام وقاضي القضاة أبي عمر منهاج الدين عثمان
المعروف بالقاضي منهاج السراج الجوزجاني



كتبه في دهلي بالهند عام 658 هجرية قمرية

الجزء الثاني

ترجمة وتقديم: ملكه علي التركي

1828



يحتوي هذا الجزء طبقتين تمثلان آخر طبقات الكتاب الثلاثة والعشرين، وهما: طبقة الملوك الشمسية الذين كانوا عبيداً، ثم تدرجوا في مناصب البلاط حتى أصبحوا أصحاب إقطاعات في أنحاء الهند، وصاروا ملوكًا تابعين للسلطان الذي أقام في دلهي.

وتحدث المؤلف في الطبقة الثانية عن تاريخ المغول والفزع الذي اجتاح العالم الإسلامي بسبب غزوهم، وما أحدثوه من تدمير.

ميزة هذا الجزء أنه يتناول أحداثًا تعاني فقراً في المصادر، وأن مؤلفه شاهد على بعض الأحداث التي أرخ لها، ومشارك في بعضها الآخر.

تصميم الغلاف: سارة عابدين

طبقـــات ناصرى

(الجزء الثانى)

ملكة على التركى

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1828
- طبقات ناصرى (ج٢)
- منهاج الدين عثمان بن سراج الدين
- ملكه على التركى
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

طبقات ناصرى

تأليف: منهاج الدين عثمان بن سراج الدين

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

طبقـــات ناصري

تأليـــف

شيخ الإسلام وقاضي القضاة أبي عمر منهاج الدين عثمان

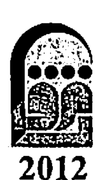
المعروف بالقاضي منهاج السراج الجوزجاني

كتبه في دهلي بالهند
عام ٦٥٨ هجرية قمرية

الجـــزء الثانى

ترجمته عن الفارسية
وقدمت له وكتبت الحواشي والتعليقات

ملكه علي التركي



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الجوزجانى، أبى عمر منهاج الدين عثمان منهاج السراج.

طبقات ناصرى (الجزء الثانى)/ تأليف: أبى عمر منهاج الدين عثمان منهاج السراج الجوزجانى، ترجمته عن الفارسية وكتبت الحواشي والتعليقات: ملكه على التركى

ط١، القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٢

٢٧٦ ص ، ٢٤ سم

١ - إيران - الملوك والحكام

(أ) التركى، ملكه على (ترجمة وتعليق)

(ب) العنوان ٩٢٣,١٥٥

رقم الإيداع ٤٤٦٦ / ٢٠١١

الترقيم الدولى : I.S.B.N 978 - 977 - 704 - 466 - 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الطبقة الثانية والعشرون
فى ذكر الملوك الشمسية[1]
فى ممالك الهند

الحمد لله الذى أبدأ وأنشأ، والملك الذى يؤتى الملك من يشاء، والصلاة على خير خلقه أفضل من قام ومشى، والسلام على آله وأصحابه غداة وعشاء، وسلم تسليما كثيرا .

هكذا يقول أقل عباد الحضرة الإلهية منهاج بن سراج الجوزجانى، عصمه الله من الميل إلى الفانى، إن شكر النعمة من لوازم قضايا العقول السليمة والطبائع المستقيمة، وهومعنى معقول وواضح لدى أرباب العلوم، ومبدأ معروف وظاهر فى مسائل مبادئ الأصول .

وقد روى نقلة أخبار سيد الأبرار والثقات فى آثار منبع السعادات وسيد السادات عليه من الصلوات أفضلها، ومن التحيات أكملها عنه أنه قال: " من لم يشكر الناس لم يشكر الله[2]".

وبناء على هذين الأصلين المعقول والمنقول، فإن شكر إنعام سلطان سلاطين الإسلام الملك السعيد طيب الذكر شمس الدنيا والدين طاب ثراه وشكر إكرام الملوك من أسرة سلطنته ممن وضعوا قدم الفخرعلى عرش الملك، وأداء حقوق الألطاف والهبات لملوكه وللأمراء من عبيده ممن وصلوا إلى إيوان الظفر وإلى ساحات الحكم، لهو فى ذمة هذا الضعيف الداعى للدولة القاهرة، وفى ذمة أبنائه فرض عين وقرض دين.

فمنذ شهور سنة خمس وعشرين وستمائة إلى يومنا هذا من شهور سنة ثمان وخمسين وستمائة، والألطاف والإكرام والإنعام والعواطف والعــوارف وأصـــناف الألطاف وأنواع الصنائع الملكية لهذا السلطان الذى طاول سليمان فـــى المكانـــة، ولأمرائه وأبنائه ولملوكه وسادات دولته وعبيده (طيب الله مضاجع الماضين منهم وأدام دولة الباقين) تتضاعف وتترادف وتتوالى وتستمر يوما بيوم وساعة بســـاعة لهذا الضعيف وأبنائه وأتباعه وأشياعه من تفويض المناصب ورفع المراتب وبـــذل التشريفات القيمة والإنعامات والأعمال العظيمة، مما أفضى إلى إســـناد قضـــاء الممالك ومراتب الرياسة لكل عامل منهم مرات عديدة. ليجعل الله تلـــك الأيـــادى سببا لبقاء ملكهم .

ولو فصل الداعى كل هذه الأعمال وبسطها، فسوف تطـــول هـــذه الطبقـــة القائمة على الاختصار من كثرة تلك الأيادى والعطايا.

فلندخل فى صلب الموضوع: عندما وهب الحق تعالى بفضله الدوام لدولـــة آلتتمش السلطانية، ورفع راية عبيده فى ساحة الخلود، أراد هذا الضعيف أن يـــورد ذكر ملوك ذلك البلاط ملاذ العـــالم، وأن يحـــرر أخبـــارملوكهم وســـير أمـــرائهم وعبيدهم، وأن يدونها أداء لبعض تلك الحقوق، خاصة أخبار تواتر نعـــم الخاقـــان المعظم والمليك العادل أكرم ملوك بنى آدم بهاء الحـــق والـــدين مغيـــث الإســـلام والمسلمين ظل الله فى العالمين عضد السلطنة يمين المملكة قطب المعـــالى ركـــن الأعالى الأعظم ألغ قتلغ خان بلبن السلطانى ابن السلاطين ظهير أميـــر المـــؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره؛ وأنباء توالي فيض كرمه.

فمنذ بدأ قلم الزمان يرسم صورة التوفيق، وينقش السعادة علـــى صـــحائف بزوغ الممالك، لم يرسم قط أى وجه للإقبال أجمل من صورة دولته، ولم ترفع يـــد من بين أعلام الأيام راية أعلى من لواء بهائه، ولم يكن فى عاصمة أى ملك فـــى

الشرق أوالغرب من وضع قدمه على مسند عرش الحظ وكان أكثر شهامة منه، ولم تسمع أى أذن من قصص مكنة الملك أجمل من حكاية ولايته، فإن لعهد عدله أيضا صورة متوارثة عن عمر، ولإحسانه بيان عطاء حاتم الطائى، ولسيفه حديث ضربة رستم[٣]، ولسهامه نفاذ عضد آرش[٤].

نصر الله لواءه وأيد أولياءه وأكب أعداءه. ومن ثم فقد كتبت هذه الطبقة أداء لحقوق هؤلاء الملوك المشهورين عامة، وذكرا لدولة ملوك تلك الطبقة خاصة، حتى يشعر المتأملون عند قراءة هذه الصحائف الخاصة بأحوال كل واحد منهم بضرورة الدعاء للذين ذهبوا، والدعاء بالبقاء للملوك الحاليين.

وقد كتب الداعى هذه الطبقة فى تلك الأيام التى وصل فيها إلى هذه الحاضرة تبعا للترتيب الزمنى لمن تقدم منهم ومن تأخر.

خلد الحق تعالى سلطان سلاطين الإسلام على العرش السلطانى، وأدام الغ خان المعظم على عرش السلطة وخلده. آمين يا رب العالمين.

الأول منهم الملك تاج الدين سنجر كزلك خان

كان وصول هذا الداعى إلى بلاط السلطان السعيد شمس الدين ملاذ العالم (طاب ثراه) فى يوم الأربعاء من غرة شهر ربيع الأول فى سنة خمس وعشرين وستمائة فى مدينة أچه المحروسة، حيث كانت الرايات العليا قد توجهت من الحاضرة دهلى إلى تلك الديار لفتح بلاد السند، وكان جيش ملوكه المظفر قد وصل بالقرب من أچه مع جيش الملك تاج الدين كزلك خان سنجر عليه الرحمة قبل ذلك بخمسة عشر يوما.

وكان أول شخص رأيته من ملوك هذا البلاط هو الملك تاج الدين كزلك خان يوم الأربعاء السادس عشر من شهر صفر سنة خمس وعشرين وستمائة عند وصولى من مدينة أچه إلى المعسكر المنصور، فعظم هذا الملك الملائكى السيرة هذا الداعى، وقام من فوق عرشه، وأدى واجبات الاستقبال، وتقدم وأجلس الداعى مكانه، وأعطاه تفاحا أحمر فى يديه وقال رحمه الله: " يا مولانا خذ هذه كى تكون فألا طيبا ".

وقد وجد الداعى الملك تاج الدين كزلك خان ملكا ذا منظر مهيب جدا وطلعة جليلة وحسن عقيدة وحاشية كبيرة وخدم لا حصر لهم .

وقد روى الثقات أن السلطان السعيد شمس الدين كان قد اشتراه من الخواجه على باستادى، حينما كان يحكم ولاية برن فى عهد السلطان قطب الدين، وأهداه إلى ابنه الأكبر الملك ناصر الدين محمود السعيد طاب ثراه، فتربى معه فى كنف الدولة فى مكان واحد .

وبعد فترة عندما رأى السلطان أثر النضج يلوح فى محياه، استعاده من خدمة الملك ناصر الدين لخدمته الخاصة، ووكل إليه وظيفة تذوق الطعام.

وبعد مدة من قيامه بتلك الوظيفة صار أميرا للركائب. وبعد عام عندما ذهب السلطان إلى ملتان فى شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكل إليه ولاية ونجروت بملتان. وعندما عاد من هناك، فوض إليه إقطاع كهرام. وبعد مدة منحه بلاد تبرهنده.

وكان السلطان السعيد شمس الدين قد أرسل كزلك خان من حدود ولاية السند إلى أچه برفقة الملك عز الدين محمد سالارى (عليه الرحمة) طليعة للجيش فى العام الذى وصل فيه الداعى إلى البلاط الأعلى، فلما عسكرت الرايات

الشمسية العليا أمام قلعة أچـه فى شهور سنة خمس وعشرين وستمائة، أرسل الملك السعيد كزلك خان برفقة وزير الدولة نظام الملك جنيدى إلى بهكر.

وبعد مدة عندما فتحت قلعة بهكر وغرق الملك ناصر قباچـه (عليه الرحمة) فى نهر السند، وتم الاستيلاء على قلعة أچـه، أمر السلطان لكزلك خان بمدينة أچـه وقلعتها وكافة نواحيها وأطرافها.

وعندما عادت الرايات العليا إلى دهلى حاضرة الملك العظمى، أعاد كزلك خان الأمور إلى نصابها فى تلك البلاد، وعمرها وجمع الناس بعد فرقة، وقضى الأيام مع الخلق من خاصة وعامة بإنصاف وألطاف، وسلك طريق العدل والإحسان مع الجميع، واجتهد فى أمن الرعية وأمانهم ورفاهية الجميع.

وبعد فترة انتقل كزلك خان من دار الفناء إلى دار البقاء فى شهور سنة تسع وعشرين وستمائة بخاتمة الخير وعصمة الإيمان والصدقات والإحسان والخيرات والمبرات.

الثانى الملك كبير خان إياز المعزى

كان كبير خان إياز تركيا روميا، وكان عبدا للملك نصير الدين حسين أمير الصيد، فلما استشهد نصير الدين وذهب أبناؤه إلى بلاد الهند ذهب كبير خان معهم، وصار موضع عناية السلطان السعيد شمس الدين، ومحل عطفه، وخدم السلطان فى كل مقام.

وكان كبيرخان تركيا وعالما وعاقلا ومحنكا وكان وحيد عصره فى الشجاعة والقتال؛ فقد كان ملازما دائما خدمة مولاه ومخدومه الملك نصير الدين حسين الذى كان مشهورا فى بلاد الغور وغزنين وخراسان وخوارزم كافة بالقتال والشجاعة فى شتى المجالات، لذا تعلم منه كبير خان دقائق فنون الحرب والشجاعة

والجسارة وذاع أمره. فلما استشهد الملك نصير الدين على يد أتراك غزنين، ووصل أبناؤه وأخوه مهزومين إلى البلاط السلطانى، اشترى السلطان عز الدين كبير خان منهم.

ويروى البعض أنه تقلد وظائف متعددة، فعندما استعاد السلطان السعيد شمس الدين ملتان فى شهور سنة خمس وعشرين وستمائة، منح مدينة ملتان وقلعتها وقصباتها وأطرافها ونواحيها إلى الملك عز الدين كبير خان إياز، ونصبه على ولاية تلك المنطقة وشرفه بلقب كبير خان فعرف به، وكان الناس قد أطلقوا عليه قائد الألف، ولهذا السبب كانوا يلقبونه بمنكبرتى.

وعندما عادت رايات السلطان العليا إلى العاصمة، أمسك كبير خان بزمام الحكم فى تلك الولاية وعمرها.

وبعد سنتين أو أربع سنوات استدعاه السلطان إلى العاصمة وأقطعه پلول ليعيش من دخلها. فلما انتهى العهد الشمسى، أقطعه السلطان ركن الدين فيروز شاه منطقة سنام، وعندما تواطأ الملك جانى من لاهور والملك كوچى من هانسى معا للخروج على الحاضرة، اتفق معهم كبير خان، وأثاروا الفرقة حينا فى جيش السلطان ركن الدين.

وفى النهاية عندما اعتلت السلطانة رضية العرش، جاء المتمردون إلى باب المدينة، وقاموا بمناوشات بالقرب من المدينة والأطراف المحيطة بها مدة طويلة، واشتبكوا بالقتال مع رعية دولة البلاط السلطانى.

إلى أن أبعدت السلطانة رضية كبير خان عن تلك الطائفة بالوعود الطيبة سرا، فالتحق بخدمة البلاط مع الملك عز الدين محمد سالارى. وبعودتهما تحققت القوة التامة للسلطانة والبلاط السلطانى ولأهل المدينة. وانهزم الملك كوچى

والملك جانى، فأكرمت السلطانة رضية كبير خان وفوضت إليه لاهور بكل أنحائها وأطرافها، حيث مكث هناك مدة .

وبعد فترة حدث خلاف بينه وبين السلطانة، فتحركت الرايات الرضوية العليا إلى لاهور فى شهور سنة ست وثلاثين وستمائة، وانسحب كبير خان من أمامها، وعبر نهر راوى، وذهب حتى حدود سدره، فتعقبته السلطانة، ولما رأى أنه لا يوجد أمامه طريق آخر سوى الطاعة ، عاد إليها، فمنحته السلطانة ملتان.

وبعد مدة توجهت جيوش المغول برفقة منكوته نوين وطاير بهادر إلى لاهور، فرفع كبير خان أعلام الحرب فى ولاية السند، واستولى على أچه، والتحق برحمة الحق بعد ذلك العصيان بمدة قصيرة فى شهور سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وكان ابنه تاج الدين أبوبكر إياز رجلا فتيا قويا طيب السيرة، ومهاجما ممتازا وشجاعا، وبعد وفاة والده استولى على ولاية السند، وصد جيش القرلغيين(٥) عدة مرات على باب ملتان وهزمه، وأظهر شجاعة فائقة وشهامة كبيرة، لذلك اشتهر بالرجولة والقتال، وقد التحق فجأة برحمة الحق فى أيام الشباب وعنفوان الصبا.

رحمهما الله. آمين. وأدام سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين على العرش السلطانى وخلده.

الثالث الملك نصير الدين آيتمر البهائى

كان الملك نصير الدين آيتمرعبدا للملك بهاء الدين طغرل أحد ملوك السلطان معز الدين محمد بن سام. وقد روى البعض أن السلطان السعيد شمس الدين (طاب ثراه) كان قد اشتراه من ورثة بهاء الدين طغرل، وكان نصير الدين رجلا غاية فى الشهامة ومحنكا وشجاعا وجريئا ومسيطرا وعادلا وعاقلا.

وفى أول الأمرعندما اختص بخدمة السلطان، صار رئيسا للحرس. وبعد مدة منحه السلطان إقطاع لاهور نظير ما قام به من أعمال جليلة.

وفى سنة خمس وعشرين وستمائة عندما جاء السلطان السعيد شمس الدين للاستيلاء على بلاد السند وأچه وملتان، جاء نصير الدين آيتمر من لاهور إلى قلعة ملتان بناء على الأمر، وأظهر آثارا طيبة فى فتح تلك المدينة.

وفى النهاية تم فتح ذلك الحصن وتلك المدينة صلحا، فلما عاد السلطان من بلاد السند إلى العاصمة، منح نصير الدين ولايات سوالك وأجمير ولوه وكاسلى وسنبهر نمك، وأعطاه فيلا، وخصه دون الملوك الآخرين بهذا التشريف. فلما ذهب إلى ولاية أجمير، أظهر الكثير من ضروب الشجاعة والبطولة فى الجهاد والغزو، ونهب ديار الهنود الكفرة، وقام بأعمال عظيمة.

وقد قابله هذا الداعى مرة واحدة فى ولاية سنبهر نمك، حيث نال إكرامه الوفير. والحق أنه كان (رحمه الله) ملكا حسن العقيدة.

وحدث أن ذهب نصير الدين فجأة إلى ولاية بندى بنية الغزووالجهاد، وقاتل الهنود فى منطقة وعرة، حيث اضطر إلى عبور ممر مائى كان يوجد فى ذلك المكان، ولما كان السلاح الذى يحمله من دروع وعتاد ثقيلا فقد غرق، والتحق برحمته تعالى. عليه رحمة الله.

الرابع سيف الدين أيبك حاكم أچـــه

كان الخواجه سيف الدين أيبك عبدا للسلطان شمس الدين، وكان تركيا حسن العقيدة ذا شهامة وشجاعة. وكان السلطان قد اشتراه من جمال الدين چوبكار فـــى بداون.

وفى البداية صار رئيس الحرس، وأمر له السلطان بدخل عن هـــذا العمـــل من الأموال المصادرة، يبلغ ثلاثمائة.ألف قطعة من الـــچيتل[٦]، فلم يلتفت إلى هذه الأموال.

وحينما وصل هذا الخبر إلى المسامع السلطانية، سأله عن سبب عدم اكتراثه بالأموال فقال: " لقد أسند إلى مولاى السلطان منذ البداية أعمـــال المصـــادرة، ولا يتأتى منى ظلم المسلمين والرعية ومصادرة أموالهم، فليأمر لى بعمل آخر ".

فوثق السلطان به، وأعطاه نارنول، حيث خدم مدة فى تلك الولاية، ثم منحه إقطاع برن. وبعد ذلك أمر له بسنامش.

وعندما غزا سيف الدين أيبك لكهنوتى، وهزم بلكا الخلجـــى، رجـــع إلـــى العاصمة وكان كزلك خان قد التحق برحمة الحق تعالى فى أچـــه، فأمر الســـلطان السعيد شمس الدين (طاب ثراه) لسيف الدين أيبك بمدينة أچـــه وإقطاعها حيـــث ظل مدة فى تلك البلاد عدل فيها بين الرعية، وأقر النظام.

وبعد أن التحق السلطان برحمة الخالق، طمع الملك سيف الدين حسين قرلغ فى ولاية أچـــه، وقدم بجيشه من ناحية بانيان إلى أبواب أچـــه، فخرج سيف الدين أيبك من مدينة أچـــه بجيش معد، والتقى بهم، فجاء نصر الحق تعـــالى، وانهـــزم جيش القرلغيين، وعاد مدحورا.

وكان هذا النصر عظيما حقا فى ذلك الوقت، فقد كانت عظمة مملكة الهند وهيبتها قد تضاءلت فى النفوس لموت السلطان (طاب ثراه) وكان الطمع الشديد فى الاستيلاء على البلاد يتزاحم فى رءوس الخصوم من أنحاء المملكة، فوهبه الحق تعالى هذا النصر، وبقى اسمه فى تلك البلاد، وانتشر ذكره فى بلاد الهند. وبعد هذا النصر بفترة وجيزة، وقع من فوق ظهر الحصان، فركله فى مقتل فهلك.

غفر له الحق تعالى، عليه الرحمة والمغفرة. والله هو الباقى والدائم.

الخامس الملك سيف الدين أيبك يغان تت

كان الملك سيف الدين أيبك يغان تت تركيا خطائيا، طيب الظاهر والباطن، وكان يتصف بسمات الرجولة. وقد اشتراه السلطان السعيد من ورثة اختيار الدين چست قبا، وخصه بقربه.

وفى البداية جعله السلطان أمير مجلس، ولما أدى خدمات جليلة فى هذا العمل لفترة، عظمه السلطان وأقطعه ولاية سرستى. وخلال تلك الفترة القائمة على الإعزاز، أمر السلطان فأهداه كل واحد من الأمراء والملوك والخواص جوادا، فتحققت له بذلك القوة والمكنة.

وفى سنة خمس وعشرين وستمائة عندما وصل الداعى إلى خدمة البلاط الأعلى فى ولايتى أچه وملتان، كان الملك سيف الدين يشرف على إقطاع سرستى، ويحظى بقرب تام ومكنة كبيرة لدى السلطان. كما فوض إقطاع بهار نظرا لما قام به من خدمات جليلة لمدة طويلة.

وحينما عزل الملك علاء الدين جانى عن إقطاع لكهنوتى، فوض ذلك الإقطاع إلى الملك سيف الدين أيبك يغان تت، فأظهر شجاعة فائقة فى تلك البلاد،

وحصل على عدد من الفيلة من ولاية بنك، أرسلها إلى البلاط الأعلى، فلقب من قبل السلطان بلقب يغان تت، وعظم بهذا الاسم.

وقد حكم بلاد لكهنوتى لمدة، والتحق (عليه الرحمة والرضوان) برحمة الحق فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة. والله أعلم .

السادس الملك نصرة الدين تايسى المعزى

كان نصرة الدين تايسى عبدا للسلطان الشهيد معز الدين محمد بن سام، وكان تركيا ذا مظهر غير جميل، ولكن الحق تعالى كان قد زينه بجميع صفات الرجولة والإنسانية، فكان غاية فى الرجولة والشجاعة والمهارة فى القتال، كما كان يتمتع بعقل راجح.

وفى الوقت الذى التحق فيه كاتب هذه السطور منهاج بن سراج بالبلاط الشمسى العالى، كان نصرة الدين تايسى يباشر إقطاع جنيد وبرواله.

وبعد مدة من قيامه بخدمات جليلة، وبعد فتح قلعة كاليور بعامين، أقطعه السلطان الشهيد شمس الدين (طاب ثراه) بهيانه وسلطانكوت، وأمر له برئاسة شحنة ولاية كاليور على أن يتخذها مقاما وسكنا، وعينت له جيوش قنوج ومهر ومهاون جميعها، حتى يمكنه الزحف بالجيش إلى حدود كالنجر وجنديري.

وفى شهور سنة إحدى وثلاثين وستمائة زحف نصرة الدين بالجيش من كاليور حتى أطراف بلاد كالنجر، حيث انهزم أمامه ملك كالنجر، فنهب نصرة الدين قصبات تلك الولاية، وحصل على غنائم كثيرة فى مدة قصيرة، بحيث بلغ الخمس السلطانى خلال خمسين يوما حوالى خمسة وعشرين لكا[٧].

وأثناء العودة قطع ملك أجار المسمى جاهر الطريق على جـيش الإسـلام، وسد الطريق فى المضايق الموحلة العميقة، ووقف على قارعة الطريـق مسـتعدا للحرب.

واستولى بعض الضعف على نصرة الدين تايسى، فقسم الجيش إلـى ثلاثـة أفواج تتجه إلى ثلاثة طرق، فجعل فوجا للفرسان، وآخر للمؤنة واحتياجات الجيش ومعهم أمير، وثالثا للمواشى والأغنام ومعهم أمير.

وقد سمعت من قوله: "لم يرأى شخص فى بلاد الهند ظهرى قط بفضل الله، أما فى ذلك اليوم فقد هجم على الهندى مثلما يهجم الذئب على قطيع الغنم، فقسـمت الجيش إلى ثلاثة أفواج: فلو التقى الهندى بى وبفرسانى سلمت المواشـى والمـؤن ونجت، أما إذا كان ينوى اغتصابها، أتعقبه أنا وأنصارى ونكتفى شره. وحـدث أن جاء ذلك الهندى مع جيشه، ووهبنا الحق تعالى النصر، وانهـزم الهنـدى، وقتـل كثيرون، وعدت سالما بالغنائم إلى قلعة كاليور".

وقد ذاعت فى هذا الجيش حكاية تدل على كمال كياسـته، نقصـها لفائـدة القراء: " ذلك أنه فى هذا السفر فقدت نعجة من جملة مواشيه، ومضى على فقـدها قرابة شهر ونصف شهر، وبعد أسبوع واحد من مقامهم فـى المعسـكر والخيـام، وذات يوم بينما كان كل شخص يعد شيئا للاستظلال به، ونصـرة الـدين تايسـى يطوف بالمعسكر، إذ سمع فجأة صوت النعجة، فقـال لخواصـه: "هـذا صـوت ماشيتى"، فقصدوا إلى تلك الناحية، ووجدوا الأمر على نحو ما قاله الامير الغـازى (عليه الرحمة) فأعادوا تلك النعجة".

وكانت له آثار أخرى كثيرة تدل على كياسته وحنكته في هذه الحرب، نقص واحدة منها وهي: " أنه في الوقت الذى انسحب فيه ملك كالنجر من أمامه وانهزم، تعقبه نصرة الدين تايسى، واستخدم مرشدا هنديا، وسار الاثنان في إثر المهزومين طوال الليل والنهار، حتى كانت الليلة الثانية وبعد أن انقضى نصف الليل قال المرشد الهندى: " لقد أخطأت الطريق، ولا أعرف أكثر من ذلك". فأمر نصرة الدين بقتله، وقاد جيشه بنفسه، حتى وصل إلى مكان عال، حيث كان المهزومون قد جمعوا الماء، كما بالت دوابهم هناك، وتكلم كل واحد من جنود المسلمين قائلا: "إن الوقت ليل، وربما لا يبدولنا العدو، فنقع في وسط جيشه." فترجل نصرة الدين عن جواده، وطاف حول ذلك المكان، حيث رأى مخلفات جياد الكفار، فقال: " اطمئنوا يا رفاق إنها مؤخرة الجيش، بدليل أن هذه الآثار لوكانت للقلب أوالمقدمة، لظهرت في هذا المكان آثار أقدام باقى الجيش، ولا يوجد في هذا المكان أى آثار أقدام، فتشجعوا لأننا سنتعقب الأعداء". واعتلى نصرة الدين جواده علامة على النصر، فلحق بهؤلاء الكفار صباحا، وقتلهم جميعا، واستولى على راية ملك كالنجر، وعاد من تلك الحرب سالما ".

وبعد ذلك عندما انتهى عهد السلطان ركن الدين فيروز شاه، وتمرد ابنه الملك غياث الدين محمد شاه في أوده، أسندت السلطانة رضية هذه الولاية إلى نصرة الدين تايسى.

وحينما جاء الملك جانى والملك كوچى إلى أبواب مدينة دهلى، وقاما بالعصيان، توجه نصرة الدين من أوده إلى بلاط السلطنة للمساعدة، فقطع كوچى طريقه فجأة، وقبض عليه، وكان المرض يسيطر علي نصرة الدين، فالتحق برحمة الله تعالى في ذلك المرض. ليرحمه الحق تعالى.

السابع الملك عز الدين طغان خان طغرل رحمه الله

كان الملك طغان خان تركيا حسن الوجه، طيب السيرة، وأصله من قبائل القراخطائيين[٨]، وكان يتصف بسجايا المروءة والشهامة، ويتحلى بالأخلاق الحميدة والصفات الطيبة، ولم يكن له ثان فى ذلك الزمان فى البذل والمروءة واللطف والشهامة واصطناع الناس.

وفى البداية عندما اشتراه السلطان شمس الدين صار ساقيا خاصا، ولما أمضى مدة فى هذا العمل، صار رئيس ديوان الإنشاء.

وحدث أن اختفت فجأة الدواة المرصعة الخاصة بالسلطان، فأدبه السلطان، وبالغ فى تأديبه، ثم منحه خلعة، وصار ذواقة للطعام، وبعد مدة صار أمير الركائب السلطانية. ثم أقطع بداون فى شهور سنة ثلاثين. وحينما أقطع يغان تت ملك لكهنوتى، أسند ولاية بهار إلى طغان خان.

وعندما توفى يغان تت أقطع طغان خان بلاد لكهنوتى، فاستقرت له الأمور فيها. وبعد وفاة السلطان السعيد شمس الدين (طاب ثراه) حدث خلاف بينه وبين أيبك صاحب إقطاع بلكهنوتى كان يلقب باورخان، وكان تركيا غاية فى الشجاعة فتحاربا أمام مدينة بنكوت فى لكهنوتى، وأثناء الحرب رماه طغان خان طغرل بسهم أصاب منه مقتلا فاستشهد، وبذلك عظم اسم طغان خان طغرل.

فقد كان فى بلاد لكهنوتى ناحيتان الأولى تسمى أرال وتقع على طرف لكهنوتى والثانية تسمى برند، ظلتا غير تابعتين لطغان خان لفترة، بينما استسلمت له الناحية الواقعة على طرف ديوكوتست.

وعندما وصلت السلطانة رضية إلى الحكم، أرسل طغان خان وفدا من عظماء الولاية إلى البلاط العالى، فشرف بالعلم والرايات الحمراء، ووجد إعزازا وافرا، ثم ذهب من لكهنوتى إلى بلاد ترهت، وحصل على أموال نفيسة.

ولما اعتلى السلطان معز الدين بهرام شاه عرش الملك، احتفظ طغان خان بالمكانة نفسها لديه، فاستمر فى إرسال هداياه القيمة إلى البلاط.

وعندما انتهى العهد المعزى، وفى أوائل العهد العلائى، كان مولاه بهاء الدين هلال سوريانى يحرضه على الاستيلاء على بلاد أوده وكره ومانكپور وبلاد أخرى.

وفى شهور سنة أربعين وستمائة، حينما وصل الداعى إلى أوده وهو فى طريقه مع أتباعه وأبنائه من الحاضرة دهلى إلى لكهنوتى، كان طغان خان قد وصل إلى كره ومانكپور، فالتحق الداعى بخدمته، وظل معه مدة فى تلك الأنحاء، ثم عاد طغان خان إلى ناحية لكهنوتى ورافقه الداعى.

وفى شهور سنة إحدى وأربعين وستمائة، بدأ ملك جاجنگر فى مضايقة ولاية لكهنوتى، فتوجه طغان خان فى شوال سنة إحدى وأربعين وستمائة إلى ولاية جاجنگر، وكان الداعى يصاحبه فى هذا الغزو.

وعندما وصل طغان خان إلى كتاسين على حدود جاجنگر يوم الثلاثاء السادس من شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعين وستمائة حشد الجيش، وبدأ الحرب، وعبر الأبطال المسلمون خندقين وانهزم الكفار الهنود لدرجة رأى معها هذا الداعى بعضا من العلف الذى كان أمام أفيالهم قد أصبح فى متناول جيش المسلمين.

أما طغان خان فقد أمر بألا يضايق أحد الفيلة، ولهذا السبب خمدت نار الحرب المضطرمة، فلما انتصف النهار وأثناء المعركة عاد كل واحد من مشاة جيش المسلمين لتناول الطعام.

لكن الهنود حاربوا من الجهة الأخرى واستولوا على خمسة أفيال، وطوق ما يقرب من مائتى راجل وخمسين فارسا جانبا من جيش الإسلام من الخلف، فحلت الهزيمة بالمسلمين، واستشهد جمع منهم، وتقهقر طغان خان مهزوما من هناك، وعاد إلى لكهنوتى، وأرسل شرف الملك الأشعرى إلى الحضرة العلائية طلبا للمدد.

وبناء على الأمر العالى تحرك القاضى جلال الدين الكاشانى (عليه الرحمة) بمصاحبة شرف الملك من الحاضرة إلى لكهنوتى بالخلعة والعلم الأحمر والإعزاز الوافر والإكرام الشامل، كما تحرك جنود الهند براية الجهاد برفقة تمرخان قمر الدين قيران صاحب إقطاع أوده لدفع كفار جاجنگر.

وفى هذه الشهور نفسها توجه ملك جاجنگر إلى لكهنوتى للانتقام من نهب كتاسين الذى حدث منذ عام وذكر قبل ذلك.

وفى يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر شوال سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وصل جيش كفار جاجنگر المحتشد بالأفيال والمشاة والفرسان بالقرب من لكهنوتى.

فخرج طغان خان من المدينة لملاقاتهم. وكان الكفار حينما خرجوا من حدود ولاية جاجنگر قد استولوا أولا على لكهور، وقتلوا صاحب إقطاعها فخر الملك كريم الدين لاغرى مع جماعة من المسلمين. ثم جاءوا إلى أبواب لكهنوتى.

وفى اليوم الثانى وصل الرسل من الأطراف الشمالية، ورفعوا أعلام جيش الإسلام، معلنين وصولهم بالقرب من باب لكهنوتى، فاستولى الخوف على جيش الكفار فعادوا.

وعندما وصل جيش الشمال إلى لكهنوتى، ظهر الشقاق بين طغان خان وتمرخان، وتحاربا، وجرى قتال أمام باب لكهنوتى بين فريقى المسلمين من الفجر حتى الضحى، وسعى جمع من الناس بالصلح بينهما، فتراجع كل من الجيشين إلى معسكره.

وحينما كان طغان خان على أبواب المدينة، وفى الوقت الذى نزل فيه إلى خيمته، عاد جميع رجاله إلى معسكراتهم. وبقى طغان خان وحيدا.

وعندما عاد تمرخان إلى معسكره، كان مستعدا بالسلاح، فما أن سنحت له الفرصة، وعلم أن طغان خان بمفرده فى معسكره وخيمته، حتى اتجه بكل جيشه إلى معسكر طغان خان، فاضطرطغان خان إلى الحرب وانهزم، وجاء إلى المدينة. وكانت تلك الواقعة يوم الثلاثاء الخامس من شهر ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

وعندما دخل طغان خان المدينة، وسّط داعى الدولة منهاج بن سراج، وأرسله لطلب الصلح والأمان، فاستحكم العهد والأمان بينه وبين تمرخان، على أن تسلم لكهنوتى إلى تمرخان، وأن يرحل طغان خان بخزائنه وأفياله وأتباعه وأشياعه إلى السلطان. وبهذا سلمت لكهنوتى.

وجاء الملك طغان خان مع الملك قراقش خان والملك تاج الدين سنجر وضاء الجبين وأمراء الحضرة إلى البلاط السلطانى، ورجع الداعى مع الأتباع برفقتهم إلى الحاضرة، ووصل إلى البلاط الأعلى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر صفر سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

وبعد أن وصل طغان خان إلى الحاضرة، خص بإعزاز وإكـــرام وافــرين، وفوض إليه إقطاع أوده فى ربيع الأول من العام نفسه، وأغدقت عليــه إنعامـــات كثيرة.

وعندما ازدان عرش السلطنة بعظمة ملك السلطان ناصر الدنيا والدين، عاد طغان خان إلى أوده فى شهور سنة أربع وأربعين وستمائة.

وبعد مدة قصيرة التحق طغان خان برحمة الحق تعالى فى ليلـــة الجمعـــة، ومن عجائب التقديرات الإلهية أنه عندما حدثت الخصومة والنزاع بين طغان خان وتمرخان قيران، واستولى كل واحد منهما على ولاية الآخر، كان موتهما فى ليلـــة واحدة، إذ توفى الأول فى أول الليل، والثانى فى آخره.

وفى هذا المعنى نظم سيد الأكابر والأصاغر شرف الدين البلخى شعرا:

- فى الجمعة الأخيرة من الشهر المسمى شوال

• فى التاريخ الهجرى والمساوى لقيمة الخاء والسين والدال[٩]

- رحل عن الدنيا تمرخان وطغان خان

هذا فى أول الليل وذاك فى آخره

وقد مات تمرخان فى لكهنوتى، ومات طغان خان فى أوده، بحيث لم يعرف أحدهما أثناء حياته بموت الآخر.

ليكن لقاؤهما فى حضرة العزة وفى الآخرة. والله أعلم بالصواب.

الثامن الملك تمرخان

كان الملك تمرخان تركيا محمود السيرة وطيب الأخلاق وغاية فى الشجاعة والشهامة والبراعة فى الكر والفر، وكان أصله من القبچاق ويتمتع بوجه جميـــل ولحية طويلة.

وفى البداية اشتراه السلطان شمس الدين من أسد الدين منكلى أخـــى الملـــك فيروز بمبلغ خمسين ألف چيتل، وحدث أن وقع ابن ملك جندوال المسمى لده فى يد تمرخان فجأة أثناء حرب جندوال، فحمله إلى السلطان، فحاز القبول لذلك.

ثم صار نائبا لطغان خان أمير الركائب آنذاك حيث قام بخدمات جليلة. وبعد أن تم إسناد بداون إلى طغان خان ، صار تمرخان قيران أميرا للركائب.

وفى عهد السلطانة رضية عليها الرحمة أقطع تمرخان قنوج. وقد توجه فى ذلك العهد على رأس جيوش الإسلام إلى كاليور ومالوه بناء على الأمر الأعلـــى، فأظهر آثارا جليلة فى تلك الحرب.

وبعد ذلك عندما عاد إلى الحاضرة فوض إليه إقطاع كره، حيث قام بغزوات كثيرة فى تلك الأنحاء كما قام بقيادة الجيش على أكمل وجه.

وعندما انتقل نصرة الدين تايسى إلى رحمة الحق تعالى، وكـــان صـــاحب إقطاع أوده صارت ولاية أوده وتوابعها تابعة لتمرخان قيران الذى قـــام بأعمـــال عظيمة فى تلك البلاد حتى حدود ترهت، وفاز بغنائم كثيرة، واستولى على أمـــوال وافرة من ملوك الهند وأمرائها ومتمردى تلك الديار، كما أغارعلى ولاية بهتيكوره عدة مرات، واستولى على أموال منها.

وفى شهور سنة اثنتين وأربعين وستمائة حينما كان طغان خان فى الحاضرة قادما من لكهنوتى، توجه تمرخان إلى ناحية لكهنوتى (وقد ذكر قبل هذا الفصل إلى أى مدى انتهى أمره مع طغان خان) ونقل عتاده كله من أوده إلى لكهنوتى، وظل بها مدة عامين يقود الجيوش، وتحقق له النجاح، ثم التحق برحمة الحق، وكان موت طغان خان فى تلك الليلة نفسها أيضا فى طريق أوده.

ولما كان ابن الملك يغان تت تحت إمرة تمرخان وكان يحافظ على حسن عهده، فقد أحضره من لكهنوتى إلى أوده ودفنه هناك (عليه الرحمة والمغفرة) والله أعلم بالصواب.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام على عرش السلطنة.

التاسع الملك هندوخان مؤيد الدين المبارك الخازن

كان هندوخان مهتر المبارك أصلا من مهر، وعندما أحضر إلى السلطان قطب الدين، اشتراه من فخر الدين الأصفهانى. وكان هندوخان رجلا غاية فى طيب السيرة وحسن الأخلاق وصفاء العقيدة، وقد حظى بمكانة كبيرة لدى السلطان، فكان موضع ثقته التامة، وموضع الاحترام والتوقير منذ بداية أمره وحتى نهاية حكم شمس الدين وحكم رضية.

وكان هندوخان صاحب الخزانة، وقد قام بخدمات جليلة، حيث كان يهتم برجال الدولة العظام جميعا الذين وصلوا إلى مناصب الملك ومراتب العظمة ويرعاهم، فكان كالأب للجميع مشفقا وعطوفا.

وفى بداية خدمته للسلطان قطب الدين صار حارسا للفهود، ثم أصبح المشرف على المشاعل فى حدود ولاية برن، وكانت تابعة للسلطان.

وفى ذلك العهد سيره السلطان قطب الدين إلى إحدى القبائل الهندية الثائرة. وفى هذا الغزوألقى هندوخان المبارك برجل هندى على سفود المشعل فقتله. وقد أسند إليه السلطان شئون الطشت فخدم مدة طويلة فى تلك الوظيفة.

ولما انتظم أمر المملكة للدولة الشمسية وأصبح مهتر المبارك صاحب الخزانة، ظل حتى آخرعمره لا ينفض يده من القوامة على شئون الطشت[١٠]. وهكذا كان يعمل طشتدارا خاصا.

وعندما نزل السلطان السعيد شمس الدين بالقرب من كاليور المحروسة، وفتح تلك القلعة، كان الداعى للدولة منهاج بن سراج يعقد مجلس الوعظ والإرشاد فى ذلك الجيش مرتين فى الأسبوع لمدة سبعة أشهر على أبواب الخيمة السلطانية وفقا للأوامر، وفى شهر رمضان والعشر الأول من كل من ذى الحجة والمحرم كان يعقد مجالس الوعظ والإرشاد يوميا.

ولما كان السلطان قد أقر حقوق الدعاء بعد الفتح، فقد أسند إلى هذا الداعى جميع الأمور الشرعية لهذه القلعة. وكان هذا التفويض فى شهور سنة ثلاثين وستمائة.

وخلاصة القول أن مهتر هندوخان المبارك حضربنفسه إلى الخزانة العليا أثناء القيام بالأمور الشرعية وطقوسها، وبذل كثيرا من اللطف والتشجيع بحيث صار الداعى أسير إكرامه. تقبل الله منه وأنزل عليه رحماته.

وعندما انقرض العهد الشمسى، فوضت ولاية أچــه وقلعتها إلى هنــدوخان فى عهد السلطانة رضية. وعندما اعتلى السلطان معز الدين العرش، أقطع جالندر. ثم جاء من تلك البلاد إلى الحضرة السلطانية، ولحق برحمة الحق تعالى.

العاشر الملك اختيار الدين قراقش خان آيتگين رحمة الله عليه

كان الملك اختيار الدين قراقش خان آيتگين من قبائل القراخطــائيين ومــن قدامى العبيد، وكان رجلا غاية فى حسن السيرة والرجولة وصفاء العقيدة، كما كان يتحلى بشيم الرجولة والشجاعة.

وعندما اشتراه السلطان شمس الدين (طاب ثراه) صار الساقى الخــاص، حيث خدم مدة طويلة، ثم أسند إليه إقطاعى بريهون ودرنكوان. وبعد ذلــك صــار حاكما لنواحى تبرهنده لعدة سنوات، ثم فوض إقطاع ملتان بعد كبير خان فى عهــد السلطان السعيد أيضا، وصار لقبه قراقش خان.

ولما انتهى العهد الشمسى، استعادت السلطانة رضية لاهور من كبيرخــان، وفوضت إليه ملتان (كما سبق ذكره وسوف يأتى ذكر أحداث الملك قــراقش فــى لاهور وتمرده ضمن حوادث الكفار وحادثة لاهور إن شاء الله تعالى) وقد أسندت السلطانة رضية ولاية بهيانه إلى قراقش خان فظل فترة بتلك الناحية.

فلما بدأ عهد السلطان معز الدين، وثار الأمراء، ذهب الملك قــراقش مــع الملك يوزبك إلى الحاضرة. ولما كان فخر الدين مبارك شــاه الفرخــى يســتعدي السلطان على ملوك الترك وأمرائهم، فقد تغير السلطان معز الــدين علــى الملــك قراقش والملك يوزبك وقبض على الاثنين.

وبعد فتح المدينة بمدة قصيرة، اعتلى الملك علاء الدين العرش، وصار قراقش خان أميرا للحجاب. وبعد مدة منح بهيانه في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة. وبعد فترة أسندت إليه كره، فجاء من هناك بجيش برفقة الملك قيران تمرخان إلى لكهنوتى وعادا مع طغان خان.

فلما ازدان عرش الملك جمالا وبهاء بالعظمة الملكية لسلطان العالم ناصر الدنيا والدين، استشهد قراقش خان فى سنة أربع وأربعين وستمائة عند حدود كره. عليه الرحمة والغفران.

الحادى عشر الملك اختيار الدين التونيه صاحب تبرهنده

كان الملك اختيار الدين التونيه صاحب تبرهنده ملكا عظيما غاية فى الشجاعة والجلد والرجولة والجرأة. وقد اتفق جميع ملوك ذلك العهد على رجولته وشجاعته، وكان الملك اختيار الدين أثناء أسر السلطانة رضية (طاب ثراها) قد اشتبك فى معارك مع الجيش المتمرد عدة مرات، وأبدى شجاعة فائقة.

وفى البداية عندما اشتراه السلطان السعيد شمس الدين صار ساقيا. وبعد مدة عندما ظهرت على محياه دلائل المجد والرجولة صار صاحب المظلة. وعندما انتهى العهد الشمسى أسندت إليه برن أثناء حكم رضية، وبعد ذلك منح تبرهنده.

وعندما تغير ملوك الترك وأمراؤهم ممن كانوا عبيدا لشمس الدين على السلطانة رضية بسبب نفوذ جمال الدين ياقوت الحبشى، واستحكم عقد المودة والمحبة بين الملك اختيار الدين التونيه وبين الملك اختيار الدين ايتگين أمير الحجاب، وتدعم صرح الاتحاد بينهما أخبره اختيار الدين آيتگين بذلك التغير، فبدأ اختيار الدين التونيه العصيان فى الخفاء فى قلعة تبرهنده، وخلع ربقة طاعة

السلطانة من عنقه فتوجهت السلطانة بقلب جيشها فى قيظ الصيف من الحاضرة إلى تبرهنده (كما سبق ذكره) وعندما سجنت السلطانة رضية، وعاد الملوك والأمراء إلى الحاضرة، واعتلى السلطان معز الدين عرش السلطنة، تزوج اختيار الدين التونيه السلطانة رضية التى كانت فى الحبس آنذاك، وبدأ التمرد بسبب ذلك الزواج.

وبعد أن استشهد الملك اختيارالدين ايتگين، وصار بدرالدين سنقر الرومى أميرا للحجاب، أخرج الملك اختيار الدين التونيه السلطانة رضية من تبرهنده، وجمع الجيوش واتجه معها إلى العاصمة، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

وعندما عادا مهزومين من العاصمة، وأسرت السلطانة رضية على حدود كيتهل، أسر اختيار الدين التونيه عند حدود منصور پور، واستشهد فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

أدام الله السلطان الحالى. آمين يا رب العالمين.

الثانى عشر اختيار الدين آيتگين عليه الرحمة

كان الملك اختيار الدين آيتگين من القراخطائيين، وكان تركيا فاضلا ورجلا طيب السيرة حسن الوجه ذا هيبة وعقل وكياسة تامة. وقد اشتراه السلطان من الأمير أيبك سنامى فأحسن أداء الخدمة للسلطان فى كل منصب تولاه، وبذلك استحق العواطف الملكية والتقدير السامى .

وفى البداية كان رئيسا للحرس الخاص، وبعد مدة عندما ظهرت مخايل الرشد على ناصيته فوض إقطاع منصور پور. وبعد مدة منح كوجات وننديه، فأدى

خدمات جليلة فى تلك المناطق. وحينما آل العرش إلى السلطانة رضـية (طـاب مرقدها)، أدى لها خدمات قيمة فاستدعته السلطانة إلى العاصمة، وأقطعته بداون.

وبعد فترة وصل إلى منصب أمير الحجاب، ولكن بسبب قرب جمال الـدين ياقوت الحبشى من السلطانة، انصرف جميع ملـوك التـرك والغـور والتاجيـك وأمرائهم عن خدمة البلاط، فاختلت أمورهم خاصة اختيارالدين آيتگين وكان أميـر الحجاب (كما سبق ذكره عند الكلام عن السلطانة رضية) ولهذا السـبب استشـهد جمال الدين ياقوت وأشاح الحظ بوجهه عن السلطانة رضية.

وفى هذا يقول شاعر عذب البيان هذا المثنوى:

- لوى الحظ عنانه عن حياتها

عندما رأى غبارا أسود يلوث أذيالها

وآل العرش إلى معز الدين. وفى يوم البيعة حينما أجلسوا السـلطان علـى العرش فى قصر الحكم، وتم استدعاء الملوك والأمراء والعلماء والصدور وأكـابر الجيش ورجال البلاط للبيعة العامة فى البلاط الأعلى، بايع الجميع السلطان معـز الدين على أن يكون اختيار الدين آيتگين نائبا له.

وقد اتفق اختيار الدين مع السلطان معز الدين على أن يسند شئون المسند إلى أحد الأتباع لمدة عام بسبب صغر سن السلطان، فأصدر السلطان أمرا بهذا.

وعند التنفيذ احتال آيتگين بالاتفاق مع الوزير الخواجه نظام الملـك مهـذب الدين واستولى على مقاليد الأمور، وطلب من السلطان شارة الملـك مـن الجيـش والفيلة، كما تزوج إحدى شقيقاته، فصارت كل أمور المملكة تابعة له، ممـا أثـار الغيرة فى قلب السلطان، فحاول قتله فى الخفاء عدة مرات، ولم يتمكن من ذلك.

وفى يوم الاثنين الثامن من شهر محرم سنة ثمان وثلاثين وستمائة (كما قيل) ذهب قائد الجيش أحمد سعد (عليه الرحمة) فى الخفاء إلى السلطان، وعرض عليه خطة؛ فقد كلفوا عددا من الأتراك وأمروهم فنزلوا سكارى من القصر الأبيض، واقتحموا البلاط، وقتلوا اختيار الدين آيتكين بطعنة سكين، ثم طعنوا الخواجه مهذب الدين الوزير عدة طعنات، لكنه هرب جريحا من أمامهم ونجا. والله أعلم بالصواب.

الثالث عشر الملك بدر الدين سنقر الرومى. عليه الرحمة

كان بدر الدين سنقر رومى الأصل، وقد روى بعض الثقات أنه كان ابنا لرجل مسلم ووقع فى الأسر. والحق أنه كان رجلا غاية فى حسن السيرة وذا جمال وعظمة وحسن أخلاق ومتواضعا وصاحب شفقة ومحمود الخصال وسائسا للناس.

وفى البداية عندما اشتراه السلطان شمس الدين صار طشتدارا، وبعد مدة طويلة من قيامه بهذه الخدمة أصبح قائما على شئون الصيد، ثم حارسا لمخازن السلاح فى بداون.

وبعد مدة صار نائبا لأمير الحجاب. وقد أدى خدمات جليلة للسلطان فى كل عمل أسند إليه. وحينما صار نائبا لرئيس الركائب، لم يغب لحظة عن البلاط الأعلى إلا لقضاء مهمة ضرورية، فكان يلازم عتبة بلاط السلطنة فى السفر والحضر.

وقد خص كاتب هذه السطور بألطاف وإنعامات كثيرة فى كاليور المحروسة، وأعزه وأكرمه لدرجة لا تزايل معها صورة هذه الإنعامات خاطر الداعى قط. فليرحمه الحق تعالى.

وكانت السلطانة رضية قد منحت بدر الدين بداون فى شهور سنة ست وثلاثين وستمائة أثناء حكمها. وعندما استشهد اختيار الدين آيتگين فى العهد المعزى، استدعى السلطان معز الدين بدر الدين سنقر من بداون حيث صار أميرا للحجاب.

وعندما توجه اختيار الدين التونيه مع السلطانة رضية من تبرهنده إلى الحاضرة ووصلا إلى حدود دهلى، أظهر بدر الدين سنقر الرومى آثارا حميدة فى دفع تلك الفتنة.

وبعد مدة قصيرة ظهرت العداوة بين بدر الدين وبين الخواجه نظام الملك مهذب الدين الوزير لسبب بسيط لا يستحق الذكر. وكانت تلك العداوة تزداد يوما بعد يوم، لهذا أثار الخواجه مهذب الدين حفيظة السلطان عليه فلم يعد للسلطان ثقة فيه، ولم يعد له بالتالى ثقة فى السلطان، فجمع أكابر الحضرة فى قصر سيد تاج الدين الموسوى للقيام بثورة على السلطان.

وفى يوم الاثنين العاشر من صفر سنة تسع وثلاثين وستمائة، أخبر الخواجه مهذب السلطان بهذا الوضع، ودعاه إلى الاستعداد، وبدأ بدر الدين سنقر فى تحقيق هذه الفكرة، وتوجه فى اليوم نفسه إلى ناحية بداون.

وبعد مدة أعاده قدره إلى الحاضرة، دون الحصول على إذن بالمجىء، فجاء إلى دهلى، ونزل فى معسكر الملك قطب الدين حسن (عليه الرحمة) عساه يجد الأمان فى حماه، فصدر الأمرمن البلاط بأسره وتقييده. وظل فى الحبس والقيد فترة حتى استشهد ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة. عليه الرحمة والمغفرة.

الرابع عشرالملك تاج الدين سنجر قتلق

كان الملك تاج الدين قتلق رجلا كاملا، أصله من القبچاق، وكان غاية فـــى الشجاعة والرجولة والشهامة والمهارة والجلد، بلغ الكمال فى جميع الصفات، وكان بالغ الصلاح والطهر، ولم يرتكب منكرا قط.

وكان السلطان السعيد شمس الدين قد اشتراه من الخواجـــه جمـــال الـــدين نريمان. وفى البداية عمل تاج الدين سنجر رئيسا للحرس، وبعد فترة تولى حراسة الركائب. وقد أدى خدمات قيمة للسلطان فى كل وظيفة تولاها، فلما انطوى العهـــد الشمسى وآل العرش إلى السلطانة رضية فوض برن، واتجه على رأس جيش إلى كاليور.

وفى شعبان سنة خمس وثلاثين وستمائة، خرج كاتب هذه السطور الـــداعى للدولة القاهرة منهاج بن سراج برفقة تاج الدين ســـنجر مـــن كاليورالمحروســـة، والتحق بخدمة السلطانة رضية.

وخلال الطريق أمر لى بنعم وألطاف كثيرة لا يحيط بها وصـــف. فأثنـــاء الرحيل من كاليور نقل صندوقِي الكتب الخاصة بهذا الداعى على جملـــه الخـــاص وأوصلهما إلى مهاون، وكان يهب الداعى إنعامات وافرة من أوقات إلى أخرى.

ليتقبل الحق تعالى منه ما قدم وليرحمه.

وبعد أن عاد تاج الدين سنجر إلى الحاضرة أقطع ولاية سرستى. وحينمـــا آل العرش إلى معز الدين أدى تاج الدين خدمات كثيرة، ولما انتهى العهد المعزى، وآل العرش إلى علاء الدين أقطع بداون.

وفى شهور سنة أربعين وستمائة أطاح بثوار كاتهتيهر فى بداون، وجاهد جهادا كبيرا وبنى المساجد الجامعة فى عدة أماكن، وأقام المنابر، ورتب الخطب، وجمع جيشا كبيرا، وأعد ثمانية آلاف فارس وعددا كبيرا من المشاة، وقرر أن يزحف بالجيش إلى ولايتى كالنجر ومهوبه ويستولى عليهما، فحقد عليه البعض لكثرة جنده وموفور عدته وعتاده، وبالغ قوته وهيبته وشجاعته فى قيادة الجيش.

فسولت لهم أنفسهم، وسول لهم الشيطان أن يدسوا له السم فى طعام التانبول، وأعطوه له فابتلى بمرض البطن، ولحق برحمة الحق بعد فترة نتيجة لهذا المرض.

ليجعل الله سبحانه وتعالى دعاء هذا الداعى وافيا بحقوق ذلك الملك طيب السيرة لديه.

وهذه واحدة من إنعاماته: فى شهور سنة أربعين وستمائة عندما قرر الداعى السفر من الحاضرة دهلى إلى لكهنوتى، وأرسل أتباعه قبله إلى بداون، أمر هذا الملك طيب السيرة بمعاش لأتباع هذا الداعى وأبنائه، كما جاد لهم بأنواع من النعم والإكرام.

وعندما وصل الداعى بعد خمسة أشهر إلى بداون فى إثر أتباعه أمر له بإنعامات كثيرة، وأعزه بما يعجز القلم عن تصويره، وعين له إقطاعا فى بداون، وغمره بموفور الألطاف والإكرام، ولكن لما كان القدر والرزق يجتذبان الداعى إلى لكهنوتى، وقضاء السماء يشده إليها، لذا فقد ذهب إلى هناك.

تقبل الحق تعالى تلك الألطاف من ذلك الملك عطر السيرة، وخلد السلطان المعظم على عرش الملك. والله هو الباقى والدائم.

الخامس عشر الملك تاج الدين سنجر كريت خان

كان الملك كريت خان من أتراك القبچاق، وكان غاية فى الرجولة والشهامة والشجاعة والحكمة والجلد بحيث كان فريدا بين المقاتلين فى جميع صفوف جيش الإسلام، ولم يكن له ثان فى السلاح والفروسية، بحيث إنه كان له حصانان معدان للركوب فكان يركب فوق واحد منهما، ويمسك بلجام الآخر ويهاجم، وبين اندفاع الجوادين كان يقفز من واحد إلى الآخر ثم يرجع إلى الأول بسرعة.

وقد حدث عدة مرات أنه كان يمتطى الحصانين أثناء سيرهما، وكان فى قذف السهام من المهارة بحيث لم ينج أى خصم قط من إصابة سهمه فى ساحة حرب، ولا أى حيوان فى حلبة صيد. ولم يكن يصطحب فى الصيد فهدا أوصقرا أوكلب صيد، بل كان يقضى على الجميع بإصابة سهمه، وفى كل دغل كان يصطاد فيه كان يتقدم دوما مرافقيه وأتباعه، كما كان أميرا للبحر والسفن، وكان غاية فى المحبة والمودة لهذا الداعى.

ليشمله الله تعالى بغفرانه.

وفى البداية عندما خرج أتراك السلطان على الخواجه مهذب الوزير فى الثانى من شهر جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة، كان كريت خان هو زعيم ثوار تلك الطائفة. وقد ضربه كبير الحجاب الجتانى(١١) وغلام الخواجة مهذب بالسيف فى وجهه فأصابه بجرح بحيث ظل أثره باقيا على وجهه.

وعندما استشهد الخواجه مهذب، صار الملك كريت خان حارسا للفيلة. وبعد ذلك أصبح رئيسا للحرس، ثم فوض برن ثم أوده، حيث جاهد كثيرا فى تلك الديار وأظهر كثيرا من آثار الغزو، وأخمد كثيرا من الثورات ثم ذهب من أوده إلى بهار،

ونهب تلك الولاية، وقد أصابه سهم فى مقتل فجأة أمام قلعة بهار فاستشهد عليه الرحمة والغفران.

السادس عشر الملك سيف الدين بت خان أيبك الخطائى

كان الملك سيف الدين بت خان أيبك الخطائى على درجة عالية من حسن السيرة وحليما ومتواضعا وحسن العقيدة وغاية فى الجلد والشجاعة ومشهورا بالرجولة والشهامة.

وفى البداية عندما اشتراه السلطان السعيد شمس الدين صار حارسا، ثم صاررئيسا للحرس فى عهد السلطان علاء الدين وأقطع كهرام وسامانه، ثم فوض برن، وعين قائدا للجيوش المتجهة لإخضاع ولايتى أچه وملتان من قبل الحضرة. وفى تلك الحرب غرق أحد أبنائه بجواده فى نهر السند، وكان ذلك الابن قد عرف بالشجاعة والرجولة فى أوائل شبابه.

وبعد أن عاد من هناك بفترة وفى عهد سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين صار نائبا، وأظهر آثارا جليلة فى خدمة البلاط، ولبث فى الجاه والمجد فترة حتى سقط فجاة من فوق الجواد فى حرب سنتور فلحق برحمة الحق.

ليحفظ الحق تعالى ملك الإسلام فى الملك والسلطنة. آمين يا رب العالمين.

السابع عشر الملك تاج الدين سنجر ترخان

كان الملك تاج الدين سنجر ترخان تركيا من الكرخ غاية فى الشجاعة والرجولة وشهما وحكيما ذا أوصاف حسنة كثيرة وأحوال راجحة تفوق الحصر ومتصفا بالرجولة وحسن القيادة ومعروفا بالطيبة والسيرة الطاهرة.

وقد اشتراه السلطان السعيد شمس الدين، ثم صار رئيسا للركائب فى عهد السلطان معز الدين، وبعد ذلك أصبح نائبا لأمير الحجاب فى عهد السلطان ناصر الدين.

وبعد مدة أصبح أميرا للحجاب وفوض جهنجهانه. وحينما ذهب ألغ خان الأعظم إلى ناگور مظفرا اختصه الملك تاج الدين سنجر ترخان بالخدمة والتأييد، فأسند إليه كسمندى ومنديانه فى بلاد الهند حيث لبث هناك فترة. وعندما التحق الخان الأعظم بخدمة البلاط الأعلى، جاء الملك ترخان إلى الحاضرة فأقطع برن ومكث هناك فترة.

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة، أصبح نائبا فى عاصمة ملك الإسلام، وكانت بداون تابعة له. وعندما جاء الملك قتلغ خان من أوده إلى بداون خلافا للأمر الأعلى متضامنا مع جيش الهند، توجه الملك ترخان على رأس الجيوش من الحاضرة مع الملك يكتم ركنى اورخان لدفع جيش الهند.

فلما بلغا حدود سيهرامو تلاقى الجيشان، وارتد الملك ترخان مضطرا، ورجع إلى الحاضرة، وعينت له أوده فذهب إلى هناك، وأمسك بزمام الأمور فيها، وسحق ثورات الكفار سحقا شديدا، واستولى على الأموال، وعاد إلى الحاضرة العليا عدة مرات وفقا للأوامر، وكان دوما يطوق عنقه بربقة الطاعة والولاء.

وفى هذه السنة التى يحرر فيها هذا الكتاب، وهى سنة ثمان وخمسين وستمائة، جاء ترخان إلى الحاضرة العليا بناء على الأمر الأعلى، وفقا لنصيحة الخاقان المعظم.

وقد ذهب على رأس جيش قلب الحاضرة إلى مناطق سفوح ميوات، وأظهر آثارا جليلة، وعاد إلى البلاط ثانية، ثم توجه مرة ثانية إلى الغزووالجهاد فى الركاب الملكى لألغ خان المعظم لقتال هنود سفوح ميوات، وأظهر كثيرا من

ضروب الشجاعة والجلد، وعندما عاد إلى الحاضرة خص بتشريفات وافرة وعاد إلى أوده.

أدام الحق تعالى عبيد الدولة العالية فى الحكم وخلدهم بمنه وكرمه.

الثامن عشر الملك اختيار الدين يوزبك طغرل خان

كان الملك اختيار الدين يوزبك من أصل قبچاقى، وكان عبدا للسلطان شمس الدين. وقد عمل نائبا لذواق الطعام فى كاليور. وحينما آل عرش الملك إلى السلطان ركن الدين فيروز شاه أصبح من خيرة خواصه، ففوض إليه منصب أمير المجلس، ثم أمر له بتولى أمر الفيلة، كما اختصه السلطان بغاية قربه.

وعندما قام عبيد السلطان بالثورة فى صحراء تراين، واستشهد جماعة من الأكابر، مثل تاج الملك وبهاء الملك وكريم الدين الزاهد ونظام الدين الشرقانى، كان الملك يوزبك واحدا من قادة متمردى تلك الطائفة.

فلما آل العرش إلى السلطانة رضية، صار يوزبك أميرا للركائب. وعندما اعتلى السلطان معز الدين العرش، وحاصر جماعة الملوك والأكابر دهلى، جاء الملك يوزبك مع الملك قراقش إلى المدينة لمساعدة السلطان معز الدين فى يوم الثلاثاء آخر شهر شعبان سنة تسع وثلاثين وستمائة، كما أدى خدمات جليلة فى أوقات أخرى .

وكان فخر الدين مبارك شاه فرخى قد بسط نفوذه على السلطان معز الدين، واستمال ملوك البلاط من الأتراك وأمرائهم نحوه دون الحضرة، وقد حرض السلطان فاعتقل كلا من الملك يوزبك والملك قراقش، وكبلهما بالأغلال فى يوم الأربعاء التاسع من شهر رمضان المبارك سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وعندما فتحت المدينة يوم الثلاثاء السابع من شهر ذى القعدة سنة تسع، أطلق سراح الملك يوزبك. وبعد أن اعتلى السلطان علاء الدين العرش، أسند تبرهنده إلى يوزبك، ثم فوضه حكم لاهور لفترة، ولهذا السبب وقع نزاع بين يوزبك وبين الملك نصير الدين محمد بندار.

وبعد ذلك بدأ يوزبك النزاع مع الحضرة؛ إذ كان التهور والاستبداد في طبيعته ومزاجه، حتى استدعاه ألغ خان المعظم إلى الحضرة فجأة حيث حظى فيها بالرعاية. وقد عرض ألغ خان المعظم الأمر على الرأى المبارك للسلطان، فاختص يوزبك بالرعاية الملكية، كما عفا عن تمرده وعصيانه.

وبعد مدة أقطع يوزبك قنوج، وبدأ التمرد مرة أخرى، فتوجه الملك قطب الدين حسن (طاب ثراه) على رأس جيش من قبل الحضرة، وأعاده للخدمة والطاعة.

ثم أقطع يوزبك أوده بعد فترة، وجاء ثانية إلى الحضرة، وفوض مملكة لكهنوتى. فلما ذهب إلى تلك الناحية، وأمسك بزمام أمورها، قام صراع بينه وبين حاكم جاجنگر، وكان قائد جيش جاجنگر المسمى ساپنتر صهرا لملك الهند، وهوالذى كان قد جاء فى عهد طغان خان طغرل إلى شاطئ نهر لكهنوتى، وأظهر شجاعة فائقة، وطارد جند الإسلام حتى أبواب لكهنوتى، واضطرهم إلى التقهقر داخل قلعة المدينة.

وقد أظهر يوزبك شجاعة تماثل ما حدث من طغان خان وهزم، ثم جرى قتال بينه وبين ملك جاجنگر للمرة الثانية انتصر فيه ملك جاجنگر أيضا، وفى

المرة الثالثة حلت بيوزبك الهزيمة أيضا، وكان الفيل الأبيض الذى لم يكن هناك أقوى منه ثملا، ففقده أثناء المعركة ووقع فى يد كفار جاجنگر.

وفى السنة التالية زحف الملك يوزبك بالجيش من لكهنوتى إلى ولاية ارمودن، وحمل فجأة على ملك الهند، ووصل إلى عاصمته أرمودن، فتقهقر ملك الهند أمامه من ذلك الموضع، ووقعت مؤنته وأتباعه وفيله فى يد جيش الإسلام.

وعندما وصل إلى لكهنوتى، بدأ العصيان ضد الحاضرة، ورفع ثلاثة أعلام؛ أحمر وأبيض وأسود، وأحضر الجيش من لكهنوتى إلى ناحية أوده، ودخلها، وجعل الخطبة باسمه، ولقب نفسه بالسلطان مغيث الدين.

وبعد أسبوعين قام أحد الأمراء الأتراك من جيش السلطان بمهاجمة الملك يوزبك على غرة معلنا أن جيش السلطان قد وصل فوهنت عزيمة الملك يوزبك، واستقل قاربا واتجه ناحية لكهنوتى.

وقد استنكر جميع أهل الهند من أصحاب العمائم والقلانس من المسلمين والهنود صدور هذا التمرد من الملك يوزبك إذ كان قد عصى مليكه، وأعلن التمرد عليه، فلا غروأن حل به شؤم ذلك التمرد، فاقتلع أساسه.

وعندما عاد من أوده إلى لكهنوتى ذهب إلى كامرود وعبر بالجيش نهر بيكمتى، ولما لم يكن لملك كامرود قدرة على مقاومته، فقد تقهقر مهزوما، وفتح الملك يوزبك مدينة كامرود، واستولى على أموال وخزائن لا يحيط بها الإحصاء والتسجيل عدا ووزنا.

وحينما كان هذا الداعى يقيم فى لكهنوتى، سمع من بعض الثقات، أنه منذ عهد گرشاسب ملك العجم الذى كان قد ذهب إلى ناحية الصين، وتوجه منها إلى

الهند، وحتى هذا الوقت يوجد ألف ومائتا خزانة لم تفض أختامها كلها، حيث لم يكن أحد من هؤلاء الملوك قد تصرف فى هذه الأموال والدفائن.

فوقعت كلها فى يد جيش الإسلام، وأقيمت الخطبة وصلاة الجمعة فى كامرود، وارتفعت شعائر أهل الإسلام. ولكن ما الفائدة فقد أضاع كل ذلك هباء بجنونه، وهكذا قال العقلاء: "غاية الطمع لم تكن مباركة قط على أى طامع".

شعر

– الدولة التى تتردد بين النهوض والتعثر

هى دولة سريعة الاضطراب.

فلما فتحت كامرود (هكذا قيل) أرسل ملك الهند الرسل تباعا قائلا: " لقد فتحت لك هذه البلاد التى لم تفتح لأحد قط من أهل الإسلام، فعد الآن، وأجلسني على العرش، وسوف أرسل إليك كل عام ذهبا يوازى أحمال العديد من الفيلة، وأمنحك كثيرا من الأفيال، وأقر خطبة الإسلام وسكته. "

ولكن لم يرض الملك يوزبك بهذا أبدا، فأمر الملك الهندى سائرالحشم والرعايا الموجودين عند الملك يوزبك وقال لهم: " اذهبوا واسترضوه ، واشتروا جملة الغلة الموجودة فى كامرود بأى ثمن يرتضيه، بحيث لا تبقى مؤن لجيش الإسلام. "

وهكذا فعلوا واشتروا الغلال كلها وسائرما وجدوه بسعرمرتفع، ولم يحتفظ يوزبك بأى مؤنة ولا ذخيرة اعتمادا على ما فى البلاد من عمران وعمارة.

وعندما حل وقت محصول فصل الربيع، خرج الملك الهندى مع جملة رعاياه، وفتحوا السدود الموجودة على أطراف النهر، فأعجزوا الملك يوزبك وجند

الإسلام، الذين أصبحوا على شفا الهلاك عوزا وحاجة، وتشاوروا جميعا قائلين: "على أية حال يجب الذهاب من هنا وإلا فسوف نهلك من الجوع." وانطلقوا من كامرود إلى لكهنوتي عازمين على العودة.

وكان الهنود قد استولوا أيضا على الطريق والصحراء والنهر، فاستخدم المسلمون مرشدا ليخرجهم من تلك البلاد إلى أماكنهم الصحراوية، فلما قطعوا عدة منازل، حوصروا فى مضايق الوديان والطرق الضيقة، فحاصرهم الهنود من الخلف والأمام.

وتقاتل فيلان فى مكان ضيق أمام الصفوف، فتشابك الجيشان، وجاء الهنود من الأطراف، واشتبك المسلمون والهنود مع بعضهم البعض.

وفجأة أصيب الملك يوزبك بسهم فى صدره وهوعلى ظهر الفيل، فوقع وأسر، كما أسر جميع أولاده وأتباعه وجنده. وعندما حملوه إلى الملك، التمس أن يحضروا ابنه، وعندما أحضروه وضع وجهه على وجه ابنه، وأسلم روحه للحق.

أدام الحق تعالى السلطان الحالى على عرش الملك.

التاسع عشر الملك تاج الدين سنجر أرسلان خان الخوارزمى

كان أرسلان خان رجلا شجاعا ذا جلد، بلغ أوج الحكمة وقمة الشجاعة. وكان السلطان السعيد شمس الدين قد اشتراه من اختيار الملك أبى بكرالحبشى، الذى كان قد أحضره من نواحى عدن ومصر، ويقول البعض إن أرسلان خان كان من أبناء الأمراء الخوارزميين فى ديار الشام ومصر، حيث أسر فى تلك المنطقة وتم بيعه.

وفى البداية عندما اشتراه السلطان شمس الدين صار رئيس الخاصة، وخـدم السلطان لفترة. وعندما انتهى عهد الدولة الشمسية، وانتهى عهد ركن الدين فيروز شاه، صار ذواقا للطعام فى عهد السلطانة رضية، وبعد مدة أقطع بلارام.

وكان السلطان السعيد الشهيد شمس الدين قد تزوج أثناء حياته ابنـة الملـك بهاء الدين طغرل ملك بهيانه، وكانت هذه الولاية وأنحائها قد عمرت بواسطة الملك بهاء الدين فى أوائل عهد الإسلام.

وقد أقطع أرسلان خان بهيانه فى العهد الناصرى (خلد ملكه) وبعـد مـدة فوض منصب صاحب الوكالة، ثم استخلص تبرهنده المحروسة مـن يـد عمـال شيرخان، فصارت تابعة له.

ولما دخل ألغ خان الأعظم من ناگور إلى الحاضرة فى ذى الحجـة سـنة إحدى وخمسين وستمائة، بناء على الأمر العالى (وما زال كذلك) كان أرسـلان خان برفقته. وعندما وصلا إلى الحاضرة لقيا إعزازا فى بلاط ملاذ العـالم، ثـم عادا إلى تبرهنده.

وحينما عاد الملك شيرخان من تركستان، توجه للاستيلاء علـى تبرهنـده، مصطحبا معه من لاهور فرسانا ورجالة كثيرين، وفى الليل بلغ القلعة، وانتشـر رجال جيش شيرخان فى المدينة والأطراف.

فلما أضاء صباح العالم بنور الشمس، خرج أرسلان خان سنجر مع خواصه وأولاده من القلعة وقاد الهجوم، ولما كان فرسان شير خان قد تفرقوا، فقد اضـطر شير خان إلى التراجع.

وبعد هذا عندما جاء شير خان إلى الحضرة السامية، جاء أرسلان خان أيضا إلى البلاط بناء على الأمر، حيث أقام فترة هناك. وبعد هذا أقطع أوده، وقد ناوش قتلغ خان والأمراء ممن كانوا برفقته أطراف أوده وكره عدة مرات، فقاوم أرسلان خان مناوشاتهم، وزحف بالجيش إليهم، وفرق تلك الطائفة.

وبعد ذلك لاح فى خاطر أرسلان خان خلاف طارئ مع الحضرة، فتوجهت الرايات العليا إلى أوده ومناطق السفوح للقضاء على هذا التدبير.

فلما أظلت الرايات العليا تلك البلاد بظلها، فر أرسلان خان من أمام جنود القلب، وأرسل الرسل، وطلب الأمان لنفسه على أن يأتى مع قتلغ خان ابن الملك جانى طائعين عندما تعود الرايات العليا، فاستجيب لاقتراحهم.

وعندما عاد الموكب الأعلى إلى مقر السلطنة، استعادت دار الملك أبهتها، وبعد مدة جاء أرسلان خان إلى حاضرة البلاط مرة أخرى، واختص بإعزاز وإكرام وافرين.

وبعد فترة من وجوده فى الحاضرة، أقطع مدينة كره فى شهور سنة سبع وخمسين وستمائة. وفى أوائل هذا العام قاد الجيش من كره معتزما نهب ولايتى مالوه وكالنجر، فلما قطع بعض المنازل غير اتجاهه وذهب إلى بلاد لكهنوتى.

وكان الملك عز الدين بلبن صاحب إقطاع لكهنوتى قد ذهب إلى ناحية ولاية بنك، وترك لكهنوتى خالية. ولم يكن أرسلان خان قد كاشف أحدا قط من أبنائه أو الأمراء والملوك والأتباع بأنه متجه إلى بلاد لكهنوتى، ولم يكن معه إذن أو أمر من الحضرة بهذا الأمر.

فلما بلغ تلك المنطقة أبت جماعة من الأبناء والأمراء أن ترافقه لما علم من مكنون ضميره. إلا أنه لم يكن هناك سبيل للعودة، فاضطروا إلى مرافقته. فلما بلغ باب مدينة لكهنوتى حوصر أهل تلك المدينة بداخلها.

ويقرر الرواة أن أرسلان خان حارب مدة ثلاثة أيام فتح المدينة بعدها، وأمر بالغارة، واستولى جيشه على أموال المسلمين وماشيتهم وعبيدهم.

واستمر هذا النهب وتلك الغارة مدة ثلاثة أيام. وعندما هدأت تلك الفتنة، وفتحت المدينة، وعلم الملك عز الدين بلبن صاحب إقطاع لكهنوتى حيث كان بهذا الأمر، عاد أدراجه ووقعت بينه وبين أرسلان خان موقعة.

وكان قد صدر عن الحضرة السامية أمر بتفويض ولاية لكهنوتى إلى عز الدين بلبن، بعد أن كان قد أرسل فيلين وأموالا ونفائس كثيرة إلى البلاط. وقد استولى عز الدين على كل ما كان يملكه أرسلان خان الذى أسر. وبقول البعض إنه استشهد.

وقد تم تحرير هذا القدر المعلوم من أحوال تلك البلاد وأحداث تلك الأطراف.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام.

العشرون الملك عز الدين كشلوخان السلطانى

كان الملك عز الدين بلبن من أصل قبچاقى، وكان رجلا شجاعا وجلدا وطيب السيرة، يعتقد فى العلماء والفضلاء وأهل الخير والزهاد. اشتراه السلطان من تاجر بالقرب من قلعة مندور.

وقد عمل فى البداية ساقيا، فلما قام بخدمة السلطان فترة أسندت إليه السقاية فى كاليور، ثم أقطع برهمون، وبعد مدة فوض برن.

فلما انقرض عهد الدولة الشمسية، كان عز الدين على رأس الثوار أثناء ثورة الأمراء الأتراك فى المعسكر الركنى فى تراين.

وعندما انقضى عهد ركن الدين فيروز شاه، وحدث عصيان الملك جانى والملك كوچى على باب مدينة دهلى ضد السلطانة رضية والأمراء الأتراك عبيد الدولة الشمسية الذين كانوا فى خدمة بلاطها أسر الملك بلبن فى تلك المعارك على يد العصاة، ثم نجا ووجد إعزازا وإكراما من السلطانة.

وبعد أن انطوى عهد رضية، وآل عرش السلطنة إلى معز الدين، ظل بلبن مكرما كذلك، حتى أثار الخواجه مهذب الوزير الخلاف (كما سبق ذكره) بين السلطان معز الدين وبين أمراء الترك.

وقبل ذلك، كان الأمراء والملوك قد اتفقوا جميعا على عزل معز الدين من العرش، وجاء الجميع برفقة بعضهم البعض إلى مدينة دهلى فى سنة أربعين وستمائة، واستمرت الخصومة ودام النزاع نحوخمسة أشهر أوأكثر من ذلك.

فلما خضعت المدينة للملوك، وكان الملك بلبن قائدا لثورتهم، فقد قصد الملك بلبن مقر الحكم فى أول يوم دخل فيه جيش الأمراء إلى المدينة، وأطلق مناديا فى المدينة، يعلن حكمه على الفور.

وفى الحال اجتمع اختيار الدين آيتگين صاحب كهرام وتاج الدين سنجر قتلق ونصرة الدين آيتمر وعدة أمراء آخرين عند روضة السلطان شمس الدين

(طاب ثراه) واستنكروا المنادى بالإجماع، واتفقوا فأخرجوا أبناء السلطان والأمراء ممن كانوا فى القيد.

وحينما علم الملك بلبن اتفق معهم، وأجلس علاء الدين على العرش، فأمر له بولاية ناگور وبفيل، فذهب إلى تلك الناحية.

وبعد فترة عندما جاء جيش كفار الصين إلى قلعة أچـــه، سار السـلطان عــلاء الدين بجيش الإسلام من الحاضرة إلى نهر بياه لردهم، ثم قدم الملك بلبن بجيش من ناگور. وعندما انتهت تلك المهمة على أكمل وجه، وانصرف جيش الكفــار مــن أچـــه مهزوما، ذهب الملك بلبن إلى ناگور وأقطع ملتان.

وعندما جلس سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين (خلده الله) على عــرش السلطنة، جاء الملك بلبن عدة مرات، والتمس ولايتى أچــه وملتان، وقبـل طلبــه على أن يعهد بولايتى سوالك وناگور للأتباع الآخرين من ملوك الـبلاط، إلــى أن يعين واحد منهم من قبل الحضرة.

وما إن استولى بلبن على أچـــه حتى احتفظ بناگور، ولم يتخل عنها ثانيــة، فصمم السلطان الأعظم (خلد الله ملكه وسلطانه)على الذهاب من الحاضــرة إلـــى ناگور مع ملوك الإسلام (أعز الله نصرهم) خاصة ألغ خان المعظــم (نصــر الله دولته) وعندما وصل السلطان إلى تلك الناحية عاد بلبن إلى الطاعة، وسلم نـــاگور بعد صراع ومضايقات كثيرة، واتجه إلى أچـــه.

وحينما فوضت ولايتى ملتان وأچـــه إلى الملك بلبن مـــن قبـل الحضــرة السامية، قاد الملك حسن قرلغ الجيش من بنيان إلى باب ملتان للاســتيلاء عليهــا، فجاء الملك بلبن من أچـــه لصدهم.

فلما التقى الجيشان هجمت جماعة من المقاتلين والمحاربين من جيش الملك بلبن تقدر بخمسين فارسا مغوارا ومحاربا على الملك حسن قرلغ، وهاجموا قلـب جيشـه، فاستشهد الملك حسن قرلغ، كما استشهد أكثر هؤلاء المقاتلين الذين أظهروا شجاعة فى ذلك القتال، واقتحم الملك بلبن قلعة ملتان، وأخفى جنود قرلغ نبأ موت ملكهم.

وعلى هذا عسكر بلبن على باب مدينة ملتان، وتحدث الرسل بالصلح بـين الفريقين لتسليم ملتان إلى القرلغيين، وتحقق بذلك السلام، وسلم الملك بلبن ملتـان، وذهب إلى أچـه، واستولى القرلغيون على ملتان، ولما علم الملك بلبن أن الملـك حسن قرلغ قد استشهد، ندم على تسليم ملتان، ولكن لم يفد ذلك الندم.

وبعد مدة استخلص الملك شيرخان ملتان من قبضة القـرلغيين وأخضـعها، وولى عليها الملك كربز. وفى يوم الثلاثاء الثانى من شهر ربيع الأول سنة ثمـان وأربعين وستمائة، جاء الملك بلبن من أچـه بهدف الاستيلاء على ملتـان، ونـزل أمام القلعة. ووصل كاتب هذه السطور من الحاضرة العظيمة دهلـى إلـى ملتـان لإرسال الغلمان إلى خراسان.

وبعد هذا أقام الملك بلبن مدة شهرين أمام قلعة ملتان، ولم تسقط القلعة فـى قبضته فعاد إلى أچـه.

وحدث أن جاء الملك شيرخان من تبرهنـده ولاهـور إلـى قلعـة أچـه وحاصرها، وأقام هناك فترة. وبينما كان الملك بلبن فى خـارج القلعـة، وفجـأة واعتمادا على أنه هووشيرخان من منزل واحد، ومن بلاط واحد، جاء بلـبن إلـى معسكر الملك شيرخان، ونزل فى خيمته، فاحترمه الملك شيرخان فى الظاهر، وقام وخرج من خلف الخيمة، وأمر بالتحفظ عليه، وعدم السماح بخروجه مـن هنـاك

حتى يستسلم سكان قلعة أچـه. وعند ذلك اضطر الملك بلبن إلى أن يـأمر أهـل القلعة بتسليمها.

فلما سقطت القلعة في يد شيرخان، أطلقوا سراح الملك بلـبن، فجـاء إلـى الحاضرة. وعندما وصل إلى البلاط أقطع مدينة بداون بملحقاتها. وعندما اتجهـت الرايات العليا إلى الشمال واستردت تبرهنده المحروسة، توجه الجيش إلى أچـه وملتان، وجرت مشادة بين شيرخان وملوك الحاضرة، فتوجه الملك شيرخان إلـى التركستان، وصارت ملتان وأچـه تابعتين للملك بلبن مرة أخرى.

وحينما استولى بلبن على تلك الديار تمرد على الحضـرة، ووسـط الملـك شمس الدين كرت الغورى، فى طلب المدد من هولاكوالمغولى ملـك التركسـتان، وأرسل ابنه رهينة. فلما وصل المدد وكان ألغ خان المعظم قـد التحـق بـالبلاط، انفصل الملك قتلغ خان، وانضم إلى الملك بلبن، حيث كانت الرايات العليا قد عادت إلى الحضرة.

وقد توجه الملك بلبن فى شهور سنة خمس وخمسين وستمائة مـع جيـوش أچـه وملتان إلى حدود ممالك دهلى، فلما علم السلطان بهذا العزم، صدر الأمـر الأعلى بدفع تلك الطائفة، فعاد ألغ خان الأعظم (خلدت دولته) مع الملوك والأمراء كافة لصد هذا الجيش.

وعندما اقترب الجيشان الواحد من الآخر فى الخامس عشر من شهر جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وستمائة عند حدود كهرام وسـامانه، كتـب جماعـة المعارضين فى دهلى من أصحاب العمائم وأصحاب القلانس رسائل إلى الملك بلبن استدعوه فيها قائلين: "إننا نسلم لك المدينة، فيجب عليك الحضور إليها".

فتحرك الملك بلبن إلى المدينة، وبلغ ظاهرها فى يوم الخميس لعشرين يوم خلت من شهر جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وستمائة، لكن لم تلق تلك الفكرة نجاحا؛ إذ كانت تلك الجماعة التى حررت الرسائل قد غادرت المدينة، بناء على الأمر الأعلى.

فلما وصل الملك بلبن إلى حديقة جود الموجودة على مقربة من المدينة، علم هووالملك قتلغ خان والملكة جهان بأمر خروج تلك الجماعة، فانطفأت تلك الجذوة بماء الفشل. وبعد صلاة الظهر جاءوا إلى باب المدينة، وطافوا حولها، وقضوا الليل هناك، ثم قرروا العودة.

وفى فجر الجمعة وكان السابع والعشرين من الشهر، انفصل جنود أچه وملتان عن الملك بلبن ومضوا فوجا فوجا إلى الأطراف، وكان أكثرهم قد التحقوا بخدمة البلاط العالى فى المدينة.

وعاد الملك بلبن (سلمه الله) إلى أچه عن طريق سوالك فى ثلة من الفرسان، أقل من مائتين أو ثلاثمائة، وبعد هذا سافر إلى خراسان، وذهب إلى العراق عند هولاكوالمغولى ملك بلاد الترك، وتوجه إلى بلاطه ثم رجع إلى مقره.

وقد وقعت هذه الأحداث فى شهور سنة ثمان وخمسين وستمائة. كما أرسل رسله إلى الحضرة مع شحنة ممالك السند من قبل جيش المغول.

لتكن العاقبة خيرا وصلاحا وسلاما إن شاء الله تعالى.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام أعواما مديدة. آمين.

الحادى والعشرون الملك سيف الدين اركلى داد بك

ينتمى الملك سيف الدين اركلى داد بك أيبك الشمسى العجمى إلى القبچاق، وهوملك عادل صاحب سياسة وكياسة وفراسة، يتصف بجميع أنواع الشجاعة

ويعرف بكل ألوان الصرامة، قوى فى عقيدة الإسلام، يتحلى بصفات التدين، صادق فى أفعاله وأقواله راسخ وملتزم جادة الأمانة والعدل، منذ مدة ثمانية عشر عاما وهويزين مقعد القضاء وينشر العدل والإنصاف فى جميع الأوقات؛ ويلتزم أحكام الشريعة، فلم يزد حرفا على أحكام الشرع.

وقد لازم كاتب هذه الطبقات منهاج بن سراج (عصمه الله) هذا الملك العادل مرتين فيما يقرب من ثمانى سنوات بناء على أمر سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين (خلد الله سلطانه) وشاهد حركاته وسكناته وإشاراته المتفقة مع الدين والسنة فى محاكم الحاضرة دهلى (أعلاها الله).

وقد قضى الملك سيف الدين على زمرة المتمردين على الحضرة فى الأطراف، وكذلك طبقة المفسدين واللصوص وذلك بعظمته وسياسته وعظمة عدله، فاستكانوا فى زاوية الخوف والفزع.

ومنذ دخوله فى زمرة سلاطين الدولة من عبيد بلاط شمس الدين ملاذ العالم وهوصاحب وقار دوما. وقد عمرت كل ولاية وإقطاع وناحية فوضت إليه ،وذلك لعدله وكياسته، وتمتعت الرعية بالاستقرار والأمن والسكينة من كل عدوان وظلم.

وخلال توليه إمارة قضاء ممالك دهلى لم يتقاض العشرة أوالأحد عشر رسومًا على الأحكام على نحوما كان يفعل من تولوا القضاء قبله، ولم يهتم بها ولم يجزها.

وفى بداية أمره عندما ابتلى بالقيد والأسرمن قبائل القبچاق فى وطنه الأصلى انتهى به الأمر إلى خدمة الخواجه منعم شمس الدين العجمى، وكان ملك تجار بلاد العجم والعراق وخوارزم وغزنين فصار ينسب حتى ذلك العهد إلى ذلك السيد العظيم.

وعندما التحق بخدمة البلاط الشمسى الأعلى، اشتراه السلطان السعيد، ونال مقاما ومكنة، فكان السلطان (طاب ثراه) يرسله فى أمور هامة إلى أنحاء الممالك ويكلفه بمهام، وذلك لما لاح فى محياه من آثار الشجاعة والصرامة، حتى صار فى عهد السلطانة رضية من أبرز رجال الحاشية.

وفى عهد السلطان معز الدين بهرامشاه صار أميرا للقضاء فى كره، فلما آل العرش إلى السلطان علاء الدين، تقلد منصب أميرالقضاء فى شهور سنة أربعين وستمائة فى الحاضرة العليا مدينة دهلى، وحصل على إقطاع أمير القضاء ومقعده.

وبعد فترة عندما آل العرش إلى سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين فوض إليه إقطاعى پلول وكامه مع مقعد رياسة القضاء.

وبعد مدة منح ولاية برن، وسحق المارقين فى تلك الجهات، وبعد فترة صارت كرك إقطاعا له مع منصب أمير القضاء. وبعد عامين حصل على برن مرة أخرى، وهى له حتى هذا الوقت. والله أعلم

الثانى والعشرون الملك بدر الدين نصرة خان سنقر الصوفى

الملك نصرة خان سنقر الصوفى من أصل رومى، وهوعلى درجة عالية من الخصال الحسنة ، حميد الأفعال والأوصاف، شجاع، مقاتل، طيب السيرة، ويتحلى بجميع خصائص الرجولة والمروءة. وكان عبدا للسلطان السعيد شمس الدين، وقد قام بخدمات فى كل عمل أسند إليه من قبل أحد السلاطين.

أما فى عهد دولة علاء الدين مسعود شاه بن ركن الدين فيروز شاه، وفى شهور سنة أربعين وستمائة عندما ثار أمراء الترك وقتلوا الخواجه نظام الملك

مهذب الوزير، كان هذا الملك واحدا من قادة الثورة، ثم صار أميـرا علـى كـول فضبط أمور تلك الولاية، وسلك مع الجيش والرعية طريق الإنصاف والعدل.

وفى ذلك العام، سافر كاتب هذا التاريخ منهاج بن سـراج إلـى لكهنـوتى، وعندما وصل إلى كول خصه هذا الأمير حسن السيرة بكثير من التشجيع والـنعم. وبعد هذا أسندت إليه إقطاعات أخرى.

وفى عهد دولة سلطان السلاطين ناصر الدنيا والـدين، مـنح سـنقرإقطاع بهيانه، وأقام فى تلك الديار، وسحق المفسدين. وعندما جاء الملك عز الدين بلـبن كشلوخان من ولاية السند إلى باب مدينة دهلى، وصل الملك سنقر الصـوفى مـع جيش كبير من بهيانه إلى المدينة، فاشتد أزر أهل المدينة وأكابر البلاط بوصـوله مع جيشه.

وبعد ذلك وفى شهور سنة سبع وخمسين وستمائة منح تبرهنده المحروسـة وسنام وجهجهرولكهوال وتلك المناطق جميعها حتى ما وراء نهر بياه، وذلك لثقـة حضرة سلطان الإسلام (خلد الله ملكه) البالغة فيه، ولبالغ الإكرام الذى كان ألـغ خان الأعظم قد خصه به. وصار لقبه نصرة خان.

وقد أظهر فى تلك المناطق آثارًا حميدة، وجمع جيشا كبيرا. ولايـزال هـذا الملك فى تلك المنطقة حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب بناء علـى الأمـر العـالى، ولايزال ذا عدة كاملة وعتاد وافر وجيش جرار. والله أعلم بالصواب.

الثالث والعشرون الملك نصرة الدين شير خان

الملك شير خان ملك غاية فى الرجولة والحكمة، يتصف بجميـع الصـفات الملكية والأخلاق الحميدة والعظيمة ويعرف بها. وألغ خان الأعظم هـوابن عمـه،

وكان والديهما من عظماء التركستان، وكانا يحملان لقب خان فى قبائل البرى ،وكانا معروفين ومشهورين بتجييش الجيوش والأتباع الكثيرين كما سيفصل الحديث عن كل واحد منهما عند الكلام عن ملك ملوك العالم ألغ خان الأعظم إن شاء الله.

كان شير خان عبدا للسلطان السعيد شمس الدين، وحينما اشتراه أدى خدمات كثيرة للعرش، وظهرت على ناصيته دلائل الرشد، وقام أيضا بخدمات جليلة لسلاطين تلك الأسرة فى كافة المجالات.

فلما نضج أمر له السلطان علاء الدين بإقطاع لاهور وقلعة تبرهنده مع جميع ملحقاتها. وكان ذلك أثناء قيادة السلطان للجيش من الحاضرة إلى لاهورلصد جنود المغول الذين كانوا قد نزلوا بالقرب من قلعة أچه فصارت بذلك أراضى تبرهنده المحروسة تابعة له.

وبعد ذلك حينما انتزع القرلغيون ملتان من يد الملك بلبن قاد شيرخان الجيش من تبرهنده المحروسة إلى ملتان، واستخلص ملتان من يد القرلغيين، وأجلس الملك اختيار الدين كريز هناك.

ثم حدثت خصومة بينه وبين الملك بلبن عدة مرات بسبب حوادث الجوار (كما سبق ذكره) وانتزع قلعة أچه من يد الملك بلبن ودانت له جميع ممالك السند.

وعندما قاد الملك الأعظم ألغ خان الجيوش مع الملك شير خان إلى ناگور، وقع بينهما نزاع بالقرب من نهر السند، وتوجه الملك شير خان من هناك إلى التركستان وذهب إلى جيش المغول ولحق ببلاط منگوخان وعاد من هناك بإعزاز. فلما بلغ أطراف لاهور والمناطق المحيطة بها لحق بالملك جلال الدين مسعود شاه ابن السلطان.

وفى النهاية وقعت بينهما موقعة، وعاد الملك جلال الدين مهزوما، ووقع أتباعه فى يد جيش شير خان. وبعد ذلك توجه شيرخان لفتح تبرهنده، فلما خرج أرسلان خان من القلعة أجبر شيرخان على التراجع.

وانطلق الرسل من الحضرة وقدمت العهود والمواثيق من قبل أكابرذلك الزمان، ولحق شيرخان بخدمة البلاط، وجاء الملك أرسلان خان أيضا إلى الحاضرة.

وفوضت أوده لأرسلان خان وتبرهنده لشيرخان مع جملة ما تقدم من الولايات والإقطاعات، حيث لبث مدة فى تلك المناطق، وقامت بينه وبين الملك بلبن خصومة (كما سبق) وصدر أمر من الحضرة العليا (ولا تزال عالية) بقدوم شيرخان إلى الحضرة.

وللقضاء على الخلاف حول حدود تبرهنده، أسندت تبرهنده إلى نصرة خان سنقر الصوفى، ومنح شيرخان ولايات كول وبهيانه وبلارام وجليسر ومهر ومهاون وقلعة كاليور وهى من حصون الإسلام المعروفة. ولايزال هناك حتى تاريخ تحرير هذه الأوراق وذلك فى رجب سنة ثمان وخمسين وستمائة. والله أعلم بأحوال العالم.

الرابع والعشرون الملك كشلى خان سيف الدين أيبك السلطانى

ملك الحجاب طاب ثراه

كان الملك كشلى خان أيبك (طاب ثراه) أخا شقيقا للخان الأعظم ألغ خان المعظم، فكانا درتين من صدفة واحدة، وشمسا وقمرا فى سماء الشرف الواحدة، وياقوتيتين من منجم واحد، وملكين من ديوان واحد، وزهرتين من روضة التوفيق، وبطلين من مجمع ملكى واحد.

وكان أصلهما من سادة أمراء البرى وعندما استولى كفار المغول على بلاد التركستان وقبائل القبـچاق اضطرا إلى الانتقال من موطنهما المعهود مع أتباعهما وأشياعهما، وكان الملك كشلى خان أيبك أمير الحجاب الأخ الأصغر والخاقان المعظم ألغ خان الأخ الأكبر، وكان الملك أمير الحجاب فى ذلك الوقت صغيرا فى السن.

وعندما رحلا من وجه المغول، وفى أثناء الطريق كانت الأرض لزجة، فوقع الملك أمير الحجاب من فوق العربة وسط الطين أثناء الليل، وكان المغول يتعقبونهم، فلم يكن هناك مجال لأى شخص لحمله من بين الطين، وسارت العربات، وظل هوهناك، حتى وصل ألغ خان الأعظم إليه وحمله.

وفى المرة الثانية لحق المغول بالملك أمير الحجاب فوقع فى أيديهم. ومن التقديرات الإلهية أن بعض التجار شروه، وأحضروه إلى بلاد الإسلام، فاشتراه منهم اختيار الدين أبوبكر الحبشى الذى كان قد ذهب برسالة من الحضرة إلى مصر وبغداد ورأى آثار الرشد تلوح فى ناصيته، فأحضره من هناك إلى دهلى، حيث اشتراه السلطان السعيد من اختيار الدين أبى بكر.

وكانت أنوار العقل والكياسة تلمع فى محياه. وهذه الكلمات تذكر على سبيل الإنصاف والصدق، فلم تر العين من بين الأتراك من هوأكثر عقلا ولا أوفر حياء ولاأكثر وفاء منه، فقد زينه الحق تعالى بجميع أنواع الرجولة والشجاعة، وجمله بالأخلاق الحميدة والسلوك السليم، فتفوق بالعقل والكياسة على جميع وزراء السلف والخلف، وتفوق فى الشجاعة والرجولة على أبطال إيران وتوران.

فليخصه الحق تعالى فى صدر الجنان بأنواع المغفرة والرحمة والرضوان، وليخلد الخاقان الأعظم مليك الزمان وسلطان العصر والأوان فى الملك والتاج، وليعضده دائما.

ولنكمل السياق التاريخي: عندما اشترى السلطان شمس الدين أمير الحجاب، ظل فترة يخدم البلاط الخاص حتى صار نائبا لرئيس الحرس فى عهد السلطانة رضية، وبعد مدة وفى عهد معز الدنيا والدين بهرام شاه بن السلطان صار رئيس الحرس، ثم حصل على منصب أمير الركائب فى عهد السلطان علاء الدين، ولبث فى ذلك المنصب وفى تلك السلطة حتى زين عرش السلطنة بالعظمة الملكية البالغة لسلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين (خلد الله ملكه وسلطانه) وعندما حصل ألغ خان المعظم (خلدت دولته) على الاسم واللقب الخانى، رفعوا الأمير الحاجب من مرتبة أمير الركائب إلى منزلة أمير الحجاب.

وحينما استعيدت ناگور من الملك بلبن، وصارت تابعة للملك كشلى خان أمير الحجاب استرضى وهو فى منصبه هذا الأكابر والأواسط والأصاغر كثيرا على نحو لا يمكن تسجيله، وبذل كثيرا من الرعاية والعناية لملوك الترك والأكابر وعظماء التاجيك وأمراء الخلج مما لا يستوعبه تسطير وتسجيل، فتعلقت قلوب الجميع به، وامتن جميع البشر لنعمه.

وبعد أن عاد ألغ خان الأعظم إلى الحاضرة ، جاء أمير الحجاب أيضا إليها، وصار أميرا للحجاب للمرة الثانية. وبعد فترة عندما انتقل الملك قطب الدين حسن (طاب مرقده) إلى دار البقاء وفى شهور ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وستمائة صارت ولاية ميرت حتى أطراف جبل بندياران تابعة لكشلى خان.

فأمسك بزمام الأمور فى تلك النواحى والأطراف لعدة سنوات حتى وصل نفوذه إلى داخل مناطق بندياران الجبلية وركى وميابور كلها، واستولى على الأموال، وسحق ملوك الهند والمتمردين، وأخضعهم حتى استولى الضعف على جسمه العزيز وكيانه اللطيف، ومرض ببطنه فى شهور سنة ست وخمسين وستمائة.

ومن غاية حيائه وشدة خجله لم يكشف لأحد عن مرضه وتحمل الألم عدة شهور. وعندما حل الأجل أسلم روحه الطاهرة فى مهد المغفرة، مودعا بالإيمان الصادق إلى حضرة العزة وحظيرة القرب من الله فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة سبع وخمسين وستمائة.

أورث الله تعالى سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين أعمار جميع السلاطين والملوك بحق محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين.

الخامس والعشرون الخاقان المعظم والخان الأعظم

بهاء الحق والدين ألغ خان بلبن السلطانى

كان الخاقان المعظم ألغ خان الأعظم ينتمى إلى أمراء قبائل البرى . المعروفين، وكان والده ووالد شيرخان أخوين شقيقين من نسل أمراء البرى، وكانا أميرين على عشرة آلاف بيت، وكان نسبهما لقبائل البرى معروفا بين قبائل الترك بتركستان، وحتى الآن ما زال لبنى أعمامه اسم عظيم ذائع فى تلك القبائل. وقد سمع هذا المعنى من كربت خان سنجر (رحمه الله).

لكن لما كان الحق تعالى قد شاء أن يمنح قوة الإسلام ومكنة الدين المحمدى ملجأ وملاذا، وأن يبسط له ظل الحماية فى آخر الزمان، وأن يحفظ بلاد الهند فى

دائرة عنايته وحوزة عصمته ، فقد فصل ألغ خان فى أيـام الشـباب عـن بـلاد التركستان، ونزعت تلك البذرة وذلك الأصل من وسط القبائـل والأقربـاء نتيجـة استيلاء المغول على تلك الديار.

فأحضروه إلى بغداد ومنها إلى كجرات، حيث اشتراه الخواجه جمال الـدين البصرى (طاب ثراه) وكان يوصف بالتقوى والتدين والهمة والأمانة، فأخذ يربيـه فى حجر الشفقة مثل الأبناء.

فلما لمعت آثار الرشد ولاحت الشهامة فى ناصية ألغ خان المباركـة، كـان الخواجه جمال الدين يخصه بلطفه واحترامه، وفى شهور سـنة ثلاثـين وسـتمائة أحضره إلى الحاضرة دهلى.

وفى ذلك الوقت كان عرش السلطنة قد ازدان بعظمة السلطان السعيد شمس الدنيا والدين (طاب ثراه) فأحضر الخواجه جمال الدين ألغ خان مع عدد آخر مـن الترك إلى السلطان، فما إن وقع النظر المبارك للسلطان السعيد عليه حتى اشـترى جملة أولئك الأتراك، وأظلهم بحمى عظمته وشهامته، وبذلك أصبح ألغ خان عبـدا عند السلطان.

وحينما لاح نور السعادة وشعاع الإقبال على ناصية ألغ خان، فوض رياسة الخاصة، وكأنما وضع صقر الدولة على كفه؛ أى إن هذا مكنه أن يعـوق أعـداء الدولة فى عهد أبناء السلطان شمس الدين عن التعدى والظلم وعلى هذا النحو كـان الأمر فى الحقيقة، وقد ظل يعمل فى هذا العمل ما دامت عظمة السلطنة الشمسـية تسطع من جنبات العرش.

وقد تولى أخوه كشلى خان منصب أمير الحجاب بمشيئة الله فسر بذلك الفوز، وقويت شوكته. وعندما وصل الحكم إلى السلطان ركن الدين، توجه ألغ خان إلى الهند ضمن الأتراك من قبل الحضرة.

وحينما أعادوا الأتراك، رجع ألغ خان إلى الحضرة ضمن جماعتهم أيضا، وسجن عدة أيام، وبدا اليأس على محياه المبارك، وقد يكون فى ذلك حكمة (والله أعلم) ليدرك مدى معاناة المنكوبين، بحيث إنه عندما يصل إلى المجد والحكم تأخذه الرحمة بتلك الجماعة ويوفى شكر نعمة القيادة.

حكاية

يحكى أنه كان هناك ملك فى أوج المجد وعزة السلطنة، وكان له ابن على درجة عالية من الجمال والكياسة والرشد والنزاهة. وحدث أن أمر ذلك الملك بجمع كل عالم وعظيم وفاضل وكامل أينما وجدوا لتعليم ذلك الابن، ثم اختار واحدا من هؤلاء العلماء كان يفوق الجميع فى سائر أنواع الفضل والعلم ويرجحهم فى فنون الفكر والفن، وعينه لتعليم قرة عينه، وقال له: " يجب أن يدرك هذا الابن بتفهيمك وتعليمك وتلقينك وتمكينك له جميع حقائق الأمة ودقائق الدولة ورموز العقل وكنوز النقل وشروط الملك وطريق التوفيق وأمور رعاية الرعية وسنن نشر العدل، وأن يقف على مجارى هذه الأشياء وأسرارها. " فطأطأ ذلك الكامل الرأس قبولا وطاعة، وأقبل على العمل فورا.

وحينما انتهت مدة التعليم، وأثمر زرع التفهيم، زين ذلك الابن الذى كان ثمرة شجرة الملك بجميع الفنون، فأطلعوا الملك على ما بلغه حال ابنه من كمال فقال: " يجب إحضار ذلك الأستاذ غدا صباحا إلى بلاط السلطنة، ويجب إحضار

الأمير ليعرض درر الفنون التى تعلمها، وليظهر كمال عقل ابنى وجمـــال علمـــه وأحوال كياسته وأفعال فراسته للكافة من خاصة وعامة. "

وعندما صدر هذا الأمر، طلب الأستاذ من الملك مهلة لمدة ثلاثة أيام، فلما أجيب طلبه ركب الأستاذ أول يوم، وأخذ الأمير للطواف فى المدينة. وعندما ابتعدا عن العمران، جعل الأمير يمشى ويسير أمام جواده عدة فراسخ عدوا، حتى تضرر جسد الأمير الرقيق للغاية من تعب السير عدوا، ثم أعاده إلى المدينة.

وفى اليوم الثانى جاء إلى المدرسة، وأمر الأمير قائلا له: "انهض وقـــف على قدميك". وجعله على هذا النحو واقفا طوال اليوم، بحيث حل التعـــب الشـــديد بجسد الأمير الرقيق.

وعندما حل اليوم الثالث جاء إلى المدرسة وأخلاها، وقيد يدىِ ابـــن الملـــك وقدميه، وضربه ما يزيد على مائة عصا، فجرحت جميع أعضائه بسبب الضـــرب المبرح، وتركه هكذا مقيدا، وهرب، ثم غاب.

وعندما علم جماعة الخدم بهذه الفعلة، فكوا قيود ابن الملـــك وبحثـــوا عـــن الأستاذ فلم يجدوه، فعرضوا الأمر على الملك فأمر بإحضار الابن، وفى كـــل فـــن طلب منه وجدوه فيه على أكمل صورة، فقال الملك: " إن الأستاذ لم يهمل أى دقيقة فى تعليم التلميذ وتفهيمه وتكميله بتوفيق الله، فيجب معرفة سبب كل تلك الجـــروح، وكل هذا الإيلام والداعى إلى هذا الفرار." وأمر أن يجدوا فى البحث عن الأستاذ.

وبعد مدة طويلة وزمن مديد أحضروا الأستاذ إلى السلطان، فأكرمه وأعـــزه جدا، وسأله عن سبب السير جريا فى اليوم الأول والوقـــوف فـــى اليـــوم الثـــانى والضرب المبرح فى اليوم الثالث وعن سبب غيابه، فأجاب الأستاذ قـــائلا:" لتخلـــد

دولة الملك، لا يخفى على الرأى الأعلى أهمية إدراك الحاكم أحوال أصحاب الرضا وأهوال أرباب الغضب حتى يكون لكل ما يأمر به الملك حدود مناسبة، كى لا يتجاوز حد الاعتدال قط فى الرضا والسخط، وكنت أريد أن يعلم هذا الأمير حال المظلومين والأسرى والجماعة التى تجرى على الأقدام أمام جواده، كذلك أولئك القوم الذين يقفون على أرجلهم، والمستحقين لإقامة الحدود، وتوقيع العقوبة عليهم، ليتضح له أية مشقة تحل بأجسادهم وقلوبهم عند إنزال الغضب الملكى بهم، ولأن الأمير لم يتعلم إلا قليلا من هذه الآلام وتلك الشدائد، لذلك أمرت بذلك القدر من العقاب والجرى والوقوف على قدر ما تحتمله طاقته، أما عن سبب الفرار والغيبة فلأنه لم يكن ينبغى أن تحمل الشفقة الأبوية الملك على أن يتلفظ فى حق عبده بكلمات جزاء على تلك الأفعال وما سببته لذات الأمير الشريفة من معاناة، وما ألحقته بجسده اللطيف من آلام، فتضيع معاناة عبده فى هذا الصدد".

وهذه الحكاية تليق بذاك القدر من الألم الذى لحق بالوجه المبارك لألغ خان المعظم (خلدت دولته) أثناء إحضاره إلى العاصمة وسط الأتراك، حتى يسأل عن أحوال المساكين، ويستمع لشكوى المظلومين إذا ما بلغ منصب الدولة ونيابة السلطنة.

جعل الحق تعالى العدل والإحسان رفيقين لأفعاله وأقواله وأحواله.

ونعود الآن إلى سياق التاريخ: عندما آل العرش إلى السلطانة رضية، كان ألغ خان رئيس الخاصة أيضا، حتى واتاه الحظ، فصار أميرا للصيد. وكأنما القدر كان يقول لسوف تكون الدنيا صيدا لدولته وجاهه، ولسوف يكون العالم فريسة لمكنته وسطوته.

فكان أول منصب يتولاه هو إمارة الصيد. وبعد أن قضى فترة فى تلك المرتبة، وأدى خدمات فيها، زالت فجأة شمس دولة رضية، وطلعت شمس سلطنة معز الدين بهرامشاه وأخذ طالع الألغ خانية يتزايد، فصار ألغ خان المعظم أميرا للركائب لما كان قد قام به من خدمات فى عمله، ولما أظهره من آثارجليلة، وأصبحت مراكب الملك والسلطنة خاضعة للجام سلطانه.

ولما صار الملك بدر الدين سنقر أميرا للحجاب ،عامل ألغ خان بشفقة أبوية، فولاه حسن اهتمامه، ورفعه درجات فوق درجته، وفوضه إقطاع ريوارى.وعندما ذهب ألغ خان إلى هناك عاقب المتمردين فى مناطق السفوح بقوة وشجاعة تامة، وأعاد الأمن والاستقرار إلى تلك المناطق.

وعندما بدأت سلطنة معز الدين فى الانهيار جاء الملوك إلى باب المدينة عصبة واحدة، واتفق جملة الأمراء والملوك فيما بينهم.

وأظهر ألغ خان (خلدت دولته) صاحب ريوارى شجاعة فائقة، وأبدى كثيرا من آثار الشهامة لتحقيق هدف الملوك، على نحولم يحقق معه أى واحد قط من أمراء الترك والتاجيك وملوكهم نسبة الواحد فى المائة بالنسبة إلى ما قدمه ألغ خان، وأجمع الجميع على أنه يفوق الجميع قوة وقتالا وهجوما وإقداما.

فلما فتحت المدينة صارت هانسى تابعة لعمال ألغ خان، وعندما انضوت تلك الولاية تحت لوائه عمرت، وصار الخلق مرفهى الحال من آثار عدله، وأنوار بذله ووصل أمر دولة ألغ خان إلى حد أخذ معه سائر الملوك الآخرين يحسدونه على يمن طالعه، وأخذ شوك الحسد يتزاحم فى نفس كل واحد منهم.

ولكن لأن الله تعالى كان قد أراد له أن يكون أعظم من الجميع، لذا كان أريج عود دولته يتزايد فى مجمر الأيام كلما تأججت نار حسدهم وتزايدت، مصداقا لقوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾(١٢).

خلده الله تعالى فى منصب الدولة، وجعل داعى الدولة القاهرة منهاج بن السراج مؤلف هذه الطبقات مقرا بأداء حق الإنعام الموفور، والإكرام الشامل لذلك الخاقان الأعظم.

فكتابة ألف جزء من الأوراق المقرمطة(١٣) فى أوصافه المحمودة وأخلاقه الكريمة، لاتكاد تبلغ قطرة من بحار محيطه المترامى الأطراف، ولا تنقل نسمة إلى مشام المستمعين والقارئين من روائح روضة فردوسه، حتى وإن بلغت تلك الصحائف مئات الآلاف.

فحقوق أيادى الألطاف الملكية لذلك الملك الأكرم التى استصدر بها الأوامر، وما زال يستصدرها من العرش الأعلى لسيد سلاطين الأرض (خلد الله سلطانه) لهذا الداعى من تفويض المناصب وإسناد الأعمال ووفور الإنعامات وشمول الكرامات سوف تظل فى ذمة هذا الضعيف وأبنائه وأتباعه باقية.

فليزينه الملك تعالى بعظمة السمع وأبهة الطاعة للحضرة العلية لسلطان سلاطين العالم ناصر الدنيا والدين، وليزينه بحلى الخضوع وحلل الانقياد لذلك الخاقان المعظم حتى نهاية دوران العالم بمحمد وآله.

ولنتابع الآن سياق التاريخ: اتفق لهذا الضعيف أن سافر فى شهور سنة أربعين وستمائة إلى لكهنوتى، ولبث فى هذا السفر عامين مع أتباعه وأشياعه. وقد روى الثقات أنه فى شهور سنة اثنتين وأربعين، أصبح الخاقان المعظم ألغ خان الأعظم أميرا للحجاب فى البلاط الأعلى لعلاء الدين مسعود شاه بن فيروز شاه.

وعندما تحركت الرايات العليا مقترنة بالنصر والظفر من الحاضرة دهلـــى، عاقب السلطان بشدة متمردى جلالى ودتولى، وأولئك المتمردين فيما بـــين نهـــرى جون وكنك، واستن الجهاد والغزو، وطهر الطرق وأطراف الولايـــة مـــن فســـاد المتمردين.

وقد أقبل كاتب هذه السطور من نواحى لكهنوتى مع أتباعه إلـــى الحاضـــرة العظمى برفقة طغان خان طغرل، وفقا للأمر العلائى الأعلى فى شهور سنة ثلاث وأربعين.

وفى ذلك العام قاد منكوته اللعين وأحد قواد جيش المغـــول وملـــوك بـــلاد التركستان جيوش المغول من حدود طالقان وقندز إلى بلاد السند، وحاصر حصـــن أچـــه، وهو من القلاع الشهيرة فى بلاد السند .

وكان مع الحارس مخلص الدين فى تلك القلعة شاعر من بين جملة خدم تاج الدين أبى بكر كبير خان، وكان أميرا للعدل واسمه آقسنقر. فلما وصل الخبر إلـــى الحاضرة، قاد الملك ألغ خان الجيش بناء على الأمر الأعلى، واستعد لصد المغول، وكان كل من الملوك والأمراء يعارض ذلك الأمر، بينما كان الملك ألغ خان يصمم على هذا العزم.

فلما اتجهت الرايات العليا إلى تلك الناحية، أرسل الخاقان المعظم (خلـــد الله ملكه) القادة فأخذوا يقطعون المسافات على عجل، وكانوا يظهرون للناس أن كـــل منزل سيكون ثمانية كروهات[١٤] بينما كانوا يقطعون فى المنزل اثنى عشر كروها أوأكثر.

حتى بلغ ألغ خان بالجيش نهر بياه، وعبر به النهر وقاده إلى شـاطئ نهـر راوى بلاهور، وكان مصرا على ذلك التوجه، وكان يظهر الشـجاعة، ويحـرض السلطان والملوك على دفع ذلك الخطر.

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ثـلاث وأربعـين وستمائة بلغ المعسكر الأعلى خبر مؤداه أن جيش كفار المغول قد رحل من حول قلعة أجـه.

وكان سبب ذلك أن الخاقان المعظم ما إن وصل إلى أطراف نهر بياه حتـى وجه الرسل وأمرهم فحرروا الرسائل من قبل الحضرة العليا إلى أهل قلعة أجـه يخبرونهم فيها بمجيء الرايات العليا وكثرة عدد الجيش والفيلة واحتشاد الفرسـان ورجالة الجيش وشجاعة الرجال من الفدائيين الذين يوجدون فى خدمـة الركـاب الأعلى، وبعث بهؤلاء الرسل إلى أجـه، وسير فى البداية فوجا من الجيش طليعـة ومقدمة.

وحينما وصل هؤلاء الرسل إلى أنحاء أجـه، وقعت بعض الرسائل فى أيدى جيش الملاعين ووصل بعضها إلى أهل القلعة، فلما دقوا طبل السرور فى القلعـة، وعلم منكوته اللعين بوصول خطابات جيش الإسلام واقتراب فرسان المقدمـة فـى أطراف ولاية السند من شاطئ نهر بياه ولاهور، ملأ الخـوف قلـوب الملاعـين وتلاعب الرعب برءوسهم، وكان فضل الخالق عونا ومددا.

وقد روى الثقات: أنه عندما علم منكوته أن جيش الإسلام والرايات العليا قد سلكوا الطريق الموازى للجبل، وأنهم يتقدمون منه أيضًا إلى شاطئ نهر بياه، سأل ذلك الملعون قوما عن سبب اتجاه جيش الإسلام صوب مناطق السفوح، إذ إن ذلك

الطريق طويل بينما طريق سرستى ومروت قريب، فقال له القوم: إن شاطئ النهر لا يصلح طريقا لجيش الإسلام نظرا لعدم استوائه، فقال لا بد أن يكون جيشا كبيرا، ولن تكون لنا طاقة على مقاومته.

عندئذ صدر قوله بضرورة العودة، فاستولى خوفهم عليهم، ولم يعد لهم مقام أكثر من هذا، فقسموا الجيش إلى ثلاثة أفواج، وذهب منكوته هاربا، ونجا الكثير من أسرى المسلمين والهنود.

وكان سبب هذا النصر شجاعة الخاقان المعظم ألغ خان وجلده وحسن قيادته للجيش وجرأته وهيبته، فلو لم تكن شجاعته وجرأته وجلده، لما كان لمثل ذاك النصر أن يتيسر أبدا.

حفظه الحق تعالى فى عصمته، بمنه وجوده.

فلما تحقق هذا النصر قال ألغ خان إن الصواب هوأن تتحرك الرايات العليا إلى ناحية ممر مائى حتى تتمكن قوة جيش الإسلام وعدته وشجاعته فى نفوس الأعداء.

وبناء على هذا الرأى ذهبوا حتى شاطئ نهر سدرة، وبقيت الرايات العليا هناك حتى اليوم السابع والعشرين من شهر شوال سنة ثلاث وأربعين وستمائة، حيث عادت من شاطئ سدرة إلى الحاضرة فبلغتها فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

وفى هذه الفترة تغير خاطر السلطان علاء الدين على الملوك وعلى الجيش الذى تفرق أكثره ولم يكن أمر السلطان ليستقيم بدونه.

ولأن الفساد كان قد تمكن من خاطر السلطان، فقــد كتــب جميــع الملــوك بالإجماع رسائل من الحاضرة دهلى إلى بلاط السلطان المعظم ناصر الدنيا والدين (خلدت دولته) فى السر والخفاء، والتمسوا تحرك راياته الملكيــة للجلــوس علــى عرش السلطنة.

وفى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر محرم سنة أربع وأربعين وستمائة وصل السلطان ناصر الدنيا والدين (ليخلد طوال السنين) إلى الحاضــرة، وجلــس على عرش السلطنة وقال ألغ خان المعظم: " لأن خطبة الممالك وســكتها قــد زينت بالاسم الناصرى الملكى، فالصواب هوأن تذهب الرايات العليا إلى الشمال، حيث هرب جيش الملاعين أمام جيش الإسلام وذهب إلى الشمال العام الماضى.

وبناء على هذا القول الصائب استقر الرأى على الاتجاه شمالا. وفــى يــوم الاثنين غرة شهر رجب سنة أربع وأربعين وستمائة خرجت الرايات العليــا مــن الحاضرة، فما إن بلغت شاطئ نهر سدرة حتى انفصل ألغ خان المعظم عن الجيش مع ملوك الإسلام وأمرائهم لنهب ولاية جود بمناطق السفوح، حتى ينتقم من أميــر جبل جود الذى كان قائدا لجيش كفار المغول فى العام السابق.

فسار لهذه الغاية، وهاجم جبل جود وأطراف نهر جــيلم، وزحــف جــيش الإسلام حتى شواطئ نهر السند بحيث ولى هاربا كل من كان فى تلك الديار مــن أتباع الكفار.

وعندما رأت جماعة جيش كفار المغول التى كانت قد حلت بالممر المــائى لنهر جيلم ما عليه جيش الإسلام تحت إمرة ألغ خان المعظم مــن قــوة واقتــدار،

استولى الخوف على قلوبهم وتعجبوا من كثرة صفوف الجـيش، وكثـرة الـدواب والدروع والأسلحة الوافرة، واستولى الرعب التام على تلك الجماعة.

ولا يحيط الوصف والتقرير بما قام به ألغ خان المعظم من شهامة وحسـن قيادة ومواجهة للعدووشن الحملات على شعاب الجبل ومضايق الوديان، واحـتلال الأماكن الحصينة وقطع الغابات.

وقد ذاع خبر تلك الغزوة وذلك الجهاد، ووصل حتى بلاد التركستان. ولمـا لم تكن فى تلك الأرض زراعة ولا عمارة، لم تكن المؤن لتتوفر للجـيش، لـذلك رأى ألغ خان العودة.

فلما عاد ألغ خان إلى البلاط مظفرا ومنصورا وسالما مـع كافـة الجنـود والملوك الذين كانوا بصحبته، تحركت الرايات العليا للعودة إلى دار الملك العظمى فى يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ذى القعـدة، وكـان وصـولها إلـى الحاضرة فى يوم الخميس الثانى من شهر محرم سنة خمس وأربعين وستمائة.

ولما كان جيش التركستان والمغول قد شاهد تلك التحركات وقيادة الجـيش، بصائب رأى ألغ خان المعظم وصادق عزيمته، فإن شخصا قط لم يقصـد ممالـك السند من جهة الشمال خلال عام خمسة وأربعين.

حتى عرض ألغ خان المعظم فى شعبان سنة خمس وأربعين وستمائة علـى السلطان الأعظم أن الصواب هو أن تذهب الرايات العليا فى هذا العـام للإغـارة على أطراف ممالك الهند وغزوها، لسحق المتمردين والأمراء الذين لم يلقوا عنتـا خلال السنوات السابقة، وليفوز جيش الإسلام بالغنائم ليتيسر له الاسـتعداد لغـزو المغول وتدبير الأموال.

فاتجهت الرايات العليا إلى بلاد الهند وفقا لهذا الرأى الصائب، وذهبت إلى المنطقة الواقعة بين نهرى كنك وجون، وفتحت قلعة تلسند بعد غزو وجهاد كبيرين.

ووجه ألغ خان المعظم ملوك الإسلام وجيوشه مرة أخرى لدفع ولكى وملكى، وكان أميرا فى المناطق المحيطة بنهر جون فيما بين كالنجر وكره، حيث لم يكن لملوك أطراف كالنجر ومالوه سلطان هناك، ولم يكن جيش الإسلام قد وصل إلى تلك المنطقة فى أى وقت لكثرة أتباع أميرها ووفور أمواله ورزانة رأيه وحصانة ذلك المكان واستحكام مضايق الشعاب والتفاف الغابات الكثيفة والجبال المنيعة.

فلما وصل ألغ خان المعظم إلى بلاد ذاك الأمير وموضع إقامته، أبدى الأمير كثيرا من المقاومة من دار لدار حفاظا على نفسه وأتباعه بحيث صمد من وقت الصباح حتى صلاة العشاء. وعندما حل الليل انسحب من ذلك الموقع إلى الأماكن الحصينة، وعندما بزغ النهار، دخل جنود الإسلام إلى ذلك المكان، وتعقبوه.

وكان ذلك اللعين قد التجأ إلى جبال شامخة، وانتقل إلى موضع لا يتيسر الدخول إليه إلا بجهد بالغ وحبال وسلالم.

وحث ألغ خان المعظم جيش الإسلام على الجهاد وتم الاستيلاء على ذلك الموضع نتيجة قوة أوامر ألغ خان وقدرة إشاراته، كما أسر جميع أهل العدو وأتباعه وأقاربه وأبنائه وكثرة من العبيد، وغنم المسلمون كثيرا من المواشى والخيل فكانت غنائم جيش الإسلام مما يعجز خيال أهل الحساب عن الإحاطة بها وتسجيلها.

وفى آخر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة وصل ألغ خان إلى البلاط الأعلى بغنائم وفيرة، وعادت الرايات العليا بعد عيد الأضحى إلى الحاضرة فى الرابع والعشرين من شهر المحرم سنة ست وأربعين وستمائة.

وقد نظم منهاج بن سراج كتابا مفصلا عن جملة هذا السفر وتلك الغزوات وسمى هذا الكتاب "ناصرى نامه".

ثم توجهت الرايات العليا إلى الشمال فى شعبان سنة ست وأربعين، وعبرت ما بين نهرى كنك وجون حتى شاطئ نهر بياه، وعادت من هناك إلى الحاضرة.

كما توجه ألغ خان المعظم مع الملوك الآخرين ممن كانوا برفقته على رأس جيوش جرارة إلى رن تنهور، وأغار على سفوح جبال ميوات وبلاد باهرديوأكبر ملوك الهند، فاستولوا على كل تلك الولاية وأنحاء تلك الممالك، وحصلوا على غنائم كثيرة.

وقد استشهد الملك بهاء الدين أيبك الخواجه أمام قلعة رن تنهور فى يوم الأحد الحادى عشر من شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين، وكان ألغ خان المعظم مشغولا بالقتال فى الطرف الآخر من القلعة، وكان رجاله مشغولين بالقتال والغزو، حيث قتلوا كثيرين من الكفار، وأرسلوهم إلى الجحيم، وجمعوا غنائم وفيرة، أغنوا بها جيش الإسلام.

وعاد ألغ خان إلى الحاضرة العليا، فلحق بالبلاط الأعلى يوم الاثنين الثالث من شهر صفر سنة سبع وأربعين وستمائة.

وفى تلك السنة، رغب السلطان الأعلى ناصر الدنيا والدين (أعلاه الله) في أن يتزوج من الأسرة الألغ خانية، نظرا للآثار الحميدة التى كانت تترى كل عام من قبل ألغ خان فى قيادة الجيوش والخدمة الجادة للبلاط الأعلى.

فلم يكن هناك أى ملك قط من الأتباع والعبيد الذين وصلوا إلى درجة الخانية والملك أعظم ولا أكثر حزما ولا أصوب رأيا ولا أشجع قيادة للجيش ولا أكثر ظفرا فى تدمير العدو من الذات المباركة والعنصر الملكى لألغ خان حتى يتشرف بشرف اتصال الحضرة العلية للسلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين (خلد الله ملكه وسلطانه) ويرتبط باستظهاره ونصرته؛ مما يزيد السعى فى سبيل ازدهار الممالك والقضاء على الخصوم والأعداء فى الأنحاء المختلفة.

فقبل ألغ خان المعظم تعظيما للأوامر، وامتثالا للأحكام وعملا بمقالة العبد وما فى يده ملك لمولاه، وحقق ذلك الأمر بالعقد المبارك فى يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وستمائة، وأظهر بذلك قوله تعالى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[١٥] بآثارأنوار الأمراء تصديقا لقوله تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[١٦].

أورث الحق تعالى أولئك الأمراء أعمار جميع الملوك فى حياة السلطان الأعظم ودولة ألغ خان المعظم بسعادة وسلطنة الأسرة الشمسية، بمحمد وآله الأمجاد.

ولما تحققت هذه الصلة التى كانت نتيجة ليمن الطوالع الفلكية، وارتقت منزلة الألغ خانية من منصب أمير للحجاب، إلى جاه منصب الخان وعلوه. صدر يوم الثلاثاء من شهر رجب سنة سبع وأربعين وستمائة، من الحضرة العليا مرسوم بنيابة الدولة وقيادة الجيش والظفر بلقب ألغ خان لفريد عصره وصاحب العنصر

الملكى. وكأنما كان ذلك اللقب فى الحقيقة نتيجة للمقولة المأثورة " الألقاب تتنــزل من السماء".

ومنذ ذلك العهد علا شأن الدولة الناصرية ثانية نتيجة لبطولة ألغ خان وجده فى الخدمة، وعندما لقب بألغ خان، صار أخوه الملك الكريم الحليم صافى الســيرة وحميد السريرة سيف الحق والدين كشلى خان أيبك السلطانى (طاب ثراه) أميــرا للحجاب بعد أن كان أميرا للركائب، وصار الملك تاج الدين سنجر ترخــان نائبــا لأمير الحجاب، وتولى أمير الحجاب علاء الدين إياز الريحانى نيابة الوكالة، وهــو ابنى وقرة عينى، ويتصف بجميع الأوصاف الحميدة، ولا توجد أى صفة أقوى من الإخلاص لخدمة ألغ خان. دام له الرقى والعلو.

وكان تفويض تلك المناصب فى يوم الجمعة السادس من شهر رجــب ســنة سبع وأربعين وستمائة. وأصبح اختيار الدين أيبك موى دراز نائب أمير الركائــب أميرا لها، وتحرك من العاصمة للجهاد فى يوم الاثنين التاسع من شهر شعبان سنة سبع وأربعين.

واتخذ ألغ خان من وادى نهر جون معسكرا للجيش، وانشغل فــى الغــزو والجهاد فى الأطراف ضد المتمردين، حتى وصل إلى هــذا الــداعى خبــر مــن خراسان عن شقيقته، وأثرت وحدتها فى قلبه، فذهب إلى معسكر ألغ خان المعظم، وعرض عليه ذلك الأمر.

فخصه ألغ خان بكثير من الإنعامات والألطاف التى لا يحيط بها حصر، فقد أمر لداعيه المخلص منهاج بن سراج بخلع وهدايا، تشمل جوادا كميتا بسرج موشى بالفضة، وثوبا موشى بالذهب، وخراج قرية يقدر بثلاثين ألف جيتل، ولا تزال تلك الصلة تصل هذا المخلص سنويا حتى هذا التاريخ.

جعل الحق تعالى تلك النعم مدعاة لمزيد جاهه وملكه، وحفظه مظفرا ومنصورا على أعداء الدين.

وقد عرض هذا الداعى حاله وضيق قلبه على الحضرة العليا فى يوم الأحد العاشر من شهر ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة، فصدر الأمر بإرسال أربعين عبدا ومائة من الأحمال إلى شقيقة هذا الداعى فى خراسان. أدام الحق سبحانه وتعالى الدولة الناصرية وحفظها حتى انتهاء العالم.

وقد توجه الداعى مع هذه الإنعامات الوفيرة فى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة سبع من قبل الحضرة إلى ملتان لإرسال العطايا والنعم إلى خراسان.

وفى الطريق كان أتباع ألغ خان المعظم وخدمه فى كل قصبة ومدينة وقلعة كنت أبلغها يقدمون لى كثيرا من النعم والألطاف والاحترام مما يعجز العقل عن الإحاطة به. ليتقبل الحق تعالى من الجميع.

وفى يوم الأربعاء السادس من شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة وصل الداعى إلى ملتان، وذهب حتى شاطئ نهر جهلم.

وعندما أوصل تلك الهدايا من العبيد والأحمال إلى خراسان، أقام مدة شهرين فى ساحة قلعة ملتان بين جند الملك بلبن إذ كان الجوشديد الحرارة، وعندما دخل موسم الأمطار ونزلت أمطار الرحمة عاد من ملتان فى السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى، فوصل إلى البلاط فى الثانى من جمادى الثانية.

وفى تلك الأثناء عندما مات قاضى قضاة ممالك الهند جلال الدين الكاشانى (عليه الرحمة) ولم يكن له مثيل، ولأن الألطاف الألغ خانيه فى شأن هذا الداعى المخلص كثيرة ووفيرة، لذا فقد اختص ألغ خان داعى دولته بحسن عاطفته، ليقوم

بتجديد عهد قضاء الممالك، وعرض ذلك على السلطان الأعلى (أعــلاه الله) يــوم الأحد العاشر من شهر جمادى الأولى سنة تسع وأربعين وستمائة ففــوض قضــاء الممالك إلى هذا الداعى.

أدام الحق تعالى سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين على عرش الســلطنة، وخلد ألغ خان المعظم والخاقان الأعظم فى بلاط السلطنة.

وفى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة تســع وأربعــين وستمائة اتجهت الرايات العليا إلى ولايتى مالوه وكالنجر.

وعندما وصل ألغ خان المعظم مع جيش الإسلام إلى تلك النــواحى، هــزم جاهر ملك أجارى، وكان أميرا هنديا موفور الجاه وذا جند ورجال وأتباع كثيرين، وصاحب عدة وعتاد كامل من الخيل والرجال والسلاح، وقضى عليه وعلى ولايته، وكان اسم ملك أجارى هذا "جاهر "، وكان رجلا غاية فى الشجاعة والحنكة.

وكانت جيوش الإسلام قد توجهت فى عهد السلطان الســعيد شــمس الــدين (طاب ثراه) من بهيانه وسلطانكوت وقنوج ومهر ومهاون وكاليور فى سنة اثنتــين وثلاثين وستمائة للإغارة على ولاية كالنجر بقيادة نصرة الدين تايسى المعزى الذى فاق أبناء جنسه من ملوك ذلك العصر بالرجولة والشــهامة والكفــاءة والشــجاعة والحنكة وقيادة الجيش.

وانطلق نصرة الدين تايسى بذلك الجيش من كاليور مدة خمسين يوما، وفاز بغنائم وفيرة بحيث إن الخمس السلطانى وصل فى ذلك الوقت إلى ما يقــرب مــن اثنين وعشرين لكا.

وأثناء العودة من ولاية كالنجر مر جيش الإسلام بأمير أجارى، وخلاصة القول قام ذلك الأمير بقطع الطريق على جيش الإسلام عند المضايق الموحلة لمياه كرانه.وقد سمع الداعى من نصرة الدين تايسى قوله:" لم ير خصم قط فى بلاد الهند ظهرى، إلا ذلك الهندى الأجارى، حيث أخذ يحمل على كأنه ذئب يقع على قطيع من الأغنام، فكان لزاما على أن أحيد عن طريقه، حتى أقبلت من طرف آخر، وحملت عليه، وأنزلت به الهزيمة".

لقد أوردت هذه القصة ليتضح للقراء مدى شهامة ألغ خان المعظم ومكنة ملكه، بحيث قهر مثل هذا الخصم وهزمه بمعركة واحدة، وأخرج من قبضته قلعة نرول وهى حصن شهير، وأبدى فى ذلك السفر وفى تلك الحرب من الشهامة والشجاعة والجهاد ما يبقى تذكارا للزمان.

وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وستمائة عادت الرايات العليا إلى الحاضرة، وظلت مدة ستة أشهر فى دار الملك العظمى.

حتى إذا كان يوم الاثنين الثانى عشر من شهر شوال سنة خمسين وستمائة تحركت الرايات العليا إلى الشمال صوب نهر بياه، حيث كان الملك بلبن صاحب إقطاع بداون، والملك قتلغ صاحب إقطاع بهيانه.

فتم استدعاء الملكين من قبل الحضرة السامية، فحضر الاثنان مع ملوك الجيش جميعا إلى السرادق العظيم، وعندما وصلت الرايات الملكية إلى أطراف نهر بياه، تآمر عماد الدين ريحان سرا مع الملوك.

فقد استبد الحسد بالجميع بسبب إقبال دولة ألغ خان، وكان لحساده بغض ظاهر على ذلك المجد وتلك العظمة، فتآمروا وعساهم يلحقون بالذات المباركة

والعنصر الملكى لألغ خان أذى أوضررا فى حلبة صيد أوفى مضيق موحل أوفى ممر مائى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾(١٧).

فكان الله يحفظ دولة الألغ خانية بعصمته، ولم ييسر للخصوم أن ينالوا من عرضه الشريف وطبعه اللطيف.ولما لم يتيسر ما كان فى ضمير تلك الجماعة اتفقوا سويا، واجتمعوا على باب المقام الأعلى، وعرضوا على السلطان أن يأمر ألغ خان بالذهاب إلى إقطاعه.

وعلى هذا استصدروا الأمر فتحرك ألغ خان من سدره إلى هانسى مع جنده وأتباعه وخدمه وأشياعه يوم الثلاثاء آخر شهر المحرم سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وعندما عادت الرايات العليا إلى الحاضرة، أخذ شوك الحسد من ألغ خان يتحرك فى الباطن الريحانى الحالك الظلمة، فقالوا للسلطان (طال عمره) إن الصواب هوأن يصدر الأمر لألغ خان المعظم بالذهاب إلى ناگور، ويجب أن تفوض ولاية هانسى إلى أحد الأمراء.

وبناء على هذا الرأى تحركت الرايات العليا إلى هانسى، وذهب ألغ خان الأعظم إلى ناگور، وكان ذلك التحرك فى شهر جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وعند الوصول إلى هانسى صار عماد الدين ريحان صاحب النيابة، وأمسك بزمام أمور الإيوان العظيم. وبناء على ذلك الحسد وهذا الخبث استعاد قضاء الممالك من داعى الدولة منهاج بن سراج فى شهر رجب سنة إحدى وخمسين وستمائة، وفوضه إلى القاضى شمس الدين بهرايجى، وقد عادت الرايات العليا فى السابع عشر من شهر شوال من العام نفسه إلى الحاضرة.

ثم أرسل الملك سيف الدين كشلى خان أيبك وكان شقيق ألغ خان المعظم إلى مناطق السفوح، وفوضت نيابة إمارة الحجاب إلى عزالدين بلبن صهر قتلغ خـــان، فغير وبدل كل ترتيب أقامه ألغ خان، فاضطربت أمور الملك المســـتقرة بالتـــدبير الفاسد لعماد الدين ريحان.

وفى هذه الفترة كان ألغ خان المعظم والخاقان الأعظم (خلدت سلطنته) قد اتجه إلى ناگور وقاد جيش الإسلام إلى ناحية ولايات رن تنبهور وبهندى وجترور، كما قاد باهرديوملك رن تنبهور أعظم ملوك الهند الكبار جيشا عســـاه يســـتطيع أن ينزل بألغ خان كارثة.

ولكن الحق تعالى وتقدس كان قد أراد أن يبقى الاسم الطيب لعبيـــد الدولـــة الألغ خانيه على صحائف الأيام بالنصر والفوز والظفر المخلد، فهـــزم ألـــغ خـــان جميع جنود الملك باهرديو رغم كثرة عددهم وعتادهم من السلاح والجياد الأصـــيلة والأبطال المشهورين، وأرسل كثيرا من مشاهير رجالهم إلى الجحيم ، وفاز بغنائم كثيرة، واستولى على جياد وعبيد تفوق الحصر. وعاد ســـالماغانما فـــى عصـــمة الخالق إلى خطة ناگور التى كانت قد ازدهرت حاضرة عظيمة بوجود عبيد الدولة الألغ خانية.

وفى الشهور الأولى لسنة اثنتين وخمسين كان حال جماعة المظلومين الذين كانوا قد انزووا فى ركن النسيان نتيجة للعدوان والعزل الذى لحق بهم فى غيبة ألغ خان، قد أصبح كالسمكة إذا ما حرمت الماء، وكالمريض الذى لا يعـــرف النـــوم، يدعون آناء الليل وأطراف النهار حضرة الخالق تقدس شأنه أن تشرق شمس الدولة

الألغ خانيه من مطلع الجلال والمجد، وأن يمحوبنور شمس الدولة الألغ خانيه ظلمة ظلم العهد الريحانى.

وقد أعز الحق تعالى دعاء المعذبين وشكاوى المنكوبين بعز الإجابة، وحـــرك الرايات المنصورة لألغ خان من ناگور إلى عاصمة الجلال، وكان ذلــك لأن عبيـــد بلاط السلطنة وملوكها كانوا جميعا من الأتراك عريقـــي الأصـــل، ومـــن التاجيـــك مختارى الوصل، وكان عماد الدين رجلا سيئا وناقصا ينتسب لقبائل الهنـــد، وكـــان يقود العظماء عريقى النسب، الذين سئموا تلك الحال، ونفد صبرهم على تلك المذلة.

وقد بلغ الحال بهذا الضعيف منهاج بن سراج نحوا لم يكن يستطيع معـــه أن يخرج من وثاق قبضة ظلم تلك الجماعة من المعتدين والمفسدين والعصـــاة مـــن خاصة عماد الدين ريحان لمدة ستة أشهر أوأكثر، حتى إنه لم يكن يتيسر له الذهاب إلى صلاة الجمعة، فما بال الآخرين، ممن سطرت أحوالهم جميعا فـــى الصـــفحة المقابلة، وكان كل واحد منهم من أصحاب الأمر ومن الملـــوك الفـــاتحين والقـــواد ومحطمى الأعداء، فكيف بهم تحت مثل تلك المذلة؟.

والخلاصة أن ملوك بلاد الهند من بلاد كره ومانكپور ومدينة أوده وأبعد من ذلك شمالا حتى بداون، ومن نواحى تبرهنده وسنام وكهرام وسامانه وجميع أنحـــاء سوالك، قد التمسوا من ألغ خان العودة إلى الحاضرة.

فقاد أرسلان خان الجيوش من تبرهنده، وخرج بت خان من سنام ومنصور پور، وجمع ألغ خان الجيوش من ناحية ناگور وسوالك، ولحق بهم الملـــك جـــلال الدين مسعود شاه ابن السلطان من ناحية لاهور، وتوجهوا إلى الحاضرة، وعرض عماد الدين ريحان على السلطان أن يتوجه بالراية العليا لدفع عبيده.

فتوجه السلطان بالجيش من دهلى إلى سنام، وكان ألغ خان المعظم فى أنحاء تبرهنده مع الملوك الآخرين، وقد توجه هذا الداعى من الحاضرة إلى المعسكر الأعلى؛ إذ لم يكن من الممكن البقاء فى المدينة بغير وجود السلطان. وفى يوم السبت السادس والعشرين من شهر رمضان المبارك عمت بركته سنة اثنتين وخمسين وستمائة وصل منهاج إلى المعسكر الأعلى، وتلا الدعاء ليلة القدر فى الحضرة العلية.

وفى اليوم التالى الأربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، وفى أثناء الطريق اقترب كل من الجيشين من الآخر، والتقت المقدمتان، وظهر اضطراب عظيم بين الجند، وأقيمت صلاة عيد الفطر فى سنام.

وفى يوم السبت الثامن من شوال عادت الرايات العليا إلى هانسى، وتحرك الملك جلال الدين وألغ خان المعظم مع الملوك الآخرين إلى كيتل، وسعى جماعة الملوك والأمراء من الجانبين فى الإصلاح بين الطرفين.

فأقبل القائد قرة جماق أحد خاصة عبيد ألغ خان، وكان معروفا برجولته من طرف معسكر ألغ خان وتوجه أمير علم الجيش حسام الدين قتلغ شاه ذلك الأمير الملائكى الصفات موفور الصدق وحميد السيرة وكان يتصف بكبر السن عن الأمراء الآخرين مع القائد قره جماق وملك الإسلام قطب الدين حسن بن على طاب ثراه، وقاموا بكل جد وجهد ممكن فى الإصلاح بين الجانبين.

وكان التماس جميع الملوك لدى الحضرة العليا يتضمن قولهم: " كلنا نلتزم طاعة بلاط ملاذ العالم إلا أننا لا نأمن كيد عماد الدين ريحان وحركاته الفاسدة، فلو أبعد عن البلاط السلطانى، فسوف نلتحق جميعا بخدمة البلاط، ونمتثل للأوامر العليا."

وعندما تحركت الرايات العليا من هانسى إلى جيند فى يوم السبت الثانى والعشرين من شوال سنة اثنتين وخمسين وستمائة، عزل عماد الدين ريحان من النيابة والحمد لله على ذلك وعلى سائر نعمه. وقد فوضت له بداون، وذهب عزالدين بلبن نائب أمير الحجاب إلى معسكر ألغ خان.

وفى يوم الثلاثاء الثالث من ذى القعدة وصل الملك بت خان أيبك الخطائى عليه الرحمة إلى المعسكر الأعلى، بهدف إتمام مراسم الصلح.

وهنا حدث شيء عجب اطلع الداعى على باطن أمره وهو مؤامرة عماد الدين ريحان مع جماعة الأتراك ممن يضمرون فى أنفسهم مخالفة عابرة لألغ خان المعظم مؤداها أنه عندما يأتى بت خان أيبك الخطائى إلى باب القصر الأعلى، يضربونه بالسيوف فى مدخل البلاط، وبمجرد وصول ذلك الخبر إلى المعسكر الألغ خانى يقتل المتآمرون عز الدين بلبن بالسيوف، فلا يتم هذا الصلح، وبذلك يسلم عماد الدين ريحان ولا يتيسر مجيء ألغ خان إلى الحاضرة.

وما إن علم الملك قطب الدين حسن بهذا التوجه حتى أرسل ألغ خان الحاجب الخاص شرف الملك رشيد الدين الحنفى إلى الملك بت خان أيبك الخطائى، يبلغه أن الصواب هوأن يلزم مكانه غدا صباحا، ولا يتجه إلى باب الحضرة العليا.

وبناء على هذا الأمر امتنع بت خان عن الذهاب إلى القصر، وفشل تدبير الملك عماد الدين ريحان مع الأتراك المخالفين، وعلم الأكابر بهذا الأمر، فأصروا على ضرورة إرسال عماد الدين من المعسكر إلى بداون تنفيذا للأمر الأعلى.

وفى يوم الثلاثاء السابع من شهر ذى القعدة أمر سلطان السلاطين وملوك البلاط الأعلى داعى الدولة منهاج بن سراج بالقيام بالإصلاح بين الجانبين، حتى

تعاهدوا واتفق الجميع على ذلك، وفى اليوم التالى الأربعاء انضم ألغ خان المعظم مع سائر الملوك الآخرين إلى البلاط الأعلى، وقبلوا الأيادى والحمد لله على ذلك.

وعادت الرايات العليا، وعاد ألغ خان المعظم فى صحبة الركاب الملكى يوم الأربعاء التاسع من شهر ذى الحجة إلى الحاضرة دهلى.

وكان من فنون الألطاف الربانية أن أمطار الرحمة فى تلك المدة، لم تكن قد نزلت من السماء، فانفتح باب الرحمة الربانية فى ذلك الوقت ببركة قدوم ألغ خان، وسقطت الأمطار التى كانت سببا فى حياة النبات والناميات والخلق والحيوان، واستبشر جميع الخلق بمقدمه المبارك على أهل العالم، وسروا بوصول موكبه الملكى، واستبشروا بذلك، وشكروا الحق تعالى على هذه الهبة الكبيرة.

وفى مطلع عام ثلاثة وخمسين، ونتيجة لتلك الحادثة(١٨) التى وقعت فى حرم السلطنة ولم يعلم بها أحد، أسند السلطان ولاية أوده إلى قتلغ خان فى يوم الأربعاء السابع من شهر المحرم سنة ثلاث وخمسين، فذهب إلى تلك الناحية، وكان إقطاع بهرايج قد أعيد فى ذاك الوقت إلى عماد الدين ريحان.

وحينما أظهر إقبال ألغ خان المعظم شعلة الأنوار، وازدهرت حديقة الرضا، وفتح مفتاح الفضل الربانى الأبواب المغلقة للمعزولين، وكان منهاج بن سراج واحدا من جملة هؤلاء وهو داعى الدولة ومريد السلطان ومحب دولة ألغ خان، وكان قد بقى فى زاوية العزل والمحن وركن الشدة والشماتة بيد طعن الخصوم، وتعدى ظلم الأخساء، ولكن ألغ خان بحدبه ورعايته عرض على السلطان الأعلى (أعلاه الله) تفويض قضاء الممالك ومهام الحكومة إلى هذا الداعى المخلص الدعاء والناشر للثناء للمرة الثالثة.

وتم ذلك فى يوم الأحد السابع من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وظهر فى حق هذا الضعيف عناية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(١٩).

أدام الحق تعالى السلطنة الناصرية، وخلد المكنة الألغ خانية فى الملك حتى نهاية دوران السماء بمحمد وآله أجمعين.

وعندما اتجه قتلغ خان إلى أوده، وانقضت فترة على وجوده هناك، بدأ ظهور الفتن، فقد صدرت أوامر عن الحضرة عدة مرات ولكنه أهمل تنفيذها.

وكان عماد الدين ريحان يجتهد فى إشعال نيران الفتن عساه يحجب شمس دولة ألغ خان بطلاء المكر والحيل، ويطوى قمر راية العزة الخاقانية بحرقة تلبيسه.

لكن العناية الأزلية والكفاية الأبدية كانت دافعة لذلك الشر، بحيث إن الملك تاج الدين سنجر وضاء الجبين دام إقباله، والذى كان قد فوضت إليه ولاية بهرايج من قبل الحضرة، ولهذا السبب كبل بالقيود ولبث فى أسر الملك قتلغ خان وحبسه فى أوده، قد استطاع بحيل رجولية أن يخلص نفسه من أيدى المعتدين، وأن يعبر نهر سرو فى سفينة، وأن يذهب إلى بهرايج فى ثلة من الفرسان.

وهكذا كان تقدير الخالق أن طلعت دولة الأتراك القاهرة، وغاصت دولة الهنود تحت الثرى مقهورة، وانهزم ريحان أمامهم وأسر، وغربت شمس حياته بغروب الموت، وضعف أمر قتلغ خان بسبب موت ريحان، وكانت تلك الواقعة فى بهرايج فى رجب سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

وحينما سادت الاضطرابات فى الهند، وتمرد بعض الأمراء على البلاط الأعلى، تحركت الرايات العليا فى يوم الخميس آخرشهر شوال سنة ثلاث وخمسين

وستمائة من الحاضرة دهلى إلى الهند عاقدة العزم على دفع تلك الفتنة وإقرار الأمور فى أرجاء الدولة الناصرية القاهرة.

فلما أقيم السرادق الأعلى فى تلبت ،توقف الجيش فى سوالك، وكانت إقطاعا لألغ خان المعظم تحسبا للاستعداد العسكرى وتحرك الملك ألغ خان المعظم والخاقان الأعلى (خلدت دولته) من تلبت إلى هانسى.

وفى يوم الأحد السابع عشر من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة، عندما وصل ألغ خان إلى خطة هانسى أمربأن تجتمع سائر الجيوش فى سوالك وهانسى وسرستى وجنيد وبرواله وأطراف تلك البلاد بأسرع ما يمكن.

وتم ذلك خلال أربعة عشر يوما، فكانت عند سكونها كأنها جبل من حديد، وعند تحركها كأنها بحر ثائر نتيجة استعدادها التام وآلاتها وعدتها وأهبتها التامة.

وكان وصول ألغ خان إلى الحاضرة دهلى فى الثالث من ذى الحجة، حيث أقام فى الحاضرة ثمانية عشر يوما بغرض زيادة الاستعداد ولجمع جيش ميوات من المناطق الجبلية. وفى التاسع عشر من شهر ذى الحجة توجه إلى المعسكر الأعلى فى جيش وسلاح تام وصفوف متراصة للقتال. وفى شهر المحرم وصلوا إلى أطراف أوده.

وعلى الرغم من أن قتلغ خان والأمراء التابعين له كانوا جميعا عبيدا للبلاط الأعلى، فإن غبارا كان قد طمس طلعة دولتهم نتيجة لأحداث الأيام وتقلباتها، فعبروا جميعا من أوده عبر شاطئ نهر سرو، وانعطفوا عن طريق الرايات العليا، فتعقبهم ألغ خان المعظم بجيوش جرارة بناء على الأمر الأعلى فى شهر المحرم سنة أربع وخمسين وستمائة.

ولما كان شملهم قد انفرط نتيجة لكثافة غابات الهند ومضـايقها الموحلـة، والتفاف الأشجار الكثيفة لم يستطع ألغ خان المعظم أن يلحق بهم، ومضـى حتـى مشارف بتهى كور وحدود ترهت، وأمر بالإغارة على كـل هـؤلاء المتمـردين وملوك الهند، وعاد إلى خدمة البلاط الأعلى سالما غانما بغنائم كثيرة.

وحينما عبر ألغ خان المعظم من أوده بالجيوش نهر سرو، عادت الرايـات العليا إلى الحاضرة، فانصرف ألغ خان عن تعقب هؤلاء الأمـراء متوجهـا إلـى البلاط الأعلى، ووصل إلى الأعتاب السنية السلطانية فى حدود كسمندى.

وفى يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة أربـع وخمسـين وستمائة عبروا شاطئ نهر كنك، وفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وصلوا إلى دار الملك العظمى.

ولما لم يجد قتلغ خان (سلمه الله) مجالا للإقامة فى الهند بـين المتمـردين، جاء إلى سنتور وتحصن فى تلك الجبال، وكان الجميع يساعدونه؛ لأنه كان ملكـا عظيما، وكان من أكابر عبيد الحضرة وملوك الترك، وكانت له حقوق ثابتة علـى الجميع، فكانوا يرحبون به حيثما حل نظرا لسابق حقوقه عليهم، ونظرا لمـا آلـت إليه الأمور.

وعندما تحصن قتلغ خان فى جبال سنتور، أعزه الملك ريبال هنـدو وكـان من عظماء الهنود، فقد كان من عادة هؤلاء القوم إيواء اللاجئين.

وعندما وصل ذلك الخبر إلى المسامع السامية، تحركت الرايات العليا فـى أوائل ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة متجهة إلى سنتور، وأبدى ألغ خان المعظم مع الجيوش الخاصة وملوك الحضرة فى تلك الجبال كثيرا مـن ضـروب

الكفاح والجلد، واستوجب الغزوتبعا للسنة، وقام بهجمات تحار فيها العقول في مضايق الجبال وشعابها وفي معابرها، حتى وصل إلى قلعة سلمور وخطتها.

وكان يحكم سلمور هذا الملك العظيم الذي عظمه ملوك الأطراف كافة، وقدموا له فروض الطاعة، ففر من أمام الجيش الألغ خاني، وتم نهب سوق مدينة سلمور بأكمله على أيدي جيش الإسلام، واستولى عبيد ألغ خان على هذا الموضع الذي لم يصل جيش الإسلام إليه أبدا في أي عهد من قبل.

وفي الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وستمائة، وبفيض من الخالق جل وعلا وفضله، وتأييد من النصر الرباني، وصل ألغ خان إلى الحضرة العليا ودار الملك العظيمة بغنائم كثيرة في ظل الرايات الملكية.

وحينما عادت الرايات العليا إلى الحاضرة خرج الملك قتلغ خان من جبل سنتور، وكان الملك بلبن قد جاء من ولاية السند إلى أنحاء نهر بياه، فانضم الملكان العظيمان قتلغ خان وكشلوخان إلى بعضهما، وتوجها إلى سامانه وكهرام، طمعا في الاستيلاء عليهما.

وعندما وصل خبر ذلك التجمع وتلك الجرأة إلى المسامع العليا، اختير الملك ألغ خان المعظم (خلد ملكه) والملك كشلي خان أمير الحجاب مع ملوك الحضرة والجيوش لدفع تلك الفتنة.

وفي يوم الخميس الخامس عشر من شهر جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وستمائة، تحرك ألغ خان المعظم من دهلي على عجل وقاد الجيش حتى حدود كيتهل، وكان الملك بلبن والملك قتلغ خان في تلك الأطراف.

وعندما اقترب الجمعان من بعضهما البعض، وكان الطرفان أخوين ورفيقين، فهما جيشان من دولة واحدة، وفوجان من حضرة واحدة ،وجيشان من منزل واحد، وجوفان من بطانة واحدة، ولايمكن أن يكون هناك حال أعجب من

هذا أبدا، فهما من أصل واحد، تجمعهما حياة واحدة، ولكن الشيطان الملعون ألقى مثل هذه الفرقة بينهما، وبث شياطين الإنس الخلاف بين الاثنين لأهواء نفسية وترهات شيطانية، فرفعوا علم الفتنة، وفى سبيل إعلاء أمرهم كانوا يوقعون بين هذين الأخوين المتآلفين.

وكان ألغ خان المعظم بتدبيره الصائب يعزل جيشه وجيش أخيه وابن عمهما الملك شير خان عن قلب الجيش السلطانى، كما كان يفصل شقيقه الملك كشلى خان أمير الحجاب مع ملوك قلب البلاط والفيلة، بحيث بدا صفان عظيمان من الجيوش، ووصل كل من الجيشين إلى أنحاء سامانه وكيتهل، واقتربا من بعضهما البعض، وانتظر الجميع الموقعة.

وقام المتربصون من أصحاب العمائم بتحرير رسائل من الحاضرة دهلى إلى الملك بلبن والملك قتلغ خان واستدعوهما قائلين: " إن أبواب المدينة فى أيدينا، فيجب عليكما الإسراع إلى المدينة فهى خالية من الجند، وأنتما من عبيد البلاط، ولا غربة بينكما، فإذا ما حضرتما إلى المدينة والتحقتما بعرش السلطان الأعلى، يظل ألغ خان مع ذلك الجيش فى الخارج، وتتحقق الأموروفق هوانا، ويتيسر لنا الأمر، ويتم على نحوما ذكر. "

وحينما علم جماعة من المخلصين للحاضرة السلطانية ومريدى خدمة ألغ خان بهذه المؤامرة، كتبوا على عجل يخبرون ألغ خان، فوصل إلى حضرة العرش ليخرج المخالفين من المدينة.

وقد ذكرت تلك القصة بالتفصيل أثناء الحديث عن دولة السلطان الناصرية. رفع الله من شأنه.

أما عن هوية أولئك الأشخاص الذين كتبوا تلك الرسـائل، فليسـامحهم الله، وليتب عليهم ويتجاوز عن نفاقهم.

وبينما كان الجيشان قد اقتربا من بعضهما البعض كان شخص يـدعى كـذا ابن كذا قد أقبل من طرف الملك بلبن كشلوخان للتجسس.

وقد تظاهر ذلك الشخص بأنه إنما قدم لخدمة ألغ خان مـن قبـل الملـوك والأمراء الخارجين على خدمة الملك بلبن، وقرر أن الجميع راغبون فى خدمة ألغ خان، وقال: " لومنحت الأمان والعهد والميثاق وعين لى مرتب وإقطاع وقد جئـت للخدمة، فلسوف أحضر كل ملوك الملك بلبن وأمرائه للخدمة والطاعة، وأسلكهم فى سلك سائر العبيد الآخرين."

وعندما عرفت سريرة ذلك الشخص، صدر عن الحضرة الألغ خانيه الأمـر بعرض كل الجيوش عليه، بحيث يظهر كل الجيش بـالآلات والعـدة والاسـتعداد والفيلة المدرعة.

ثم كتبت رسالة فى السر إلى الأمراء وملوك الملك بلبن بأنـه قـد قرئـت رسائلكم وعرف هدفكم، ولا شك أنه إذا تحققت طاعتكم، فسوف يصدر أمر للجميع بإقطاع ومعاش وافر بالقدر الذى يستحقه كل واحد بل وأكثر، ومن يفعـل خـلاف ذلك، فسوف يتضح لأهل العالم أجمع فى هذين اليومين إلى أى مدى يصل أمـره بضرب السيوف اللامعة، والحراب التى تقطر نارا، وكيف يساق مذهولا مكـبلا بوهق القدرة تحت الرايات العليا.

فلما كتبت تلك الرسائل على نحو امتزج فيه الشهد بالسم واللطف بالعنف، وعاد ذلك الشخص وقص ما حدث على حضرة الملك بلبن (عصمه الله) وقدم له الرسائل ليتضح للعقلاء إلى أى مدى يصل أمر الخلاف بين الأمراء والملوك.

وفى تلك الأثناء التى وصلت فيها الرسائل إلى المدينة، توجه الملك بلبن مع الملك قتلغ خان إلى الحاضرة، وعادا دون أن يتحقق هدفهما.

وبعد يومين من توجههما اتضح هدفهما لألغ خان المعظم، فاضطرب خاطره من مجريات الأمورفى الحاضرة وعرش السلطنة، حتى وصلت رسالة إلى ألغ خان من المدينة بعد وضوح تلك الحالة العجيبة، فبلغ ألغ خان الحاضرة سالما غانما في عصمة الخالق وبحفظه ورعايته فى يوم الاثنين العاشر من شهر جمادى الأخرى سنة خمس وخمسين وستمائة، وظل الموكب الأعلى فى المدينة مدة سبعة أشهر.

وفى أوائل ذى الحجة سنة خمس وخمسين وصل جيش كفار المغول إلى أرض السند، وكان على رأس أولئك الملاعين ساري نوئين.ولما كان الملك بلبن قد أحضر شحنة أولئك القوم فقد ذهب إليهم مضطرا، وسيطرت جيوشهم على قلعة ملتان.

فلما بلغ ذلك الخبر الحضرة العليا، قال الخاقان المعظم ألغ خان الأعظم للسلطان الأعلى: "إن الصواب هوأن تتحرك الرايات المباركة السلطانية (حفت بالنصر والظفر) من الحاضرة العليا". وكان عام ستة وخمسون وستمائة قد بدأ.

فخرجت الرايات العليا فى اليوم الثانى من شهر المحرم سنة ست بطالع السعد، وأقيم السرادق العظيم فى ظاهر دهلى. وفى الحال صدر الأمر بما ارتآه ألغ خان المعظم إلى أنحاء الممالك وإلى أكابر الملوك وسادة الولايات والحدود بتوجه الجميع فى أهبة تامة إلى بلاط ملاذ العالم.

وفى يوم عاشوراء وفى خيمة السلطنة (ظلت على الدوام منصوبة بالنصر والظفر، وأنيطت حبال دولته بمسامير الثبات) كان لهذا الداعى مجلس وعظ قاصر على الحث على الجهاد، ومثوبة الغزوات والجهاد لحفظ مراتب الإسلام، وخدمة البلاط الأعلى امتثالا لأوامر أولى الأمر، والتزاما بأمر السلطان زاده الله تعالى نفاذا.

وفى أول الأمرخرج ألغ خان المعظم بجيش كامل العدة، موفور العدد برفقة الحضرة السلطانية المباركة، وصحبة جميع الملوك وتجمعت الجيوش. وعندما وصل خبر هذا التجمع إلى معسكر المغول الملاعين، لم يجدوا الجرأة ليتقدموا أكثر من الحدود التى كانوا قد وصلوا إليها.

وكان صوابا من جيش الإسلام أن بقى ذلك التجمع نحوأربعة أشهر أوأكثر بظاهر المدن، وكان ألغ خان يرسل فرسانا إلى كل ناحية من النواحى لغزوالمتمردين، حتى جاء خبر تراجع الملاعين فاستراح خاطره من فتنة تلك الجماعة.

وحدث أن أوصل جماعة من الجواسيس إلى المسامع الألغ خانيه الشريفة أنه ربما راودت أرسلان خان فى أوده وقلج خان مسعود خانى فكرة التمرد، وذلك لخوفهما نتيجة امتناعهما عن الحضور إلى المعسكر الأعلى، فقال ألغ خان المعظم للبلاط الأعلى: " إن الأصوب هوعدم إتاحة الفرصة لتلك الجماعة قبل أن يستفحل أمرها، وتحلق فى أجواء التمرد لشعورها بالخوف، فيجب أن يأمر السلطان بإطفاء تلك الجذوة على عجل."

وبناء على رأى ألغ خان الصائب، وعلى الرغم من شدة حرارة الجو وما لحق بجيش الإسلام من تعب فى سبيل المحافظة على البلاد بسبب تقدم الملاعين

نحوها، فإن المصلحة كانت فى التحرك، لذا تحركت الرايات العليا إلى الهند فى يوم السبت السادس من شهر جمادى الأخرى سنة ست وخمسين وستمائة، وذهب ألغ خان المعظم قاطعاً مراحل الطريق حتى حدود كره ومانكبور، وأظهر جهدا كبيرا فى عقاب مفسدى الهنود ومعاقبة ملوكهم على نحويفوق الخيال.

وعندما وصل ألغ خان إلى تلك الديار تفرق أرسلان خان وقلج خان واضطرا إلى إرسال أتباعهما ورفاقهما إلى مناطق التمرد، وأرسلا الرسل إلى ألغ خان المعظم ليعرض سبب تخلفهما أمام العرش الأعلى، وليلتمس أن تعود الراية العالية إلى الحاضرة، على أن يلتحق كل من أرسلان خان وقلج خان ببلاط ملاذ العالم بمجرد وصول الرايات السلطانية إلى الحاضرة العظمى.

فلما قدم ألغ خان المعظم هذا العرض عادت الرايات العليا إلى الحاضرة، وكان الوصول إلى دار الملك العظمى يوم الاثنين الثانى من شهر رمضان سنة ست.

وفى السابع والعشرين من شوال سنة ست وخمسين وستمائة التحق أرسلان خان وقلج خان بخدمة البلاط، ورغم كثرة المخالفات والفرقة التى صدرت عنهما فى الولايات الكثيرة، فقد قدم لهما ألغ خان المعظم كثيرا من الألطاف والإنعامات وأولاهما اهتمامه وحسن عهده، وبذل لهما كثيرا من الكرم والحلم والرعاية والعناية على نحو يعجز البنان عن تحريره والبيان عن تقريره. ليحفظه الحق تعالى فى عصمته بمحمد وآله.

وبعد شهرين فوض ملك لكهنوتى إلى قلج خان، وبلاد كره إلى أرسلان خان نتيجة حسن رعاية ألغ خان المعظم. وعندما حل عام سبع وخمسون وستمائة تحركت الرايات العليا فى الثالث عشر من شهر المحرم سنة سبع من الحاضرة.

وأقيمت الخيمة العظمى فى حومة دهلى، ورأى ألغ خان المعظم (خلدت دولته) أنه من الواجب أن يكرم شير خان ابن عمه، فعرض ذلك على العرش الأعلى، ففوضت إليه ولايات بهيانه وكول وجليسر وكاليور المحروسة، وكان هذا التفويض فى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر صفر سنة سبع وخمسين وستمائة.

ولم تتحرك الرايات العليا خلال تلك السنة أكثر من ذلك، إذ لم يكن هناك ما يستوجب القلق بحمد الله. وفى يوم الأربعاء الرابع من شهر جمادى الأخرى سنة سبع وخمسين وستمائة وصلت خزائن وأموال وأدوات كثيرة مع فيلين إلى البلاط المبارك من بلاد لكهنوتى.

ولحسن اهتمام ألغ خان المعظم ورعايته استصدر أمرا من الحضرة العليا بإسناد إقطاع لكهنوتى إلى عزيز الدين بلبن اليوزبكى الذى كان قد أرسل تلك الأموال والفيلة، وبإقرار الأمر له فى تلك البلاد، كما أرسلت إليه نعم وهدايا.

فلما حلت سنة ثمان وخمسين وستمائة، قرر ألغ خان المعظم فى شهر صفر التوجه للإغارة على مناطق السفوح المحيطة بالحاضرة، إذ كانت تلك الجبال مركزا للخارجين على الدولة، وكان من أعمال فسادهم أنهم كانوا يقطعون الطريق بصفة دائمة، وينهبون أموال المسلمين ويبثون الفرقة بين الرعايا الذميين، وينهبون القرى الواقعة حول هريانه وسوالك وبهيانه.

وقبل هذا التاريخ بثلاث سنوات كانوا قد استولوا على قطعان الجمال من سائر خدم البلاط الألغ خانى وعماله (عز نصرهم) فى أنحاء ولاية هانسى.

وكان على رأس أولئك المفسدين ملك اسمه "هندوئى" وكان متمردا مجوسيا كأنه شيطان كريه، أوعفريت لدغته حية، وكان المتمردون قد ساقوا قطيعا من

الجمال، وأسروا رعاتها، وقاموا بإثارة الفرقة بين الهنود فى كل منـاطق السـفوح حتى أنحاء رنتنبهور.

وفى ذلك الوقت الذى بثوا فيه هذه الفتن وتلك الفرقة، وساقوا تلـك الجمـال ورعاتها، كانت هناك غزوة، وكان جند جيش ألغ خان المعظم وفرسانه فى حاجـة إلى نقل عتاد الجيش.

فلما أتى أولئك المفسدون بتلك الحركة، أوغر ذلك القلب المبـارك لألـغ خـان المعظم، وثقل على قلوب سائر ملوك جيش الإسلام وأمرائه ومقاتليـه (نصـرهم الله) ولكن لم يتيسر تدارك ذلك الفساد لانشغال الخاطر بدفع جيش المغول الذى كان يهـاجم حدود بلاد الإسلام، وتقدم حتى وصل إلى ولاية السند ولاهور وأطراف نهر بياه.

وفى تلك الأثناء وصل رسل خراسان عن طريق العـراق إلـى الحاضـرة موفدين من قبل هولاكوالمغولى بن تولى بن جنگيز خان، فصدر الأمر باحتجـاز أولئك الرسل فى باروته وأنحائها، وتوجه ألغ خان المعظم مع الملـوك الآخـرين وجيوش الحاضرة فجأة إلى مناطق السفوح.

وفى يوم الاثنين الرابع من شهر صفر سنة ثمان، قـاد ألـغ خـان راياتـه المنصورة إلى السفوح، وفى الهجمة الأولى قطعوا قرابة خمسين كروها، وحملـوا فجأة على المتمردين فى السفوح، وحصلوا على كل ما كان فى الدروب والجبـال ومضايق الوديان العميقة والمستنقعات الغويطة وأعملوا سـيوف أهـل الإسـلام، وأخذوا يتحركون مدة عشرين يوما فى كل اتجاه من أنحاء السفوح.

وكانت أماكن سكنى أولئك الجبليين وقراهم ومبـانيهم علـى قمـم الجبـال الشاهقة وكلها مقامة على قمم صخرية كأنها تطاول النجوم رفعة والسماء علوا.

ولكن بأمر ألغ خان المعظم أخضعت ونهبت تلك المناطق جميعها والتى كانت تحاكى سد الإسكندر فى مناعتها وحصانتها، وأعملت السيوف فى أهلها، وكانوا جميعا من اللصوص وقطاع الطرق الهنود.

وكان أمر ألغ خان المعظم (دام نافذا) قد صدر بين رجال الجيش والمجاهدين بمنح بدرة من الفضة لكل من يحضر رأس واحد من الأعداء وبمنح بدرتين من الفضة لكل من يأتى برجل حى، وذلك من أموال الخزانة الخاصة.

فانطلق أنصار الحق وفقا لذاك الأمر إلى جميع المرتفعات والمضايق الموحلة والمستنقعات العميقة، وقبضوا على الموتى والأحياء، خاصة جماعة الأفغان الذين كان كل واحد منهم كأنه فيل ضخم قد حمل على كتفه بقرتين، أوكأنه برج فوق حصن قد رفع فوقه علما لهيبته.

وكان عدد الذين تضمهم خدمة الركاب الألغ خاني يبلغ ثلاثة آلاف فارس وراجل من الشجعان المغامرين فقام كل واحد منهم بأسر مائة من الهنود فى الجبال والأحراش كان الشيطان يعجز عن التصرف أمامهم فى الليل الحالك.

وخلاصة القول أن جماعة الملوك والأمراء والأتراك والتاجيك أظهروا شجاعة سوف يخلد ذكرها على صحائف الأيام، وفى هذه المدة كانت راية الإسلام قد رفعت فى مواضع من أنحاء الهند لم يكن جيش الإسلام قد وصل إليها من قبل، ولم تكن قد أغير عليها من قبل.

ليحفظ الحق تعالى ألغ خان المعظم، وليبسر الأمر به لدولة سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين.

وقد تم أسر ذلك الهندى المتمرد الذى كان قد أسر أولئك الرعاة، ونهب تلك الجمال، كما وقع أبناؤه وأتباعه فى الأسر، إذ شاء لهم القدر أن يقعوا فى أسر أتباع

ألغ خان، وقد سقط فى الأسر جميع أولئك المتمردين الفاسدين مع ما يقـرب مـن مائتين وخمسين رجلا من زعماء تلك الطائفة.

وتم ضم مائة واثنتين وأربعين رأسا من الخيـول إلـى الركائـب العليـا، وأرسلت إلى الخزانة العليا ستون بدرة، وكان عدد ما أخذه من ملوك الجبال ثلاثين ألف بدرة، وقد تحققت عدة أعمال عظيمة خلال عشرين يوما بقوة ألـغ خـان (دام عاليا) وبشهامته وحسن قيادته.

وفى الرابع من ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة عاد ألغ خان المعظم (خلدت دولته بالإقبال) إلى الحاضرة حاملا العلم السلطانى المبارك كالشمس تغمـر الملوك بأشعتها ،وحضر سائر ملوك الحاضـرة والأمـراء والصـدور والأكـابر والعظماء وأهل المدينة فى صحراء حوض رانى.

واصطفت الصفوف فى حديقة حوض رانى، وأسرع الجميع مخلصين إلـى استقبال الرايات الألغ خانية وإعزازها واستوى سلطان السلاطين (خلد الله سلطانه) على العرش الأعلى، وعقد مجلس البلاط فى حوض رانى.

وقبّل ألغ خان المعظم أرض البلاط الأعلى مع ملوك الجيش والأمراء جميعا وهم مرتدون الخلع الألغ خانيه، بحيث صارت الصحراء كألف بستان بهـيج بمـا يحفل به من ألوان الحرير بأنواعه من الأطلس والإكسون والبـروز والشسـترى والأعلام المحلاة بالذهب وحرير الباولى وأثواب الحرير الموشاة.

وكان أولئك الأكابر والملوك والأمراء والأبطال والمقاتلون من رجال الجيش كافة قد ارتدوا هذه الثياب قبل ذلك بيوم واحد فى منازلهم من خزانـة ألـغ خـان العامرة (لا زالت مملوءة بالأموال والغنائم) وقد أسرع الجميع إلى البلاط مزهوين بالظفر والنصر والسلامة والغنيمة، ونال الصغير والكبيـر شـرف تقبيـل اليـد

السلطانية مع الكثير من الإعزاز والإكرام وآلاف الوعود، وشكر الجميع الله تعالى وتقدس على ذلك النصر كثيرا.

وبعد يومين خرج الموكب الملكى للجهاد متجها من المدينة إلى صحراء حوض رانى، وصدر الأمر فأعدت الفيلة التى تشبه الجبال فى هيكلها، وتطاول الفلك بعلوها، وتشبه الشياطين فى هيئتها، السريعة الحركة كالريح كأنها رسل ملك الموت الموكلة بالآجال، وقد تهيأت لعقاب الكفار.

واستل الأتراك السفاكون آلهة الحرب كالمريخ السيوف المصقولة التى تقطر نارا من أغماد القدرة، ثم صدر الأمر الأعلى فقاموا بتأديب المفسدين وألقوا ببعضهم تحت أقدام الفيلة، وجعلوا رءوس الهنود بين شقى رحى قامت فيها أقدام الفيلة بعمل الحجر.

وكان كل اثنين من هؤلاء الهنود يشطرون إلى أربع بسيوف الأتراك التى تقطر دما وبحسام الأبطال الذين يخطفون الأرواح، وبمدى السلاخين الذين كان الشيطان يرتعد خوفا من طعناتهم، فسلخوا ما ينيف عن مائة من المفسدين من الرأس حتى القدم، وتجرعوا شراب الموت فى كؤوس رءوسهم على يد أولئك السلاخين، وصدر الأمر بأن تملأ كل الجلود بالتبن وتعلق على أبواب المدن.

وخلاصة القول أن ذلك التأديب الذى تم لم تشهد صحراء حوض رانى وساحة ميدان بوابة مدينة دهلى مثله أبدا، ولم تسمع أذن أى مستمع قصة بمثل هذه الهيبة قط. وقد تحقق مثل هذا النصر وذاك الجهاد وتلك الغنيمة وذلك المسعى بعظمة الدولة الألغ خانية وقوتها.

أدام الحق- تعالى- سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين على عرش السلطنة، وزين العرش الألغ خانى العالى بالدوام والثبات.

وبعد أن تحقق مثل هذا الأمر، عرض ألغ خان المعظم على عرش السلطان الأعلى أن الصواب هو إحضار رسل خراسان إلى الحاضرة، ليقبلوا الأيادى العليا.

فصدر الأمر بذلك فى يوم الأربعاء الثامن من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة، وتحرك الموكب المبارك إلى الجوسق الأخضر، وأمر ألغ خان المعظم بأن يوزع صاحب ديوان عرض الممالك الرجال بأسلحتهم على أطراف الحاضرة العظمى وأنحائها، فجاء إلى الحاضرة ما يقرب من مائتى ألف من المشاة بكامل سلاحهم وخمسين ألفا من الفرسان مجهزين بالدروع.

وخرج من أهل المدينة عوامها وأكابرها وأواسطها وأراذلها وكثير من الرجال المسلحين من فرسان ومشاة، فاصطف منهم عشرون صفا فى المسافة من مدينة نوكيلوكهرى حتى داخل دهلى حيث قصر المملكة، صفا تلو صف، كالحديقة المتشابكة الأغصان، وكالغريم الذى أمسك بخصمه، ووضعوا الكتف لصق الكتف، فى صفوف مستوية كأنها يوم القيامة والحشر، أثناء ساعة الحساب على الخير والشر.

وتمت تسوية الصفوف بحنكة ألغ خان (خلدت دولته) وشهامته وحكمته وحنكته، وتم تعيين الأماكن لكل واحد من الأمراء والملوك والأكابر والصدور مع جيشه وأتباعه، وإعداد الأعلام والبيارق، وارتداء السلاح والضبط على نحو ما أمر به ألغ خان.

ووقف هو على رأس الصفوف، ووقف كل واحد فى المكان المعين له، فكان لذلك الحشد من الهيبة الظاهرة ما أصم الآذان من قرع الطبول وعويل أصوات الفيلة اللاهثة، وصهيل الخيول الجارية، وضجيج الخلق، كما أصيبت عين الحسود سيء الطوية بالعمى.

وعندما ركب رسل التركستان من مدينة نو، ووقع بصرهم على هذا الحشـــد كادت طيور أرواحهم أن تطير من قوالب أجسامهم من هيبة ذلك الحشـــد وهــول تلك الاستعدادات والأبهة. وأغلب الظن بل اليقين أن بعض أولئك الرسل سقط مـــن فوق حصانه ووقع على الأرض عند تحرك الفيلة الهائجة.

ليبعد الحق تعالى عين السوء عن هذه البلاد والســلطنة وجــيش الحاضــرة وملوك الدولة بمحمد وآله.

وحينما وصل الرسل إلى باب المدينة قام الملوك جميعا بمراســم الاســتقبال وفقا لما أمر به ألغ خان المعظم، وقدموا ضروب الاحتــرام والتــوقير لمجموعــة الرسل، وأحضروهم أمام العرش الأعلى فى القصر الأخضر بكل تكريم.

وكان قصر السلطنة فى ذلك اليوم قد زين بشتى أنــواع البســط والســجاد وأدوات الزينة الملكية من ذهبية وفضية، ورفع على جانبى العرش الأعلى علمـــان مرصعان بالجواهر القيمة؛ واحد أحمر والآخر أسود.

كما زين العرش الذهبى بمقعد الخلافة وبحرس شرف البلاط مـــن الملــوك الكرام والأمراء العظام والصدور والأكابر المشـــهورين، وغلمـــان التـــرك ذوى الأحزمة الذهبية، وأبطال الكر والفر والمجالس المرصعة ووميض أطيافها، فكـــان المكان كأنه الخلد الأعلى والفردوس الثامن، مما جعل نظم الداعى التالى لائقا بذاك الوضع، حيث قام أحد أبناء هذا الداعى بإيراده بين يدى العرش الأعلى :

نظم بالعربية لمنهاج بن سراج طيب الله ثراه:

قد صادف الرضوان أيام الورى

من روح هذا البزم للسلطان

لا زال يبقى فى جلالة ملكه

ومزيد إمكان ورفعة شان

شعر بالفارسية وترجمته:

مرحى بحفل صارت به الأنحاء مثل الخلد الأعلى

ومرحى بحفل أصبحت بسببه الأكناف كجنات عدن

يخيل إليك أن ساحة دهلى قد صارت الجنة الثامنة.

فى تناسق أرضها الممتدة وإبداع نقوشها وزخارفها

فمن عظمة ناصر الدين شاه محمود بن آلتتمش.

كأن الملاك يطوف حوله داعيا، والفلك خاضع له

وقد صار جديرا بمظلة الملك بفيض الفضل الربانى

ولائقا للعرش والخاتم فهوملك ملوك العالم

وهو كالخواقين فى سطواتهم وكالسلاطين فى رعايتهم للدين.

وهو ماحى الكفر بقلبه، وحامى الدين بروحه

فليكن حفل ملك العالم هذا مباركا على الإسلام

فقد صارت الهند بهذه الزينات أبهى من بلاد الصين

وليعل شأن عبيده على سائر الملوك.

لأن منهاج بن سراج أقل عبيده قد صار الداعى الأمين لهم

وكان ذلك الحفل حقا كأنه سماء حفلت بالنجوم، بل كفلك يغص بالكواكب، وكان ملك العالم يبدوعلى العرش كأنه الشمس فى فلكها الرابع، وقد ركع بين يديه ألغ خان تأدبا كأنه القمر الساطع، والملوك فى صفين كأنهم الأنجم السيارة والأتراك ذووالمناطق المرصعة بلا حصر كالكواكب.

وخلاصة القول أن كل ذلك الترتيب والتهذيب والعمل كان بناء على اقتراح ألغ خان المعظم وحسن رأيه الصائب وفكره الثاقب. وعلى الرغم من أن سلطان السلاطين كان ينزله منزل الأبوة امتثالا للحديث النبوى، فإنه كان أكثر طاعة وانقيادا من ألف عبد حديث عهد بالبلاط.

وبعد الحفل أنزل الرسل فى موضع معين ازدان بأنواع الصنائع وأصناف الألطاف. ويلزم هنا ذكر سبب وصول أولئك الرسل من خراسان من قبل هولاكو المغولى: لماذا كان؟ وكيف بدأ؟.

وحقيقة الأمر هى أنه عندما بدا للملك ناصر الدين محمد حسن قرلغ (سلمه الله) أن يزوج إحدى الدرر من صدفة أسرته من شاه ابن ألغ خان المعظم ليفخر بذلك النسب أمام ملوك العالم، ولتصبح هذه الصلة سببا لقوته وعزه، كتب رسالة بهذا المعنى سرا وخفية إلى أحد خدم بلاط ألغ خان المعظم، واستطلع إمكانية الزواج، وعرض نفسه فى هذا الثوب على الرأى الأعلى الخانى على سبيل الإخلاص والخدمة.

ولما كان الملك ناصر الدين محمد واحدا من ملوك عصره البارزين وجب على ألغ خان، وصار لزاما عليه الموافقة على هذا الأمر وإتمام ذلك الزواج.

فاختار واحدا من الخدم لحمل تلك الرسالة، وكان ذلك الرسول يسمى الحاجب الأجل جمال الدين على الخلجى (سلمه الله) وعندما عين هذا الحاجب لتلك المهمة، حصل على أمر من الديوان الأعلى بتحصيل خراج قرية "جند " لتغطية احتياجات الطريق وقطع مراحله.

وحينما بدأ المسير كان حراس الطريق يستفسرون من هذا الحاجب عن سبب ذهابه عملا بالرسوم المعهودة والواجبات المعينة، فكان يرفض ذلك قائلا:

"إننى رسول." فلما اجتاز المنازل والمراحل، وبلغ بلاد السند ذاع خبر رسالته، وعندما لحق بملتان وأجه أمر الملك عز الدين كشلوخان بلبن (عصمه الله) باستدعائه ومعاقبته.

فطلبوا من على الحاجب هذه الرسائل التى كان يحملها حتى يقفوا على الرسالة ويعرفوا مضمونها، ولكن الحاجب أنكر هذه الرسالة، وعندما وصل الأمر إلى الشدة، اعترف فى حضور شحنة المغول قائلا:" أنا رسول ذاهب إلى الشمال".

وعندما قال ذلك بحضور تلك الجماعة، كف الملك عز الدين كشلوخان بلبن يديه عن مطالعة الرسالة مضطرا، وقال إن الحاجب يجب أن يذهب حتى يصل إلى مقصده، فقال الحاجب على: "لدى أمر بأن أذهب إلى السلطان ناصر الدين". فاضطر بلبن إلى إرساله إلى تلك الجهة، وعندما وصل إلى بنيان، شاع أمر الرسالة، وانتشر ذكرها فى دهلى بين شحنة المغول وعامة تلك البلاد وخاصتها.

ثم أرسله الملك ناصر الدين قرلغ مضطرا إلى العراق وآذربيجان عند هولاكو المغولى وكتب بنفسه رسائل على اللسان المبارك لألغ خان المعظم دون إذن الحضرة، وأرسل معه بعض التحف والرسل.

وبعد أن تجاوز العراق، قابله هولاكو فى مدينة تبريز وآذربيجان، وأعزه كثيرا وعظمه. وعندما أرادوا عرض الرسائل على هولاكو، وجب بالضرورة أن تترجم الرسائل من اللغة الفارسية إلى اللغة المغولية.

وكانوا قد كتبوا اسم ألغ خان المعظم فى الرسائل بوصفه ملكا، والقاعدة عند الأتراك هى أن الخان هوالقائد الأصلى وليس هناك أكثر من قائد، بينما يحمل الآخرون اسم ملك أيضا.

فلما قرءوا الرسائل على هولاكوالمغولي قال: " لماذا غيرتم لقب ألغ خـــان، يجب أن يظل لقبه "خانا " كما هو. وهكذا اعترف في حق ألغ خان المعظـــم بمثـــل هذا الإعزاز وذلك الإكرام.

وكل من ذهب من أمراء بلاد السند والهند إلى سادة المغول وقادتهم غيـــروا لقبه وأسموه ملكا إلا اسم ألغ خان المعظم الذى جعلوه كما هوفي الأصل.

وهذه أيضا واحدة من آثار الفضل الرباني وهي أن الصديق والعدو والمؤمن والكافر كان ينطق اسمه المبارك بعظمة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْـــلُ اللَّـــهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[٢٠].

فلما أعيد على الحاجب، أوفدوا معه ابن الأمير يغرش من شـــحنة بنيـــان، وهورجل معروف ومسلم كريم وصدر الأمر إلى جيش المغول الموجود في خطـــة ساري نوئين بعدم الاعتداء على حدود ممالك سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين (خلد الله ملكه وسلطانه) وإلا فالجزاء سيكون قطع قوائم الخيل المعتدية.

ولقد وهب الحق تعالى هذا الأمن لممالك الهند بصواب رأى ألغ خان.

وحينما وصل الرسل بذل لهم ألغ خان من حضرة ملـــك الإســـلام مكافـــأة وجزاء لذلك الإعزاز الذى كان هولاكوالمغولي قد أمر به لحاجب تلـــك الحضـــرة عملا بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [٢١].

وكان هذا هوسبب وصول رسل خراسان وجيش تركستان.

خلد الحق تعالى سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين على عـــرش الملـــك. ولتزدهر دولة ألغ خان المعظم والخاقان الأعظم، وليتضاعف قدرها بمحمد وآله.

ولنعد بعد ذلك إلى سياق التاريخ: وكان آخر هذه الأحوال هي أن ألغ خـــان المعظم خلدت دولته عندما قام بغزو سفوح الجبال والجهاد هناك على ذلك النحومن

التدبير المحكم، هربت جماعة من بقايا هؤلاء المفسدين وأقربائهم من حدود تلك البلاد إلى الأطراف قبل ذهاب جيش الإسلام وأنصاره (نصرهم الله) إليها ونجوا بأرواحهم المشئومة بكثير من الحيل بالهرب إلى الأطراف، والفرار من سيوف عبيد دولة ألغ خان وسهامهم.

وهناك عاودت هذه الجماعة الفساد كرة ثانية، وقاموا بقطع الطريق وبإراقة دماء المسلمين، فأصبحت الطرقات محفوفة بالخوف نتيجة فساد هؤلاء القوم، ووصل هذا الأمر إلى سمع ألغ خان المعظم، فأرسل الرسل والعيون والجواسيس ليعرفوا مواضع بقايا المفسدين، ويتحروا عن أحوال هؤلاء السفلة بصورة كاملة، ويقفوا عليها.

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر رجب عمت بركته سنة ثمان وخمسين وستمائة، ركب ألغ خان من الحاضرة دهلي مع حاشيته الخاصة وجيش القلب وأفواج من ملوك آخرين ومقاتلين وتوجه إلى السفوح بحيث قطع مسافة خمسين كروها أو أكثر.

وفجأة انقض على هذه الجماعة، وقبض على الجميع، وقتل ما يقرب من اثنتي عشرة ألف نسمة من الرجال والنساء والأبناء بسيوف لا ترحم، وطهر كل الوديان والمضايق الموحلة وأعالي الجبال من وجودهم بإعمال سيوف أنصار الحق، وحصل على غنائم كثيرة من كل جنس، والحمد لله على نصرة الإسلام وإعزاز أهله.

كان هذا هو القدر الذي تمت مشاهدته من تلك الدولة وقد كتب بقلم الإخلاص والمأمول من القراء والناظرين هو الدعاء، والمرجو من أرباب الدولة هو الإعزاز والعطاء، والمأمول هو الله الكريم، والمسئول هو الرب الرحيم.

التاريخ في شوال سنة ثمان وخمسين وستمائة. والحمد لوليه والصلوات على نبيه، والسلام على آله وأصحابه الطاهرين أجمعين، وسلم تسليما كثيرا.

هوامش الطبقة الثانية والعشرين

١ - الملوك الشمسية هم الذين ينتسبون إلى السلطان شمس الدين، وكانوا في الأصل عبيدا له، ثم تدرجوا في مناصب البلاط حتى أصبحوا أصحاب إقطاعات في أنحاء الهند، وصاروا ملوكا تابعين للسلطان الذي يقيم في دهلي.

وفي هذه الطبقة يروي منهاج الأحداث منذ رجب عام ٦٢٥ هـ حتى شوال ٦٥٨ هـ ويكتب عن كل ملك منهم ، فيذكر أوصافه في البداية، ثم المناصب التي تدرج فيها في البلاط حتى صار ملكا، ويصف علاقة هذا الملك بالسلطان والحروب التي اشترك فيها، وتاريخ وفاته.

والمصدر الأساسي في هذه الطبقة هو المؤلف نفسه، لأنه شارك في الحياة السياسية وقتئذ، فقد كان منهاج ينتمي لعائلة كبيرة من رجال الدين والسياسة والعلم، ممن كانوا ملازمين للملوك ورجال الدولة، لذلك كانت أبواب البلاط مفتوحة أمامه، مما أتاح له مقابلة جميع رجال الدولة تقريبا. وكان موضع ثقة الملوك، فكان يحمل رسائلهم ، ويقوم بعقد الاتفاقيات السياسية والتجارية بينهم، كما يقوم بفض الخلافات القائمة بينهم، وقد ترك غور بعد سقوطها في يد الخوارزميين ، وذهب إلى ملوك سجستان يعمل لديهم، ومع الغزو المغولي تحرك إلى تولك حيث أقارب والدته واشترك معهم في الحرب ضد المغول، ومع صعوبة الحياة هناك بعد تخريب المغول للبلاد، هاجر إلى الهند وهناك ونظرا لمكانته السياسية والعلمية والدينية تولى أعلى المناصب من قضاء وإشراف على المدارس وعقد مجالس الوعظ، لذلك كله فهذه الطبقة لها أهمية خاصة؛ إذ إنه كان أحد رجال بلاط دهلي وشاهد الأحداث وعاصرها، واشترك فيها اشتراكا فعليا، حيث كان يخرج مع جيوش السلطان المتجهة للغزو، وكان يعقد مجالس الوعظ وسط معسكر السلطان، مما أتاح له التنقل في مدن الهند المختلفة، وتسجيل الحروب بوصفه شاهد عيان، وهو يعتبر تسجيلا حيا للأحداث، كما أثبت تواريخ دقيقة لمعظم هذه الأحداث.

وقد أورد قصة على لسان الملك نصرة الدين تايسي المعزي عن إحدى معاركه في الهند (طبقات ناصري ج. ٢ ص ١١) كما نقل عن ثقات الرواة في مواضع عديدة، وللشعر نصيب أيضا في هذه الطبقة (طبقات ناصري ج. ٢ ص ١٧- ٢٣ - ٣٢ - ٨٤). وقد انفرد منهاج الدين بالتأريخ لملوك الغور خاصة ملوك الغور في الهند (السلاطين الشمسية وملوكهم) وتبعه المؤرخون اللاحقون فيما كتبه عنهم، فكان هو المصدر الرئيسي للكتابة عنهم والتأريخ لهم. لذلك لقب منهاج بمؤرخ بلاط الغور.

وفيما يلي أسماء الملوك الشمسية بالترتيب الذي أورده المؤلف، وقد سجل تواريخ وفاة أغلب من مات منهم، واكتفى بالنسبة إلى البعض بالدعاء بالرحمة، أما من كانوا على قيد الحياة فقد دعا لهم بطول العمر، وقد ذكر منهاج في هذه الطبقة خمسا وعشرين ملكا.

- تاج الدين سنجر كزلك خان + ٦٢٩ هـ.
- كبير خان إياز المعزى +٦٣٩ هـ.
- الملك نصير الدين آيتمر البهائى: بدون تاريخ
- سيف الدين أيبك حاكم أجه : بدون تاريخ
- الملك سيف الدين أيبك يغان تت + ٦٣١ هـ.
- الملك نصرة الدين تايسى المعزى: بدون تاريخ
- الملك عز الدين طغان خان طغرل + ٦٤٤ هـ.
- تمر خان قيران + ٦٤٤ هـ.
- الملك هندوخان مؤيد الدين المبارك الخازن: بدون تاريخ
- اختيار الدين قراقش خان آيتكين + ٦٤٤ هـ.
- الملك اختيار الدين التونيه صاحب تبرهنده + ٦٣٨ هـ.
- الملك اختيار الدين آيتكين + ٦٣٨ هـ
- الملك بدر الدين سنقر الرومى + ٦٣٩ هـ.
- الملك تاج الدين سنجر قتلق + ٦٤٠ هـ.
- الملك تاج الدين سنجر كريت خان: بدون تاريخ
- الملك سيف الدين بت خان أيبك الخطائى: بدون تاريخ
- الملك تاج الدين سنجر تر خان: كان على قيد الحياة
- الملك اختيار الدين يوزبك طغرل خان: بدون تاريخ
- الملك تاج الدين سنجر أرسلان خان الخوارزمى: بدون تاريخ
- الملك عز الدين كشلوخان السلطانى: كان على قيد الحياة
- الملك سيف الدين اركلى داد بك: كان على قيد الحياة
- الملك بدر الدين نصرة خان سنقر الصوفى: كان على قيد الحياة
- الملك نصرة الدين شير خان: كان على قيد الحياة
- الملك كشلى خان سيف الدين أيبك السلطانى ملك الحجاب +٦٥٧ هـ.
- الخاقان المعظم والخان الأعظم بهاء الحق والدين ألغ خان بلبن السلطانى: كان على قيد الحياة.

٢- السيوطى: الجامع الصغيرفى أحاديث البشير النذير ص ٣١٤ بدون تاريخ.

٣- هو رستم بن دستان بطل ممالك إيران ومن أبطال الشاهنامة المعروفين، وهوابن زال ورودابه وحفيد سام ومهراب كابلى، ولد فى عهد ملك منوچهر، وقد بدأت قصة بطولته بقتل الفيل الأبيض، وحقق انتصارات عديدة.

د. زهراى خانلرى: فرهنگ ادبيات فارسى درى: ص ٢٣٠، انتشارات بنياد فرهنگ إيران، تيرماه ١٣٤٨ هـ.ش.

٤- أرش: اسم بطل إيرانى كان طبقا للروايات القديمة ضمن جيش منوچهر، وقد ألقى بسهم من مدينة آمل أوسارى من أجل تحديد حدود إيران وتوران فسقط بجوار نهر جيحون.

المصدر السابق: ص ٦
٥- كانت بلاد أتراك القرلغ (القرلق) تقع جنوب مملكة الأويغور، وكان هؤلاء الأتراك يعرفون فى الشعر الفارسى باسم خلخ ويوصفون باستقامة القامة وجمال الوجه، وكان أتراك القرلغ (القرلق) والأيغور يدفعون الخراج للقراخطانيين.
عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، ج. ١، ص ٨، طهران ١٣٤٧ هـ ش.
٦ – كلمة هندية وهى اسم عملة صغيرة تساوى ٢٠/١ من عملة تسمى دام، ودام تساوى ٤٠/١ من الروبية.
Persian – English Dictionary – BEIRUT – Lebanon 1975.P.405
٧- لك = مائة ألف. برهان قاطع ص ١٠٥٢، تهران ١٣٤١
٨- القراخطائيون: أصلهم من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين، وبسبب اضطراب الأحوال السياسية فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى – الثانى عشر الميلادى – هاجروا إلى أن نزلوا بإقليم التركستان، وكانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى تقع ما بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق، وكان شاطئ نهر سيحون حدا فاصلا بينهما.
د. فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٢٣ -٥٤ -٥٥ – ٦٦، القاهرة، ١٩٧٥م
٩- لأن تاريخ وفاة هذين الملكين بتصريح المؤلف هو ٦٤٤ هـ ولأن (خ + س + د) بحساب الجمل = ٦٦٤ هـ لذلك يجب أن يكون صحيح المصراع الفارسى هو (خ وميم ودال) حتى يتفق مع ٦٤٤ هـ.
انظر هامش عبد الحى حبيبى على طبقات ناصرى ج.٢ص ١٧، كابول ١٣٤٦ هـ ش.
١٠- الطشتدارية: الطست هومعرب طشت أوتشت ويؤنث ويذكر والجمع طسوت، والطست أوالطشت هوإناء كبيرمستدير من نحاس أونحوه يغسل فيه، والطشتدار هوأحد الموظفين الذين يعملون فى "الطشت خانه" أى المكان الذى يحوى الطشت الذى تغسل فيه الأيدى، والطشت الذى تغسل فيه الأقمشة، وكان الطشت خانه يحوى ملابس السلطان وكذا المقاعد والمخاد والسجاد الذى يصلى عليه السلطان، ويعرف بعض الصبيان الذين يعملون فى هذا المكان بالطشت دارية، ويعرف بعضهم الآخر بالرختوانية.
انظر: المعجم الوسيط، ج. ٢. ،الطبعة الثالثة، ص. ٥٧٧ – د. فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ ، ص. ٦١، القاهرة، ١٩٧٥م.
١١- جتان جمع جت، واسم قوم يعرفون بهذا الاسم فى أفغانستان حتى الآن.
طبقات ناصرى، ج ٢، هامش ص ٢٧، كابل ١٣٤٣ ش.
١٢- قرآن كريم: سورة التوبة، آ ية رقم ٣٢
١٣- القرمطة فى الخط هى مقاربة السطور.
مختار الصحاح: ص ٥٣٢، القاهرة، ١٣٤٠ – ١٩٢٢ م
١٤- الكروه = ٣/١ فرسخ = ٢ ك. م

فرهنك عميد: ص٨٢٧، تهران، ٢٥٣٥
١٥- قرآن كريم: سورة الرحمن، آية رقم ١٩
١٦ – قرآن كريم: سورة الرحمن، آية رقم ٢٢
١٧ – قرآن كريم: سورة التوبة، آية رقم ٣٢
١٨- المقصود ما حدث من تغير في مشاعر السلطان ناصر الدين تجاه والدته التي كانت متزوجة من قتلغ خان، فأصدر أمره بإسناد إقطاع أوده إليهما على أن يذهبا إلى هناك.
انظر: طبقات ناصري، ج. ١، ص ٤٨٩
١٩ – قرآن كريم: سورة القصص، آية رقم ٨٠
٢٠ – قرآن كريم: سورة الجمعة ، آية رقم ٤
٢١ – قرآن كريم: سورة الرحمن، آية رقم ٦٠

الطبقة الثالثة والعشرون فى
وقائع الإسلام وخروج الكفار دمرهم الله[1]

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى قهر العتاة، وعفا عن الجناة، وقدر الشمل والشتات، والصلوات على محمد صاحب المعجزات والآيات البينات، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد: فهذه طبقة أسباب الواقعات وظهور الفتن وخروج الكفار واستيلاء المغول على المسلمين والمسلمات. دمر الله المغول، ورزق أهل الإسلام النجاة منهم .

هكذا يقول داعية الإسلام والمسلمين كافة منهاج بن سراج الجوزجانى، أصلحه الله بالفضل الربانى، إنه حينما كتب عن أنساب الأنبياء والخلفاء وملوك المسلمين وسلاطين الإسلام وجبابرة الكفار وأحوال كل واحد ممن حكموا ديار ممالك الدنيا وأكناف الربع المسكون على مر العصور، وسجل بعضا من سيرة كل منهم فى موضعه ، كان من التقديرات الإلهية والأحكام السبحانية أن وصلت نوبة الحكم (بعد ملوك إيران وتوران) إلى جنگيزخان المغولى وأبنائه.

وبدخول جملة أراضى توران والمشرق تحت حكم المغول الكفار، انتهى حكم دار الإسلام فى تلك البلاد، وبدأ حكم دار الكفر باستثناء ممالك الهند التى صارت بفيض الفضل الربانى وعناية الكرم الإلهى فى ظل حماية آل شمس وكنف

عناية أسرة آلتتمش حوزة لأهل الإسلام ودائرة لأصحاب الإيمان ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(٢).

وفى ديار المشرق انتزعت من ملوك الإسلام المنطقة الممتدة من أقصى بلاد الصين والتركستان وما وراء النهر وطخارستان وزاول وكابل وغور وغزنين وخراسان وطبرستان وفارس وخوزستان وديار بكر والموصل حتى حدود الشام والروم ووقعت فى أيدى الكفار المغول.

ولم يبق فى هذه الممالك كافة أثر من ملوك المسلمين وسلاطينهم ، رحم الله الماضين، وأدام دولة السلطان الناصرية والمملكة الشمسية.

هكذا أردنا أن نكتب عن كيفية ظهور تلك الطائفة ، وما استولوا عليه من بلاد، وأن نشرح الحوادث والوقائع من أول خروجهم حتى تاريخ سنة ثمان وخمسين وستمائة الذى تم فيه كتابة الطبقات، وقد أوردنا ما عرف عن طريق المشاهدة، وما علم عن طريق الرواة الصادقين، حتى يتضح للمتأملين من دولة سلطان سلاطين الإسلام (خلد الله ملكه) أحوال ديار الإسلام وانتقال دولة المغول من واحد إلى آخر.

وإذا بقيت ذكرى لكاتب هذه الطبقات منهاج بن سراج فله رجاء صادق بالدعاء له بالإيمان أثناء حياته، وبالغفران بعد مماته، حتى لا ينسى عند سلطان العالم وملك أهل الإيمان، ولا عند القراء الآخرين. والله الولى الموفق للإتمام .

وقبل الحديث عن أصل المغول ووقت خروجهم أكتب (بتأييد الله تعالى وحده) فصلا فى بيان الأحاديث التى وردت فى خروج هذه الطائفة:

اعلم أن ثقات الرواة قد رووا فى كتب الحديث شروط الساعة وعلامات القيامة مثل صحيح سنن أبى داود السجستانى، وكتاب البدء والتاريخ للمقدسى،

وتاريخ ابن هيصم النابى رحمهم الله، وكتاب أحداث الزمان، فخروج تلك الطائفة مكتوب ومروى فى هذه الكتب كلها.

وقد جاء فى سنن أبى داود السجستانى(٣): روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا أقواما وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون من الشعر، وأقواما نعالهم الشعر صغار الأعين ذلف الأنوف". (وفى رواية حمر الوجوه وفطس الأنوف صغار العين كحدق الجراد وجوههم كالمجان المتطرقة).

أما رواية صاحب المقدسى(٤) فهى: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمين الترك قوم وجوههم كالمجان المطرقة، صغار العين أخنس الأنوف يلبسون الشعر" (ويمسون فى الشعر).

وفيما يتعلق برواية أبى الحسن الهيصم بن محمد النابى(٥) (رحمهما الله) فهى: يقول: "روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن مقدمة خروج يأجوج ومأجوج الترك وفسادهم".

كما جاء فى أحداث الزمان من تصنيف أبى عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله أبى الليث الشيبانى(٦): عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال :" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تقاتل الترك صغار العين حمر الوجوه ذلف الأنوف وجوههم كالمجان المطرقة".

وعن أبى مسعود رضى الله عنه: "كأنى بالترك قد أتوكم على براذين مخرقة الأذن (حتى يطأها بشط الفرات قيل مخرقة الآذان)".

كذلك يروى أبوالحسن نابى صاحب القصص والتواريخ في الجزء الرابع من القصص فى فصل الأخبار، أن علامة القيامة ظهرت حينما بدأ جماعة الأتراك العصيان فى حدود باورد وخراسان فى عهد السلطان محمود بن سبكتگين الغازى عليه الرحمة، وخرجوا من ربقة طاعة السلطان والانقياد له، فرفع عمال السلطان ونوابه تلك الواقعة إلى حضرة السلطنة، فصرخ ذلك الملك العادل قائلا: " أعتقد أن تمرد جماعة الأتراك وفسادهم هذا من مقدمات خروج الترك فى بلاد الإسلام كما ينبئ المصطفى صلى الله عليه وسلم عن علامات القيامة".

وحيث إن هذه المقدمات التى قالها المصطفى صلى الله عليه وسلم قد تحققت، نورد فيما يلى (إن شاء الله) الحديث عن دولة الكفار.

الأول منهم القراخطائيون

هكذا روى الثقات: أن أول خروج للترك كان حينما نزحت قبائل الخطا من بلاد الصين وديار المشرق إلى حدود قيالق وبلاساغون، وشقت عصا الطاعة على ملك طمغاج، واتخذوا من حدود البلاد الإسلامية مقاما ومرعى لهم، وقد قبل الملوك المسلمون الذين كانوا ينتسبون إلى آفراسياب(٧) وكانوا من سلالة إيلك ماضى ممن انقادوا للسلاجقة رحمهم الله تعالى منح تلك الصحارى والمراعى لهم.

ونظرا لأنهم ظلوا هناك فئة قليلة لمدة طويلة، فقد أقاموا فى هدوء دون أن يحدثوا تمردا وفتنة، ولكن حينما امتد بهم عهد الأمن، وعاشوا فى فراغ ورفاهية، وكثر توالدهم وتناسلهم، شرعوا فى العصيان والتمرد.

ولما أوشكت مدة حكم سنجر على النهاية، أظهروا العصيان، فقدم السلطان وقامت الحرب بين جماعة الكفار هذه وبين السلطان سنجر، فانهزم جيش الإسلام وأسرت تركان خاتون وكانت زوج السلطان.

وحينما عاد السلطان للقتال طلبوا الصلح، وأطلقوا سراح تركان خاتون، وبذلك أصبحوا فى أمان.

وبعد أن ظهرت فتنة غز ختلان، وزال ملك سنجر (كما سبق ذكر ذلك) اكتسب القراخطائيون قوة تامة. وكان ملوك التركستان يهزمون بعضهم البعض بمساعدتهم، فكانوا يرسلون الأموال والتحف والهدايا إليهم على أمل الحصول على مساعدتهم، وكانوا يجتهدون فى قمع بعضهم البعض، حتى أصبح القراخطائيون يسيطرون على الجميع، واستمرت مدة سيطرتهم ما يقرب من ثمانين سنة ونيف.

وفى البداية حينما تمت لهم السيطرة كانوا عدة أشخاص يعقب بعضهم البعض، الأكبر فالأكبر، والذين كانوا قريبين من عهدنا، وسمع عنهم الرواة هم ايما وسنكم واربزوتوما وتاينكو، وكانت ملكتهم امرأة، وفى نهاية أمرهم وبعد تلك المرأة، حكمهم رجل اسمه گورخان، كانوا يطلقون عليه (خان خانان)[٨] وقد روى البعض أنه كان قد أسلم فى السر، والله أعلم بالحقيقة.

وكان هؤلاء وبإجماع الأقوال حكاما عادلين يمتازون بالإنصاف والشجاعة فى بداية أمرهم؛ فكانوا يعظمون المسلمين كثيرا ويجلون العلماء، ولم يكونوا يجيزون الظلم والتعدى على أى مخلوق.

وقد عبرت جيوش القراخطائيين نهر جيحون عدة مرات، وهاجمت أطراف خراسان، فقد أغاروا على بلاد خراسان الشمالية من نهر جيحون وحدود بلخ وترمذ وآمووطالقان وگرزوان وغرجستان حتى حدود الغور.

وكان حكام ما وراء النهر وفرغانة وخوارزم وبعض المناطق فى خراسان يرسلون جميعا الأموال إليهم، وكان القراخطائيون قد أسروا عددا من المسلمين من هذه المناطق عدة مرات.

وقد انقاد لهم ملوك الثغور، فيما عدا سلاطين الغور وباميان الذين شقوا عصا الطاعة، وكان جيش ملوك الغور بقيادة القائدين البطلين خرجم ومحمد خرنگ (عليهما الرحمة) قد هزم جيش الخطا مرة أو مرتين، حيث استشهد القائد خرجم. وآخر جيوش الخطا التى عبرت نهر جيحون، هى التى مضت إلى خراسان، وحاربت السلطان الغازى معز الدين محمد بن سام طاب مرقده(٩).

وحينما انتهى عهد السلطان الغازى محمد بن سام ،استولى السلطان محمد خوارزم شاه على بلاد التركستان فحاربه تاينگوالطرازى قائد الجيش ولكن السلطان محمد خوارزم شاه أسره ، وقد أسلم تاينگوعلى يديه.

ويروى الثقات: أن تاينگوالطرازى كان قد انتصر فى خمس وأربعين معركة، ولم يكن قد هزم من قبل. وقد هجم السلطان محمد خوارزم شاه على معاقل الخطائيين للمرة الثالثة، وأسر الجميع .

كما تحارب كشلوخان سنقر التتارى مع گورخان وأسره، وبذلك انقضت دولة الخطائيين وانتهى أمرها. والدائم هو الله.

الثانى چنگيز خان المغولى (لعنه الله)

روى بعض الثقات أن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم قائلين: "متى الساعة يا رسول الله؟ قال: بعد ستمائة عام ونيف(١٠)". وكلمة "اند" في لغة الفرس يقابلها لفظان فى العربية: الأول نيف، والثانى بضع، أما لفظ بضع فقد جاء فى القرآن فى موضعين الأول فى قصة يوسف عليه السلام ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(١١). ومدتها سبع سنوات.

والثانى فى سورة الروم ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[١٢]. وكان هذا أيضا سبع سنوات.

ولفظ "نيف" هذا فى العربية ومعناه "اند" فى الفارسية كلمة تقع بين عقدى العشرات مثل عشرة ونيف وعشرين ونيف وثلاثين ونيف. ولأن المصطفى صلى الله عليه وسلم قال ستمائة ونيف، فيجب إذن أن يكون ظهور علامات القيامة بين ستمائة وستمائة وعشرة، صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وكان استشهاد السلطان الغازى معز الدين محمد بن سام (طاب ثراه) فى شهور سنة اثنتين وستمائة، وكان آخر السلاطين العادلين، وصار خاتم الملوك، وكانت دولته سدا لفتن آخر الزمان ولظهور علامات القيامة.

والدليل على هذا الحديث ما حدث فعلا فى ذلك العام؛ إذ استشهد فيه الملك الغازى، ففتح سد الفتن والأحداث، وفى هذا العام خرج أيضا چنگيزخان المغولى (عليه اللعنة) وبدأ الشر والفساد والتمرد فى جملة ممالك الصين وطمغاج وأطرافهما ونواحيهما، وقد ذكر فى جميع الكتب أن أولى علامات القيامة هى خروج الترك.

وقد روى جماعة من الثقات صادقوالقول أن أبا چنگيز خان[١٣] كان اسمه تمرچى التتارى، وأن قبيلة التتار كانت أكبر قبائل المغول، وكان تمرچى شخصية بارزة بين القبائل وبين قومه، وحينما وقع بين يديه طائر اسمه طغرل فى حلبة الصيد لقب "بطغرل تگين"[١٤]، ولم يكن أحد قد اصطاد قبله هذا الطائر الذى وقع فى يده فى أى مكان، فعظموه لذلك.

وكان هناك وسط قبائل المغول تركى آخر، عظيم وقائد وزعيم ومحترم أيضا، فكانت جميع قبائل المغول تحت إمرة هذين الشخصين ، وكانت تلك

الجماعات كلها تطيع وتنفذ أوامر أسرة آلتون خان[٥١] ملك طمغاج، حيث كـانوا يؤدون الخراج لأسرته.

ولكن الفساد والسرقة والزنا كان متفشيا بين قبائل المغول، ولـم يكـن فـي أقوالهم وأفعالهم سوى الكذب والفساد والسرقة والزنا، فكانت جميع قبائـل التـرك تعانى من فسادهم وفتنهم، وبسبب هذه التصرفات كانوا يلاقون مذلة كبيرة من بلاط آلتون خان، حيث كانوا يطلبون منهم ذهبا وجيادا وافرة.

وبمجرد أن ذهب والد جنكيزخان إلى الجحيم، وآلت مقاليـد الأمـور إلـي جنگيز، بدأ التمرد وأظهر العصيان، فتوجه فوج من أتباع آلتون خان لنهب قبائـل المغول وقمعهم، فقتلوا أكثرهم بحيث بقى عدد قليل منهم، وتجمع من نجـوا مـن سيوف أتباع آلتون خان مع بعضهم البعض، وانتقلوا من تلك الـبلاد إلـى شـمال التركستان.

وهناك التجأوا إلى موضع حصين لم يكن هنـاك أى طريـق يـؤدى إليـه باستثناء أحد الأودية، وكان ذلك المكان كله محاطا بجبال راسيات، ويسـمى ذلـك المكان والمرعى كلران، وفى وسط هذا المرعى توجد عين كبيرة جـدا اسـمها " بلبق جاق "، وبين تلك الهضاب شيدوا مساكنهم حيث أقاموا هناك مدة طويلة.

وبمرور الأيام كثر توالدهم وتناسلهم، وظهر بينهم رجال كثيرون، وتشاوروا جميعا مع بعضهم البعض متساءلين: " لأى سبب كانت هزيمتنا والإغـارة علينـا؟ ولماذا تم نهبنا وأسرنا وقتل الكثيرين منا؟"

وفى النهاية اتفقوا جميعا على أن هذه الأحداث والوقائع إنما وقعت بسـبب المفاسد الكثيرة فقالوا: " ينبغى الكف عن المفاسد حتى يهبنـا الله تعـالى النصـر، ونثأر لأنفسنا من جيش آلتون خان، ونحن يلزمنا يقينا قائدا شجاعا لتحقيـق هـذا

الهدف، كما يلزمنا أميرا يسوس أمورنا، حتى يتيسر رد المعتدين وظلم المفسدين وعقاب الخصوم والانتقام من آلتون خان".

ولما كان چنگيز خان قد عرف بين تلك الجماعة بالرجولة والشجاعة والجرأة والقتال، واكتسب شهرة بينهم، فقد اتفقوا على توليته أميرا عليهم؛ لأنه لن يستطيع أى شخص سواه أن ينهض بهذه الأمور، ولن يستقيم هذا الأمرعلى يد شخص غيره، ولن يقوم به سواه .

ووسط تلك القبائل كان چنگيز خان قد وطن نفسه على الانقياد للأوامر، والامتثال لما تنص عليه الوثائق والعهود، كما أحكم قواعد تلك الأمور مع قومه بالصورة التى كانت مألوفة عند هؤلاء القوم فقال لهم: " الانقياد لأوامرى يعنى أنه إذا أمرت أن يقتل الأبناء الآباء، ويقتل الآباء الأبناء، فعلى الجميع أن ينقادوا لهذا الأمر". فتعاهدوا على ذلك.

وكان أول أمر أصدره هوأن يقتلوا أبناء الأمير " بيسو" وكان شريكا لوالده وقد أخضع چنگيزخان جميع القبائل لسيطرته، واستعد للحرب وانشغل بإعداد الآلات والعتاد والسلاح.

ولما أخذ عدد القبائل يتزايد ويكثر ووصل الحديث عن أهدافهم إلى مسامع آلتون خان، وجه ثلاثمائة فارس ليراقبوا مفترق طريق تلك الطائفة المغولية، ويحرسوا ذلك الوادى.

فأرسل چنگيزخان رجلا مسلما كان من بين أتباعه اسمه جعفر برسالة إلى آلتون خان لمعرفة ما إذا كان يريد الصلح أم الحرب، فأمر آلتون خان باعتقال ذلك الرسول، وتم حبسه مدة طويلة.

وحدث أن هرب ذلك الشخص بالطريقة التى تيسرت له من السجن، وتوجه إلى جنگيزخان من طريق سرى، وقص عليه ما حدث، وأخبره بالطريق الذى جاء منه.

فصمم جنگيز على الخروج لمحاربة آلتون خان، وأعد الجيوش وأمر فاجتمعت فى البداية جميع قبائل المغول أمام أحد الجبال، ثم أمر ففصلوا كل النساء عن الرجال، والأبناء عن الأمهات، وحسروا رءوسهم ثلاثة أيام كاملة، ولم يتناول أى شخص الطعام خلال هذه الأيام، ولم يسمح بأن يعطى أى كائن لبنا لطفل، ودخل جنگيز إحدى الخيام ، وعلق حبلا فى رقبته، وكان الجميع فى تلك الأيام الثلاثة بلياليها يصيحون قائلين: "تنگرى تنگرى[١٦]".

وبعد الثلاثة أيام، وفى فجر اليوم الرابع خرج جنگيز من الخيمة وقال:" اللهم انصرنى، نحن مستعدون الآن لنثأر لأنفسنا من آلتون خان".

ثم احتفلوا ثلاثة أيام أخرى أيضا فى ذلك الموضع، وبعد الثلاثة أيام قاد جنگيز الجيش من هناك سالكا الطريق الذى كان جعفر المسلم قد هرب منه، وخرجوا من بين الجبال ، وهجموا على ولاية طمغاج، وأطلقوا أيديهم فيها، وطاردوا خصومهم، وقتلوا خلقا كثيرين منهم .

وحينما ذاع نبأ خروج جنگيزخان، ووصل إلى آلتون خان، ظن أنه ربما يكون الثلاثمائة ألف فارس الذين كانوا يحرسون الطريق والوادى قد هزموا، وأن المغول قد جاءوا للقتل والنهب، فوهنت عزيمة آلتون خان وجملة أهل بلاد طمغاج، وتحطمت قلوبهم .

وما إن وصل خبر مجىء المغول ونهبهم وقتلهم إلى هؤلاء الجنود الذين كانوا يحرسون مفترق الطريق، حتى تفرقوا خوفا من هول تلك الواقعة، فقتلوا وأسروا .

واستولى چنگيزخان على ولاية تغر والتبت وطمغاج، وجاء إلى باب مدينة طمغاج عاصمة آلتون خان، وظل أربع سنوات على باب المدينة، وأقام المحاصرون المجانيق فى المدينة وأخذوا يقذفون أعداءهم.

وحينما قل الحجر والآجر وغير ذلك، وضعوا فى المنجنيق كل ما كان حديدا أوصفيحا أونحاسا أورصاصا، ثم أخذوا يضعون النقود الذهبية والفضية فى المنجنيق، ويلقون بها بدلا من الحجارة.

ويروى الثقات: أن چنگيزخان كان قد أمر فى تلك المدة بألا يلتفت أى شخص من جيش المغول إلى هذا الذهب وتلك الفضة، ولا يأخذونهما من الموضع الذى يقعان فيه .

وبعد أربع سنوات حينما فتحت تلك المدينة، وهرب آلتون خان وأسر ابنه ووزيره على يد چنگيز خان ،أمر چنگيز فأحصوا كميات الذهب من دفاتر خزائن آلتون خان بحيث يعرفون كمية الذهب والفضة التى ألقيت، وبناء على ذلك الإحصاء بحثوا عن جملة الذهب والفضة، وحصلوا عليهما، بحيث لم يضع شىء منهما.

وكان هناك رجل اسمه السيد الأجل بهاء الدين الرازى عليه الرحمة، وكان سيدا شريف الذات، طاهر النسب، سمع منه داعى الدولة منهاج جامع هذه الطبقات أن السلطان محمد خوارزم شاه عليه الرحمة والغفران كان قد أرسله برسالة إلى چنگيزخان، وكان سبب تلك الرسالة أن خوارزم شاه حينما سمع عن ظهور چنگيزخان، واستيلاء جيش المغول على ممالك طمغاج وبلاد تغر والتبت وأقاليم الصين من أقصى المشرق، أراد أن يستطلع صحة هذه الأخبار من رسله، وأن يعرف أحوال جيش المغول من حيث كيفيته وآلاته وعدده وعدته.

وفى سنة سبع عشرة وستمائة حينما عبر جيش المغول نهر جيحون للمـــرة الأولى متوجها إلى خراسان، سمع هذا الكاتب منهاج بن سراج فى قلعة تولك من عماد الملك تاج الدين دبير جامى، وكان واحدا من الأركـــان الخوارزمشـــاهية، أن خيال الاستيلاء على ممالك الصين كان قد ســيطر علـــى رأس الســلطان محمــد خوارزم شاه عليه الرحمة، فكان يتطلع دائما إلى معرفة أحوال تلك البلاد، وكـــان يسأل القادمين من ممالك الصين وأقصى التركستان عنها، وكنا نحن عبيده نحـــاول ملتمسين أن نثنيه عن هذا العزم، إلا أنه لم يمكن محوهذه الفكرة من ذهنـــه بـــأى وجه، فأرسل السيد الأجل بهاء الدين لتلك المهمة .

وقد روى السيد بهاء الدين قائلا: "عندما وصلنا إلى حدود طمغاج وبـــالقرب من عاصمة آلتون خان بدت لنا أكمة عالية على مسافة بعيدة، وحينما كـــان بيننـــا وبينها ما يقرب من مرحلتين أوثلاث أوأزيد اعتقدنا نحن رسل خوارزم شاه أن هذه الأكمة البيضاء ربما كانت جبلا تكسوه الثلوج، فســألنا المرشـــدين وأهـــالى تلـــك المنطقة فقالوا: " هذه هى جملة رفات الناس الذين قتلهم المغـــول. "ولمـــا تقـــدمنا مرحلة أخرى كانت الأرض لزجة وسوداء بسبب ما أريق عليها من دماء الآدميين، ووجب السير ثلاث مراحل أخرى فى ذلك الطريق حتـــى وصـــلنا إلـــى الأرض الجافة.

وكان الكثيرون من الناس قد لحقهم المرض أوهلكوا بسبب عفونة هواء تلك المنطقة، وحينما وصلنا إلى باب طمغاج، كان فى موضع أسفل برج القلعة عظـــام بشرية كثيرة، فسألنا عن ذلك، فقالوا لنا إنه فى يوم سقوط هذه المدينة ألقت ســتون ألف فتاة بكر بأنفسهن من فوق هذا البرج، فمتن فى ذلك المكان حتى لا يقعن فـــى أيدى جيش المغول، وهذه هى جملة عظامهن.

وحينما قابلنا جنگيزخان أحضروا ابن آلتون خان ووزيره مقيدين أمامنـــا، وفى وقت العودة أرسل چنگيز معنا تحفا وهدايا كثيرة إلى خوارزم شاه وقـــال: " قولوا لمحمد خوارزم شاه إننى ملك المشرق وأنت ملك المغرب، فيجب أن يتوطـــد بيننا العهد والمودة والمحبة والسلام، وأن تروح وتجىء التجـــارة والقوافـــل بـــين الطرفين، وأن يحضروا إليك الطرف والبضائع التى توجد فى ولايتـــى ، وكـــذلك تفعل بلادك. "

وكان من بين التحف والهدايا التى أرسلها چنگيـــز إلـــى الســـلطان محمـــد خوارزم شاه، قطعة من الذهب الخالص فى حجم رقبة جمل، كانت قـــد أحضـــرت إليه من جبل طمغاج والصين، وقد استلزم الأمر نقل قطعة الذهب هذه على عربة، وكان يرافقنا خمسمائة من الجمال المحملة بالذهب والفضـــة والحريـــر الخطـــائى وأثواب الحرير الأحمر وحيوان القندز وحيوان الســـمور[١٧] والحريـــر وطـــرف الصين وطمغاج، وسير هذا كله مع تجاره، وأكثر تلك الإبل كانت محملة بالـــذهب والفضة.

وحينما وصلت القافلة إلى أترار، غدر بهم " قـــدرخان"[١٨] حـــاكم أتـــرار، وطلب الإذن من محمد خوارزم شاه، وقتل جميع التجارالقادمين والرسل طمعا فى ذلك الذهب وتلك الفضة، بحيث لم ينج أى واحد منهم إلا جمّال كان فـــى الحمـــام، نجا بنفسه من تلك الحادثة عن طريق أتون الحمام، واحتال للمحافظة على نفســـه، ثم عاد إلى بلاد الصين وطمغاج عن طريق الصحراء، وأخبر چنگيزخان بكيفيـــة ذلك الغدر. "

ولأن الحق تعالى كان قد أراد أن يكون هذا الغدر سببا فى تخريـــب ديـــار الإسلام ، فقد ظهر قوله تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾[١٩] وبدت أســـباب المقدور الكائن، نعوذ بالله من سخطه.

وقد سمع داعى الدولة القاهرة منهاج بن سراج ابن الملك ركن الدين خيسار الغورى (وهومن ملوك سيستان، وكان من جملة أمراء نيمروز وخواص خوارزم شاه) وهويقسم بأن كل خزينة دخلها دانق واحد من ذهب أوفضة من تجار چنگيز خان وجيش المغول قد وقعت جميعها مع الممالك والولايات فى يد چنگيزخان وجيش المغول.

"ليحفظ الحق تعالى مملكة سلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين فى عصمته من مثل تلك الحوادث بمحمد وآله الأمجاد".

ذكر وقائع الإسلام

روى الثقات أنه عندما قص ذلك الهارب حادثة التجار والرسل على چنگيزخان، أمر چنگيز بأن يجتمع جيش تركستان والصين وطمغاج، وحشد ثمانمائة علم تحت كل علم ألف فارس وثلاثمائة ألف جواد خصصت للأبطال، وأمر لكل عشرة فرسان بثلاثة رءوس من الخراف الصغيرة ليصنعوا منها قديدا، كما حملوا أوعية حديدية وقربا من الماء وساروا فى طريقهم.

وكان الطريق من ولايته حتى أترار يقدر بمسيرة ثلاثة شهور، وكان عبارة عن صحراء خربة، فأمر قائلا: "يجب قطع الطريق والصحراء فى تلك الأشهر الثلاثة بهذا القدر من الزاد ويجب تدبير الباقى بالقمبيز[٢٠] واللبن والماء." بعد ذلك قادوا قطعان الخيل الكثيرة التى لا تدخل تحت عد أو حد أو إحصاء، ثم توجهوا إلى ديار الإسلام.

وفى أواخر شهور سنة ست عشر وستمائة خرجوا إلى حدود أترار، حيث تولدت الفتنة. وعلى الرغم من أنهم كانوا متعبين، وليس معهم مؤن كافية، فإنهم استولوا على أترار فى مدة قصيرة بفضل الجلد والرجولة والشجاعة التى ركبها

الحق تعالى فى طبيعة جنكيز خان وجيش المغول، وجعلوا الكبير والصغير طعما للسيوف البواتر، ولم يتركوا أى مخلوق على قيد الحياة، بل قضوا على الجميع.

وتوجد قصة عجيبة فى هذا الصدد، إذ روى أحد التجار سلمه الله وكان صادق القول واسمه" الخواجه أحمد وخشى " ، قائلا: " إننى قد سمعت من الثقات أن جنكيز خان بعد أن استولى على بلاد طمغاج، وأقام الفتنة فيها لمدة أربع سنوات وأراق الدماء، رأى ذات ليلة فى منامه أنه يربط عمامة طويلة جدا على رأسه بحيث أصابه الملل من طول تلك العمامة وربطها، وأثناء قيامه بذلك ، صارت العمامة كأنها بيدر كبير.

وحينما استيقظ من نومه أخذ يقص رؤياه على كل شخص من المقربين وأرباب العلم الذين كانوا فى صحبته، فلم يستطع أى واحد منهم أن يفسره له بحيث يطمئن قلبه، إلى أن قال أحد المقربين له: " إن هذا لباس التجار الذين يأتون من الغرب إلى هذه البلاد، فيجب استدعاؤهم حتى يتأتى تفسيره منهم. "

وبناء على هذا بحثوا مدة بين التجار لتفسير هذا الحلم، فوجدوا بينهم عدة أشخاص من التجار المسلمين العرب الذين يرتدون العمامة، فاستدعوهم، وقص جنكيزخان حلمه على أكبر هؤلاء الأشخاص وأكثرهم حكمة، فقال ذلك التاجر العربى: " إن العمامة هى تاج العرب " فالعمائم تيجان العربْ "، وكان الرسول المسلم محمد المصطفى(صلى الله عليه وسلم) يرتدى العمامة، وخلفاء الإسلام من أصحاب العمائم ، وتفسير رؤياك هوأن بلاد الإسلام ستدخل فى حوزتك وسوف تحكمها." فوقع هذا الكلام موقع الرضا من جنكيزخان. ولهذا السبب صمم على الاستيلاء على بلاد الإسلام. "

ولنعد إلى سياق التاريخ: حينما استولى المغول على أترار، وقتلوا أهلها، قدموا من هناك إلى بخارى، حيث عسكر جنكيز بالجيش على أبواب مدينة

بخارى فى غرة ذى الحجة سنة ست عشرة وستمائة، وكان فيها كشلوخان أمير الركائب مع اثنى عشر ألف فارس من قبل السلطان محمد خوارزم شاه، فحاصر المغول المدينة، واستولوا عليها وعلى قلعتها فى يوم عيد الأضحى سنة ست عشر وستمائة .

وأخرج جنگيز الناس كافة من خاصة وعامة وعلماء وأشراف ومن نساء ورجال من المدينة ، وقتلهم جميعا ، وأحرق المدينة كلها، ودمر مكتباتها وخربها عن آخرها، وأسر أناسا قليلين، ثم توجه من هناك إلى سمرقند.

وكان فى مقدمة جيش جنگيز خان حينما قدم من الصحراء، واستولى على أترار وزحف إلى باب بخارى واستولى عليها رجل تركى اسمه (تمرچى چربى)، وكان رجلا شجاعا جدا، وكلمة چربى فى اللغة المغولية معناها "الحاجب."

وبمجرد أن بلغوا أبواب سمرقند، أعدوا كمينا، وما إن تقدم أهل سمرقند للحرب حتى فتح المغول الكمين ، فحلت الهزيمة بجيش الإسلام وبأهل سمرقند، واستشهد ما يقرب من خمسين ألفا من المسلمين.

وبعد ذلك أقام المغول ما يقرب من عشرة أيام أوأكثر على الحدود، وكان فى سمرقند ستون ألف فارس من قبل السلطان محمد خوارزم شاه من الترك والغور والتاجيك والخلج والقرلغ، بالإضافة إلى جميع ملوك الغور مثل الخرز والملكى والزنگي والحرحم وملوك الغور الآخرين. وفى يوم عاشوراء العاشر من المحرم سنة سبع عشرة وستمائة استولى جنگيز على سمرقند وخرب المدينة وأحرقها وأسر البعض.

وبعد ذلك وجه الجيوش إلى أطراف ما وراء النهر وفرغانه حتى باب بلاساغون وخرب البلاد كلها وقتل الخلق وأرسل أفواجا من جيوش المغول لفتح

أطراف البلاد. فوجه جيشا فى إثر كشلوخان التتارى (الذى كان أميرا لقبائل التتار وكان قد أسر گورخان الخطائى وأحضره عنده) ليتعقبه فى شمال تركستان حتـى قبض عليه فى ناحية جاب وقصبة كيكرب حيث المناطق الجبلية وسـفوح جبـال سمرقند وتم قتله .

وحينما وصل خبر الاستيلاء على سمرقند واستشهاد الناس وأسرهم وهزيمة جيش الإسلام الموجود هناك إلى السلطان خوارزم شاه وهو على أبواب بلخ (كمـا سبق ذكره) وهنت عزيمته، وتوجه إلى نيسابور.

وحينما علم چنگيز بخبر ذهاب خوارزم شاه من أطراف بلخ وتفرق الجمـع والجيش الذى كان معه ، أرسل ستين ألف فارس من معسكر المغول بقيادة قائـدين كبيرين من المغول الكبار إلى خراسان، الأول سوده بهادر والثانى يمه نوين فـى إثر السلطان محمد خوارزم شاه فعبروا نهر جيحون .

وكان عبورهذا الجيش نهر جيحون فى شهر ربيع الأول سنة سـبع عشـرة وستمائة، وبناء على أمر چنگيزخان لم يلحقوا أذى بأى مدينة من مدن خراسـان، ولم يستولوا على أى منها، إلا ما حدث فى ولاية هراة فى مكان يسـمى پوشـنج، حيث قتل هناك واحد من أكابر الجيش المغولى فى إحدى المعارك ، فاستولوا على قلعتها عنوة، وكانت صغيرة، وقتلوا كل من وجد بها من المسلمين، ثم قصدوا مـن هناك إلى نيسابور، وبلغوا أبوابها .

وحينما اندلع القتال هناك، قتل صهر چنگيزخان[٢١]، فلـم يشـغلوا أنفسـهم بالانتقام، بل مضوا إلى طبرستان ومازندران فى إثر السلطان محمد خوارزم شاه، الذى كان قد عسكر فى وادى تميشه على طريق مازندران، حيث لحق بـه جـيش المغول فجأة.

فترك السلطان خوارزم شاه "الحاجب آتسز" تحت المظلة فى قلب الجـيش، وأمره بأن يقود الجيش إلى دامغان والعراق، وتوجه هوإلى جبال مازندران وركب البحر (كما سبق ذكر ذلك) وانقسم جيش المغول إلى فوجين: الفوج الأكبـر ذهـب إلى العراق فى إثر جيش خوارزم شاه، والفوج الآخر وهوالأقل ذهب إلـى وادى تميشه في مازندران. ولم يصل مزيد من الأخبار الموثوق بها عن هذين الجيشـين إلى خراسان.

وقد روى البعض: أنه حينما لم يجدوا خوارزم شاه فى مازندران والعـراق، هاجموا جيش ابنه السلطان المدعوركن الدين غورى شانسـتى، وقتلـوه، وأبـادوا جيش العراق، ثم رحلوا إلى القبچاق عن طريق آذربيجان.

ذكر عبور جيش چنگيزخان نهر جيحون إلى خراسان

حينما جلى يمه نوين وسوده بهادر مع ستين ألف فارس عن خراسان، وذهبا إلى العراق، وقعت اضطرابات فى خراسان، وظهرت الفتنة، وذهب كل شـخص من الملوك بناء على أمر السلطان محمد إلى ناحية، وحصـنوا القـلاع وأقـاموا الخنادق حول المدينة، وقاموا بالاستعداد للحرب والمحافظـة علـى القـلاع قـدر الإمكان.

وكانت كل ناحية قد أسندت إلى ملك وعينت له، ففوضت قلعة ترمذ إلى جند سيستان، وكان أكبرهم الأمير زنگي أبوحفص، وأرسل الأميـر سـرهنگ سـام والأبطال إلى قلعة ولخ بطخارستان، وكان طول تلك القلعة وعرضها يقدر بأربعة فراسخ، وأوكل أمر قلعة باميان إلى الأمير عمر كربا وردى، وصدر أمر للملـك اختيار الدين محمد على خرپوست عليه الرحمة، بأن يأتى من پرشور لفتح مدينـة غزنين، والمحافظة عليها.

كما صدر الأمر لكل من (الملك حسام الدين حسن عبد الملك) المشرف على الأسلحة فى قلعة سنگه ومدينتها ببلاد الغور، و(الملك قطب الدين حسن بن على بن أبى على) بأن يعمرا قلاع الغور وأن يظهرا جدا بالغا فى المحافظة على تلك البلاد.

وأرسل ملك الكتاب اختيار الملك دولت يار طغرائى إلى قلعة كاليون، وكان فى تلك القلعة بطلان عظيمان من خراسان، كانا يسميان بأبناء يوزبك.

كذلك نصب الملك شمس الدين محمد الجوزجانى فى مدينة هراة، وفوضت قلعة فيوار إلى البطل أصيل الدين النيسابورى صهر مبارك پهلوان، ومنحت قلعة نصر كوه بطالقان لنواب الملك شمس الدين آتسز حسن الحاجب، وأسندت قلعة رنگ گرزوان إلى نواب ألغ خان أبى محمد، وفوضت قلاع غرجستان إلى العميد أبى پهلوان شروان وقلاع غور إلى ملوك الغور، ومنحت مدينة فيروزكوه للملك مبارز الدين الشيرازى، وفوضت قلاع تولك إلى الأمير حبشى نيزه ور، وتم تعيين واحد من عظماء ملوك الترك والغور والتاجيك فى كل قلعة ومدينة.

وحينما ذهب السلطان محمد خوارزم شاه إلى مازندران مهزوما، وتشتتت جيوش الإسلام ، كان چنگيزخان قد فرغ من فتح بلاد سمرقند، فأرسل الفرسان فى إثر السلطان محمد، ووجه جيوشا أخرى إلى نواحى خراسان.

فأرسل أرسلان خان قيالق المسلم ومعه ستة آلاف فارس من المسلمين، وكلهم من الأعاجم مع طولان چربى وجيش المغول إلى ساحة قلعة ولخ بطخارستان، وجاء هو بنفسه مع جيش القلب من سمرقند إلى حرم قلعة ترمذ، وبدأ الحرب:

وبعد عدة أيام حارب فيها مسلموترمذ معارك كثيرة، وأرسلوا كثيرين من المغول إلى جهنم، واستشهد كثيرون منهم، عجز أهل القلعة بسبب قلة حجر المنجنيق، فاستولى جنگيز على تلك القلعة، وقتل الجميع، ومن هناك أرسل جيوش المغول إلى أنحاء خراسان وغور وغزنين.

وكل جيش كان يرسل إلى أنحاء خراسان كان يمر على قلعة نصركوه بطالقان، فكان الفدائيون ينزلون من نصركوه، ويهاجمون أفواج جيش المغول، ويستعيدون الجياد والماشية، ويقتلون المغول.

وحينما انتهى جنگيز خان من غزوطالقان، وجه فوجا كبيرا من المغول إلى قلعة نصركوه فحاصروا القلعة واندلعت الحرب، وتوجه اقلان چربى وسعدى چربى مع صهر جنگيزخان، وكان اسم هذا الملعون فيقونوين، وكان معه خمسة وأربعون ألف فارس وهاجم أنحاء غور وخراسان ووقع فى أيدى جيش المغول كافة المواشى التى كانت فى أنحاء مدن خراسان وقصباتها ورساتيقها وغور وگرمسير، ونهبت المنطقة الممتدة حتى باب غزنين وبلاد طخارستان وگرمسير، وقتل أغلب المسلمين، وأسر البعض.

وفى هذه السنة، سنة سبع عشرة وستمائة، أخذ جيش المغول يهاجم الأطراف لمدة ثمانية أشهر، وفى هذا التاريخ كان كاتب هذه الطبقات منهاج بن سراج فى قلعة تولك، وكان أخوه فى قلعة مدينة فيروز كوه. وفى ذلك العام جاء جيش المغول إلى قلعة آستيه بغور، وحاربوا بضراوة لمدة خمسة عشر يوما

وكان فى تلك القلعة الأمير وصاحب الإقطاع وقائد الجيش تاج الدين حبشى عبد الملك رئيس الترسانة، وكان ملكا عظيما ذا استعداد تام، ولكن لأن القضاء الإلهى كان قد حل، فقد اصطلح مع المغول، وذهب إليهم، فاصطحبوه إلى جنگيزخان الذى لقبه بملك الغور وأعزه ثم أعاده حتى يستولى على القلاع الأخرى.

وحينما عاد تاج الدين حبشى بعد أن هزم جلال الدين منكبرتى بن خوارزم شاه على شاطئ نهر السند، خالف الكفار وانشغل بقتالهم ولقى ثواب الشهادة.

وفى هذا العام نفسه جاء جند المغول مع اقلان چربى إلى باب مدينة فيروزكوه وحاربوا بضراوة لمدة واحد وعشرين يوما، ولم يستطيعوا فتح المدينة، فعادوا مدحورين.

ولما كان فصل الشتاء، وأخذ الجليد يتساقط على جبال الغور، توجه جيش چنگيزخان المغولى من خراسان إلى ما وراء النهر، وكان الجيش الموجود فى الغور يقدر بعشرين ألف فارس من المغول الكافرين، وخلال عبورهم من أمام قلعة تولك توقف فوج منهم وأخذ يهاجم القلعة لمدة ثمانية أشهر وعدة أيام.

وكان هذا الداعى وهومنهاج بن سراج الدين بين مجاهدى قلعة تولك (رحم الله الماضين) يجاهدون الكفار بحيث لم يتيحوا لهم أن يقتربوا من القلعة لمدة ثمانية أيام، كان جيش المغول يتحرك فيها حول القلعة.

وقد قرر الثقات أن أسرى المسلمين كانوا كثيرين فى أيدى الكفار، بحيث إنه تم اختيار اثنتى عشرة ألف فتاة بكر لخاصة چنگيزخان، فاصطحبهن معه، ليخلصهن الله من أيديهم ، وليدمر الكفار بقهره وقدرته .

ذكر عبور چنگيزخان الملعون نهر جيحون

حينما حل ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وستمائة، اتجهت جيوش المغول مرة أخرى إلى أنحاء خراسان وغور وغرجستان، وعند توجهها إلى قلعة نصركوه بطالقان، أظهر المجاهدون فى تلك القلعة رجولة وفداء.

وما إن علم جنگيزخان بخبر مجيء الجيش إلى ساحة تلك القلعة وإخفاقه في فتحها ، حتى عبر نهر جيحون لفتح القلعة ، وأقام في هضبة نعمان وصحراء كعب التي تقع بين بلخ وطالقان.

ولما اشتد الأمر على سكان القلعة ، رضوا بالشهادة ويئسوا من الحياة. وكانوا قبل تلك الحادثة وفتح القلعة والفوز بالاستشهاد بثلاثة شهور قد ارتدوا جميعا ملابس الحداد متضامنين مع بعضهم البعض، وكانوا يحضرون يوميا إلى المسجد الجامع بالقلعة، ويختمون القرآن، ويعزون أنفسهم، وبعد العزاء وختم القرآن، كانوا يودعون بعضهم البعض، ويتسلحون ثم ينشغلون بالجهاد، فكانوا يقتلون الكثيرين من المغول بينما يستشهد البعض منهم.

فلما علم جنگيزخان بشدة قتال هؤلاء المجاهدين، جاء من هضبة نعمان إلى ساحة القلعة، وبدأ الحرب.

وكان المحاصرون قد حفروا خندقا في الحجر على ناحية من القلعة عند البوابة العليا، ولكن المغول حطموا السور بضربات الحجارة والمنجنيق ،وملأوا الخندق، وفتحوا ثغرة بمقدار مائة ذراع ، فتراءى للمغول أمل الاستيلاء على القلعة.

أما جنگيزخان فمن شدة غضبه كان قد أقسم بمعبوده قائلا: " سأستولى على هذه القلعة ممتطيا الجواد". ثم حارب مدة خمسة عشر يوما أخرى، ومهد الطريق حتى استولى على القلعة.

وعندما اندفع فرسان المغول داخل القلعة، خرج من سكانها مجموعة محكمة تقدر بخمسمائة فدائي محارب من ناحية بوابة جبل جنيه بطالقان، وهاجموا

جيش المغول وشتتوا صفوفهم ومضوا. ولما كانت الوديان والأراضي اللزجة قريبة استشهد البعض وسلمت الأغلبية.

بعد ذلك خرب جنگيزخان القلعة، وقتل جميع الأهالي. رضي الله عنهم ورضوا عنه. ليخلد الحق تعالى ملكنا على عرش الملك آمين.

ذكر مجيء جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه إلى غزنين والأحداث التي وقعت له هناك

أرسل السلطان محمد خوارزم شاه أمرا إلى الملك اختيار الدين محمد بن على خرپوست الغوري كي يأتي من إقطاعه پرشور إلى غزنين، وكان رجلا محنكا وشجاعا ومقاتلا ومحاربا، وكان قد انتزع نصر كوه بطالقان من جيش خوارزم شاه لمدة عشر سنوات، وكان مشهورا ومعروفا في خراسان وغور، حيث كان أصله من ملوك الغور الكبار.

وحينما قدم الملك اختيار الدين محمد بن علي خرپوست إلى غزنين، توجه إليه جيش الإسلام من الأطراف، فاجتمع في الحاضرة غزنين جيش كبير يقترب من مائة وثلاثين ألف فارس جرار بكامل أسلحتهم وقرر أن يعد الجيش ويهجم فجأة على جنگيزخان الذي كان يعسكر في هضبة النعمان ويلحق به الهزيمة، فأخذ يرتب الجيش ويعده طوال الوقت.

وكان أكابر خوارزم وعظماؤها الذين كانوا قد انفصلوا عن السلطان محمد قد بدأوا في العودة إليه، وكان شهاب الدين الپ وزير الممالك في غزنين وغور قد قدم إلى غزنين من قبل خوارزم شاه، كما كان في غزنين حارس من قبل السلطان محمد يسمى صلاح الدين من قصبة كردكان.

وحينما جمع محمد على خربوست جيشا كبيرا، وتوجه خان هراة (بعد محاولة هربه إلى سيستان) إلى غزنين بسبب حرارة الجو، وصل خبر من السلطان جلال الدين منكبرتى يفيد بأنه قادم من خراسان إلى غزنين.

وقد تآمر شهاب الدين الب الوزير مع صلاح الدين الحارس فى الخفاء، وأعد حفلة واستضاف الملك محمد خربوست، حيث قتل الحارس صلاح الدين ذلك الملك المجاهد بطعنة خنجر، فتفرق جميع الجنود الذين كان قد جمعهم.

وفى سنة سبع عشرة وستمائة جاء خان هراة من أمام جيش المغول إلى غزنين، وعاد من هناك إلى گرمسير، وتوجه إلى سيستان، وبينما هو فى طريقه منح رضى الملك ولاية پرشور، وحينما جاء رضى الملك إلى غزنين منعه أهل غزنين من التوجه إلى پرشور. وبعد ذلك ذهب رضى الملك إلى پرشور فهزمه جيش العراق الذى كان هناك.

فلما عاد رضى الملك من هناك، قبض القائد أعظم بن عماد الدين البلخى (وكان أمير نگرهار) على رضى الملك، واحتفظ به. وفجأة وصل السلطان جلال الدين منكبرتى وخان هراة إلى غزنين، وجمعا جيشا كبيرا من الترك وأمراء الغور والتاجيك والخلج والغز تحت إمرتهما، وذهبا من غزنين إلى طخارستان. وكان جند المغول بالقرب من قلعة واليان فهزموهما وعادا.

وحينما بلغ خبر مجيء السلطان جلال الدين منكبرتى وخان هراة وجماعة جيش الإسلام إلى چنگيزخان أرسل صهره "قيقونوين" من هراة وخراسان إلى غزنين، وما إن وصل إلى حدود پروان، حتى تقدم السلطان جلال الدين أمام هؤلاء الجند وحاربهم، فتغلب عليهم وهزمهم، وقتل كفارا كثيرين، وأخذ الجيش المغولى يعاود الكرة فتلحقه الهزيمة.

وكان فى جيش السلطان جلال الدين كثيرون من قبيلة إغراق، كلهم محنكون ومحاربون سفاكون. وحدث أن اختلفوا مع الأعاجم الخوارزميين بسبب الغنائم فانفصلوا عن جيش السلطان، وذهبوا إلى ناحية أخرى، فبقى السلطان مع جيش الترك.

وحينما انهزم فيقونوين المغولى، رجع إلى جنگيزخان الذى كان قد توجه من هضبة النعمان إلى غزنين مع الجنود والحشم الخاص به، وحارب السلطان جلال الدين منكبرتى وخان هراة وملوك خوارزم الآخرين الذين كانوا معه على شاطئ نهر السند، فانهزم السلطان جلال الدين وجنود الإسلام، وألقوا بأنفسهم فى نهر السند، فغرق بعض المسلمين، واستشهد البعض وأسر البعض، وخرج قليلون من نهر السند. (والله أعلم بالصواب).

ذكر فتح قلعة ولخ وطخارستان وقلاع بلاد باميان

حينما ذهب أرسلان خان قيالق المسلم مع جيشه وطولان چربى المغولى إلى قلعة ولخ بناء على أمر چنگيزخان، مكثوا هناك مدة ثمانية أشهر.

ولما لم يكن هناك طريق من أى ناحية إلى هذه القلعة، فقد صدر الأمر لجنود المغول بأن يقتلعوا الأشجار والأغصان من أنحاء تلك الجبال وأطرافها، وأن يلقوا بها إلى أسفل القلعة. وكانوا يتظاهرون أمام الناس قائلين: " اننا سوف نملأ هذا الوادى"، وهذا الوادى لا يملأ فى مائة عام بسبب عمقه.

ولما حل البلاء السماوى ونزل القضاء الإلهى، تقدم ابن رئيس ولخ وسط جيش المغول، وأرشدهم إلى طريق يمكن أن يسير فيه عداء سريع السير ودلهم عليه.

وكان في وسط الجبال مغارات حجرية على هيئة مقاعد، ظل ابـن رئـيس ولخ يصحب رجال المغول ويخفيهم في شعاب تلك المغارات طوال ستة أيام حتى إذا ما احتشد الرجال صعد فوق القلعة.

وبعد أربعة أيام انطلقت الصيحات وقت الصباح، وأعملوا السيوف في رقاب الفرقة التي كانت تحرس بوابات القلعة حتى أخلوها كلها من الرجال، ثـم صـعد جنود المغول إلى القلعة، وقتلوا المسلمين كافة، وانتهوا من تلك المهمة .

بعد ذلك صدر لهم الأمر من فوق قلعة ولخ بأن يأتوا إلى قلعة فيوارقـادس فحاصروا تلك القلعة. نصر الله المسلمين ودمر الكافرين.

ذكر فتح مدن خراسان واستشهاد أهالي تلك المنطقة

روى الثقات أنه كان لجنگيزخان أربعة أولاد، الأكبر اسمه توشي والأصغر منه اسمه چغتاى والثالث اسمه اكتاى والرابع وأصغرهم جميعا كان اسمه تولى ، وحينما غادر جنگيزخان ما وراء النهر، قصد خراسان وأرسل توشي وچغتاى مع جيش جرار إلى خوارزم شاه والقبچاق وتركستان، ووجه تولى مع جيش كبير إلى مدن خراسان، واحتفظ بأكتاى معه.

وفي شهور سنة سبع عشرة وستمائة توجه تولى من هضبة النعمـان إلـى مرو، واستولى على تلك المدينة، وقتل الناس، ثم ذهب من هناك إلـى نيسـابور، واستولى عليها بعد معارك عديدة، وقضى على أهالي تلك المدينـة تمامـا انتقامـا منهم، لأن صهر جنگيزخان كان قد قتل هناك، وخرب المدينـة وهـدم أسـوارها وربط المحاريث وساقها في المدينة، بحيث لم يبق من عماراتها أثر.

وحينما انتهوا من المدينة وأطرافها ونواحيها ،قدم تولى من هناك إلى مدينة هراة وعسكر على بابها، وبدأ الحرب وصوب المجانيق إلى جميع الأنحاء، فاستعد الملك شمس محمد الجوزجانى والملك تاج الدين القزوينى والأمراء الآخرون الذين كانوا فى المدينة للحرب.

ولكن يروى الثقات أن كل حجر منجنيق كانوا يصوبونه من المدينة على جيش المغول كان يذهب فى الهواء ويرتد ثانية داخل المدينة (والتى كان السلطان محمد خوارزم شاه قد قاتل على بابها مدة أحد عشر شهرا حتى تم له فتحها) وأقام جيش المغول هناك مدة ثمانية أيام، واستولوا على تلك المدينة التى كانت كسد الإسكندر، وقتلوا الناس.

وقد روى الثقات أنه تم إحصاء ستمائة ألف شهيد فى ربع المدينة، وعلى هذا الحساب يكون قد استشهد من المسلمين فى أطراف المدينة الأربع مليونان وأربعمائة ألف شخص. رضى الله عنهم ورضوا عنه.

وحينما عزم تولى على العودة، أطلق سراح بعض هؤلاء الأسرى، ونصبهم للحراسة، ثم انصرف، وأمر بتعمير المدينة. ليبق الحق تعالى سلطان الإسلام.

قصة

توجد قصة من أحداث ذلك الزمان تليق بهذا المقام وهى:

"فى شهور سنة اثنتين وعشرين وستمائة، سافر كاتب هذه الطبقات منهاج ابن سراج وهوداعى دولة السلطان المعظم برسالة من غور بناء على طلب الملك السعيد ركن الدين محمد عثمان المرغنى طاب ثراه إلى قهستان من أجل إصلاح طريق القوافل وأمن البلاد.

وحينما وصل إلى مدينة قاين، رأى هناك إماما من جملة أكابر خراسان، كان يسمى القاضى وحيد الدين فوشنجي رحمه الله، وقد روى ذلك الإمام: "كنت فى واقعة مدينة هراة، وكنت أتدرع بالسلاح كل يوم مع المجاهدين، وأذهب إلى قمة الحصن، وأرتدى لباس الفروسية، وذات يوم ووسط الحرب وضوضائها، كنت فوق حصن مدينة هراة بسلاح تام من الخوذة والدرع وغيرهما، وفجأة زلت قدمى من فوق الحصن، فوقعت بجانب الخندق، وكنت أتدحرج فوق التراب مثل أحجار الجبال، وكان يحيط بى ما يقرب من خمسين ألف مغولى كافر، يرفعون أيديهم بالسهام والحجارة وأخذت أتدحرج حتى وقعت بين جيش الكفار، وأسرت على يد جماعة كانت تقاتل بالقرب من حائط القلعة فوق التراب ووسط الخندق.

وحدث ذلك لى فى مكان كان تولى بن چنگيزخان قد أقام خيمته أمامه بجوار الخندق، وكان جيش المغول يحارب أمامه وعلى الرغم من أننى قد نزلت من الحصن متدحرجا على التراب بمقدار عشرين ذراعا (وكان هناك أربعون ذراعا أخرى حتى قعر الخندق) فإن الحق تعالى حفظنى بعصمته فلم يصبنى أى جرح، ولم أتعب، ولم يكسر أى عضومن أعضائى، وحينما وصلت إلى الأرض، أرسل تولى على الفور جماعة، وقال لهم: "أحضروا هذا الشخص حيا ولا تمسوه بأى أذى ". وبناء على ذلك الأمر، عندما حملونى إلى تولى، نظر إلى وقال: " انظروا إذا كان قد أصيب بأى جرح؟".

فجاء مغولى وفحصنى، وقال لتولى خان:" لم يصب بأذى. "ولما لم تكن بى إصابة، فقد قال تولى: "أى شخص أنت، أنت من جنس البشر أم الجن أم الملائكة أم تحمل تعويذة من أسماء الله العظيم. اصدقنى القول، ما حقيقة الأمر؟." فقبلت الأرض بين يديه وقلت: " أنا إنسان مسكين من طائفة العلماء والدعاة، ولكن كان يوجد شيء معى. قال: ماذا كان معك؟ سجدت على الأرض وقلت؛ لأن نظرك وأنت ملك كان معى، وبهذا الحظ بقيت فى الأمان".

فأعجب تولى بكلامي ونظر إلى بعين الرضا وقال: "إن هذا الشخص رجــل عاقل وعالم يليق بخدمة چنگيز خان، فيجب العناية به حتى يرســل إلــى الخدمــة هناك، وأمر فأودعونى لدى واحد من المغول المحترمين، وعندما انتهى من فــتح مدن خراسان اصطحبنى معه إلى خدمة چنگيزخان، وقص عليه القصة.

وقد حظيت بقرب تام فى خدمة چنگيزخان، وكنت دائما ملازمــا لبلاطــه، وكان يسألنى دوما عن أخبار الأنبياء وسلاطين العجم والملوك السابقين قائلا: "ألــم يخبر الرسول محمد- عليه السلام- العالم قط عن ظهورى وفتوحاتى؟" فسردت له الأحاديث التى رويت عن خروج الترك فقال: "إن قلبى يشــهد علــى أنــك تقــول الصدق".

وذات يوم، سألنى أثناء الكلام: " هل سيخلد اسمى فى الدنيا؟ بسبب الانتقام من محمد اغرى". ويقصد السلطان محمد خوارزم شاه (واغرى فى اللغة التركيــة بمعنى لص) وكان يقول دوما إن خوارزم شاه لم يكن ملكا، بل كان لصــا؛ لأنــه لوكان ملكا لما قتل رسلى وتجارى الذين جاءوا إلى أترار؛ لأن الملوك لا يقتلــون الرسل والتجار.

والخلاصة أنه حينما سألنى: "هل سيخلد اســمى؟" قبلــت الأرض وقلــت: "لوأعطانى الخان الأمان سأتكلم." قال: "أمنتك". قلت:" يخلد الاسم فى المكان حينما يكون عامرا بالناس، ولما كان عبيد الخان قد قتلوا الناس جميعا، فكيف يبقى الاسم؟ ومن سيقص هذا التاريخ؟".

وحينما أكملت هذا الكلام، ألقى بالسهم والقوس وكانا فى يديــه، وغضــب غضبا شديدا وأشاح بوجهه عنى وأعطانى ظهره.

ولما شاهدت آثار الغضب على ناصيته غير المباركة، فقدت الأمل في النجاة، واستولى على اليأس من الحياة، وقلت لنفسي بيقين: "لقد حان وقت منيتك، وسوف تذهب من الدنيا بضربة سيف هذا الملعون".

وبعد أن انقضت ساعة، التفت إلي وقال: "كنت أعتقد أنك رجل عاقل وذكي، وقد ثبت لي بهذا الحديث أنك لا تتمتع بعقل راجح، وأن تفكيرك لا يعتد به كثيرا، فالملوك في العالم كثيرون، وفي كل مكان وطئته أقدام خيل جيش محمد اغرى جعلته خرابا ودمارا، أما باقي الناس الذين يوجدون في أنحاء الدنيا وفي ممالك الملوك الآخرين فسوف يقصون قصتي".

ولهذا السبب لم يعد لي عنده قربة، فابتعدت عنه ،وهربت من بين الجند، وحمدت الله تعالى على هذا، وأثنيت عليه ونجوت من هناك. ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢٢).

ذكر ولاية خراسان وأحداثها مرة ثانية

حينما هزم السلطان جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه جيش المغول على حدود پروان بين باميان وغزنين عدة مرات، توجه إليه چنگيزخان، قادما إلى ناحية السند، بينما كان خبر انتصار جلال الدين قد ذاع في مدن خراسان كافة، حيث قتل شحنة المغول في كل مدينة وقصبة أينما كانوا، وظهر المنتصرون في كل مكان.

وبعد أن هزم چنگيز خان السلطان جلال الدين على شاطئ نهر السند، أرسل ساوربهادر مع أكتاي إلى غزنين حيث خرب أكتاي تلك المدينة، وأخرج الناس منها، وقتلهم وأسر البعض.

أما چنگيزخان فقد ذهب من شاطئ نهر السند فى إثـر إغـراق المسـلمين (وكانوا جيشا جرارا ورجالا لا حصر لهم) إلى ناحية كيرى ، حيـث فـتح قـلاع كيرى وسفوح الجبال وقتل المسلمين، وأقام فى ولاية كيرى مـدة ثلاثـة شـهور، وأرسل من هناك رسلا إلى السلطان السعيد شمس الدنيا والدين (طاب ثراه) وكـان ينوى أن يحضر الجيش إلى الهند، ويعود من طريق قراجل وكامرود إلـى أرض الصين، ولكنه كلما كان يستكشف الغيب بحرق الكتف[٢٣]. والنظر فيه، لـم يكـن يسمح له أن يأتى إلى بلاد الهند.

حتى أخبر الرسل من ناحية طمغاج وتنكت چنگيزخان بأن خانـات تنكـت وطمغاج قد شقوا عليه عصا الطاعة، وأن تلك البلاد قد أوشكت على أن تخرج من يديه، فعاد مضطرا من سفوح جبال كيرى، وكان الجليد قد غطـى تلـك الجبـال جميعها، فأمر بأن يزيلوا الثلوج، وعاد عن طريق جبال بلاد غزنين وكابـل إلـى ناحية تركستان وكاشغر.

وفى الشتاء نفسه أرسل چنگيزخان أكتاى من كيرى مع جيوش المغول إلى غور وخراسان، وجاء أكتاى إلى مكان بين غور وغزنين ويسمى پـل آهنگـران بالقرب من فيروزكوه وعسكر هناك.

وتوجه سعدى چربى ومنكده چربى وعدد من القادة الآخرين مع جيش جرار إلى سيستان، ووجه ابكه نوئين وكان من رجال المنجنيق التابعين لچنگيزخان الذى كان لديه فى جنده عشرة آلاف من رجال المنجنيق إلى قلعة اشـيار بغرجسـتان، ووجه الجى نوئين إلى جبال غور وهراة.

والخلاصة أنه أرسل شحنة وجيوشا إلى كافـة أنحـاء غـور وخراسـان وسيستان، وقد قاتلت تلك الأفواج والجيوش المغولية التى توجهت إلى تلك الأنحـاء طوال الشتاء.

ولما وصل خبر قتل الشحنة إلى جنگيز خان قال: " لقد قتلت هؤلاء الناس فمن أين عادوا؟". وفى هذه المرة صدر الأمر بأن يفصلوا رءوس الناس عن أجسادهم حتى لا يبقوا على قيد الحياة.

وعلى هذا خربوا مدن خراسان بأسرها مرة أخرى، وتقدم الجيش الذى كان قد ذهب إلى باب سيستان، واستولى على المدينة عنوة، ونشب القتال فى كل حى وفى كل منزل، حتى أسروا الناس؛ لأن مسلمى سيستان حاربوا جميعا نساء ورجالا، صغارا وكبارا بكل ما أتيح لهم من الخناجر إلى السيوف، حتى قتلوا جميعا، واستشهدت النساء كافة.

أما هراة التي كان الجيش قد توجه إلى بابها؛ فقد كان بها سيد (كما سبق ذكر ذلك) يسمى الخواجه فخر الدين عبد الرحمن العبرانى، ويعرف بالصراف، وكان عظيم الثراء وافر الاحترام، فى هذه المرة استطاع الصراف الاحتفاظ بمدينة هراة عدة أيام، وكان الملك مبارز الدين السبزوارى قد جاء من قلعة فيروزكوه إلى هراة مهزوما، فعينوه قائدا للجيش.

وكما رووا أنه حينما فتحت هراة فى هذه المرة كان الملك مبارز الدين رجلا مسنا وذا منظر حسن، فامتطى جواده وسط المدينة، وتدرع بالسلاح والرماح، وأمسك بالدرع والحربة، وظل يكافح حتى استشهد. والله أعلم بحقائق الأحوال.

ذكر فتح قلعتى كاليون وفيوار على يد المغول

حينما انتهى المغول من أمر هراة وخربوها، انقسم جيشهم إلى فوجين، الفوج الأول ذهب إلى سيستان وعلى رأسه سعدى جربى والقواد الكبار الآخرون، والفوج الآخر جاء إلى قلعة كاليون، وعسكر أمامها.

وقلعة كاليون منيعة، ولا يوجد مكان فى الدنيا فى استحكامها، سواء فى العلو والرفعة أو فى الحصانة والقوة، وقد أجمع كلام الكتب وأساتذة العالم فى المسالك والممالك، وذكروا فيما يتعلق بتلك القلعة أنها " أحصن حصون الدنيا وأحسنها "

وكان يجب على السائر من مدينة هراة حتى حرم قلعة كاليون أن يقطع عشرين فرسخا صعودا حتى يصل إلى تلك القلعة. وحينما يقترب منها يجب أن يصعد فرسخا آخر ليصل إلى قاعدتها الحجرية، حيث إن سور القلعة قائم فوق هذا الحجر، الذى يقدر ارتفاعه بمقدار ألف ذراع أو أزيد.

وسطح هذا الحجر مثل حائط بحيث إنه لا يمكن أن يتسلقه أى مخلوق إلا الحشرات الأرضية. ويوجد فوق هذا الحجر فناء على مسافة رمية أربعة أسهم أوما يزيد، وقد حفروا سبعة آبار للماء فى تلك القلعة فى حجر صلد، وماء كل واحدة منها غزير بحيث لا ينقص إنتاجها أبدا، وكان فى وسط القلعة ميدان كبير جدا.

وكان ولدا أبى بكر من مقاتلى السلطان محمد، وهما بطلان مشهوران، بطلان شديدى البأس ومحاربان، وكانا يحرسان تلك القلعة. وقد روى الثقات: أن هذين الأخوين كانا مشهورين بالرجولة والفداء، وكان كل منهما طويل القامة بدرجة مفرطة، بحيث إنهما عندما كانا يمسكان بركاب السلطان محمد كانا يفوقان السلطان محمد طولا.

وفى أثناء تلك الحوادث كان اختيار الملك دولت يار طغرائى(وهو واحد من قادة الممالك الخوارزمشاهية)، ممن قدموا أيضا إلى تلك القلعة، بحيث إنه حينما جاء فرسان الكافر إلى كاليون، كان فى القلعة رجال كثيرون وأسلحة عديدة.

وكان محمد خوارزم شاه قد حاصر تلك القلعة وقلعة فيوار التى تقع أمامهـا لمدة عشر أو إحدى عشرة سنة، حتى تم له الاسـتيلاء عليهـا، وملأهـا بالرجـال والسلاح والذخيرة.

وحينما بدأ الحرب مع الكفار، نزل المجاهدون والفدائيون من القلعة وبـدأوا الجهاد، وقتلوا كثيرين من المغول، وانشغلوا بالقتال ومقاومة الكفار ليلا ونهارا.

وقد وصلت شجاعة أهل القلعة إلى درجة أن جيش المغول لم يكن يتيسر له النوم ليلا خوفا منهم ، وقد أقام الكفار حصنين حول القلعة ووضعوا بـوابتين فـى مقابل باب القلعة والحصن، وعينوا رجالا للحراسة فى الليل.

وقد روى الثقات: أن ثعلبا قد بقى داخل حصن المغول أسفل قاعـدة قلعـة كـاليون الحجرية لمدة سبعة أشهر، ولم يكن هناك طريق لذلك الثعلب يخرج منه؛ إذ أحكم المغول حراستهم حتى بلغت هذه الدرجة.

وحينما انقضت مدة عام على محاصرة القلعة، جاء سعدى چربى مع جـيش المغول من باب سيستان إلى خراسان، وانضم مع بقية الجيش المغـولى الموجـود أمام قلعة كاليون، واستولى المرض والوباء على أهل القلعة.

وهلك أكثر الناس بسبب أن مؤن القلعة من اللحم المجفف والفسـتق كانـت متوفرة، ولا غرو ففستق خراسان كله من أنحاء كـاليون، فكـان أهـالى القلعـة يمرضون بسبب أكل اللحم المجفف والفستق وزيته، وكانـت أرجلهـم ورءوسـهم تتورم ويموتون.

ولما انقضت مدة ستة عشر شهرا على محاصرة القلعة، لم يبق مـن تلـك الطائفة أكثر من خمسين شخصا، عشرين منهم مرضـى ذوى أرجـل متورمـة، وثلاثين شخصا أصحاء.

وحدث أن خرج واحد من تلك الطائفة، وذهب إلى جيش المغول، وأخبرهم بوضع القلعة وحال أهلها. فلما تحققت طائفة الكفار من حال أهل القلعة، استعد الجيش المغولى بأسره بأسلحته وتوجه إلى القلعة.

وطاب قلب أهل القلعة للشهادة، فألقوا كل ذخائرهم من ذهب وفضة وأثواب ثقيلة وكل ما له قيمة فى آبار القلعة، وسدوا الآبار بأحجار ثقيلة، وأحرقوا ما تبقى بالنار، وفتحوا باب القلعة، واستلوا السيوف، وهجموا على الكفار ونالوا الشهادة.

وحينما فتحت قلعة كاليون، جاء جماعة الجنود الذين كانوا أمام قلعة ولخ بطخارستان مثل طولان چربى وأرسلان خان قيالق وأفواج جيش المغول إلى ساحة قلعة فيوار قادس بناء على أمر چنگيزخان.

وقلعة فيوار هذه أقوى من قلعة كاليون فى الحصانة والمتانة والاستحكام، وهى محكمة لدرجة أنه كان يمكن حراستها بعشرة رجال.

والمسافة بين قلعة فيوار وكاليون عشرة فراسخ، بحيث كانت كل من القلعتين تشاهد الأخرى، فلوحدث أن جاء فارس غريب أمام قلعة كاليون، كان الاتصال يتم بين القلعتين بالدخان نهارا وبالنار ليلا، فيعلم أهل قلعة فيوار بما يحدث فى قلعة كاليون، ولو حدث أن أتى الفارس الغريب بالقرب من فيوار، كان يحدث أيضا الشيء نفسه.

وقد أقام طولان چربى وأرسلان خان قيالق مدة شهرين أمام قلعة فيوار، وضاق الأمر جدا على الجنود بسبب قلة المؤنة، فكانوا يحضرون لهم ما يقيمون به أودهم من ذخائر قلعة كاليون، حتى يستطيعوا أن يقيموا فى أنحاء تلك القلعة عدة أيام.

إلى أن نزل شخص من قلعة فيوار وسط جيش طولان چربى، وأخبر عن حالة سكان القلعة وبأنهم قد هلكوا جميعا، ولم يبق منهم أكثر من سبعة رجال أحياء، ويوجد أربعة أوخمسة مرضى أيضا من هؤلاء السبعة. عندئذ تدرع الكفار

بالسلاح، واستولوا على القلعة، وقتلوا هؤلاء الرجال السبعة .رضى الله عنهم ورضوا عنه.

وكانت هذه الأحداث فى أواخر شهور سنة تسع عشرة وستمائة، وكان هذا هوحال هاتين القلعتين اللتين لم يكن فى خراسان والغور أحكم منهما كما ذكرنا .

ليبق الحق تعالى سلطان سلاطين الإسلام على عرش الملك حتى انقراض العالم، ويخلده.

ذكر حوادث غور وغرجستان وفيروزكوه

أما مدينة فيروزكوه فقد كانت عاصمة لسلاطين الغور، قدم إلى بابها اقلان جربى مع جيوش المغول فى شهور سنة سبع عشرة وستمائة ، وحارب المغول بشدة مدة عشرين يوما ونيف، وعادوا دون تحقيق هدفهم.

وحدث أن اختلف أهالى فيروزكوه مع الملك مبارز الدين سبزوارى، وثاروا عليه، فصعد مبارز الدين إلى القلعة مضطرا، وكانت تلك القلعة تقع فى الشمال الشرقى للمدينة على رأس جبل عال وشامخ. وفى عهد سلاطين الغور لم يكن فى ذلك الموضع أكثر من قصر كبير يتعذر سير الدواب إليه.

ولكن فى هذا العهد، كان الملك مبارز الدين سبزوارى قد عمر تلك القلعة، وأقام حصنا فوق قمة ذلك الجبل، ومهد الطريق بحيث كانت الإبل المحملة بالأحمال تسلكه فى طريقها إلى القلعة، وبذلك أمكن أن يقيم بها آلاف من الرجال.

وحينما وقع الخلاف بين أهل مدينة فيروزكوه وبين الملك مبارز الدين سبزوارى، صعد مبارز الدين إلى القلعة، فكتب أهل المدينة رسالة إلى الملك قطب الدين حسن (طاب ثراه) واستدعوه للمجىء، فرحل الملك قطب الدين مع

جيش الغور فى فيروزكوه، ونصب ابن عمه(الملك عماد الدين زنگى بعلى) على فيروزكوه. وكان هذا الأمر فى شهور سنة ثمانى عشرة وستمائة.

وحينما جاء جيش الكفار من غزنين مع أكتاى متجهين إلى الغور، هاجموا جيش فيروزكوه فجأة ، وقتلوا الملك عماد الدين زنگي فى شهور سنة تسع عشرة وستمائة، وقضوا على أهالى المدينة، فخرج مبارز الدين سبزوارى من القلعة، وذهب إلى هراة، حيث استشهد هناك، وصارت مدينة فيروزكوه كلها خرابا.

أما قلعة تولك فقد كان الملك مبارز الدين حبشى نيزه ور ملكا عليها من قبل السلطان محمد خوارزم شاه (طاب ثراه) فهى قلعة معلقة لاتتصل بأى جبل، تم بناؤها فى عهد منوچهر، وكانت ملكا لآرش قاذف السهام، ويوجد فوق هذه القلعة منازل بين الأحجار الصلدة تسمى المنازل الآرشية، وكان الأمير نصر التولكى قد أوصل الماء عن طريق بئر إلى تلك القلعة، وكانت البئر بمقدار عشرين فى عشرين ذراعا فى حجر صلد ، لا يقل ماؤها أبدا ولا تتصل بمعبر. وقلعة تولك قلعة محكمة جدا تقع بين غور وخراسان.

وحينما جاء السلطان إلى باب بلخ، عاد حبشى نيزه ور مع جيش تولك إلى بلخ، والتحق بخدمة البلاط العالى، وصدر إليه الأمر بأن يعود إلى تولك ويرتب أمر القلعة، ويستعد لحرب المغول.

وبعد أن عاد فى أوائل سنة سبع عشرة وستمائة، جاء فرسان المغول عدة مرات إلى شمال القلعة، وطافوا فى أنحائها، وفى شهور سنة ثمانى عشرة وستمائة قدم فيقونوين صهر چنگيزخان إلى قلعة تولك ومعه أربعون ألف فارس مغولى وقوات أخرى من الجيش.

وقد قبل حبشى نيزه ور دفع الخراج للمغول، ونــزل مــن القلعــة، وقــدم لفيقونوين فروض الطاعة، وعاد حبشى إلى القلعة وفرض على أهل تولــك ذلــك المال الذى كان قد تعهد به، وجمعه بعنف.

وكان حبشى نيزه ور هذا فى شبابه وأول عهد السلطان محمد خوارزم شــاه رجلا فريدا، وكان من نيسابور ويعمل إسكافيا، ولم يكن هناك رامى رمح مثله فى خراسان وخوارزم، وقد سمع منه مرات كثيرة هذا القول: " لونمت على ظهــرى فوق الأرض وأمسكت بعصا فى يدى، فإنى أستطيع أن أدفع عــن نفســى أربعــة رجال من حملة الحراب".

وخلاصة القول أنه كان رجلا عظيما ونبيلا، له خيرات كثيرة وصــدقات لا حصر لها، إلا أن أهل تولك قد غضبوا عليه فى ذلك الوقت بسبب عنفه فى جمــع الأموال، ورأوا فى المطالبة بها إجحافا بهم، وقد نظم واحد من الأفاضل فى ذلــك الوقت شعرا نذكره لطرافته، وحتى يقرأه ملك الإسلام، ويدعولأهالى بلاد تولــك. يقول الخواجه الإمام جمال الدين الخازنجى رحمة الله عليه:

قلت يا حبشى نيزه ور! ما هذا الخسران؟

ولماذا هذا التعذيب والحبس لأهالى تولك؟

قال أنا إسكافى وكلب فيقو

والكلب والإسكافى يعلمان ما يوجد داخل الجراب.

رحم الله الماضين منهم، وأدام الدولة السلطانية.

وحينما اتفق أهل تولك من الجنود والرعايا على استرداد القلعة من حبشــى، ثاروا عليه، وأسروه وسلموه هو وقلعة تولك للملك قطب الدين حتى يعتقله، فجــاء الملك قطب الدين إلى تلك القلعة وعين ابنه الملك تاج الدين محمد حاكما لها.

وكان خال هذا الكاتب منهاج بن سراج واسمه القاضى جلال الــدين مجــد الملك أحمد عثمان حاكما على نيسابور، وكان خواجه وصاحب نفوذ. وحينما وقــع حبشى نيزه ور فى يد الملك قطب الدين حبسه فترة. وفى النهاية سمح له بالــذهاب إلى قلعة فيوار، وهناك قبض عليه ملك القلعة أصيل الدين النيسابورى وقتله.

وبعد أن سقطت قلعة كاليون فى أيدى الكفار، اتفق خمسة عشر قائــدا مــن أهل قلعة تولك، وكان أهل القلعة جميعا من أقارب الخواجه جلال الدين، وقتلوه فى شهور سنة سبع عشرة وستمائة، وأعادوا ابن الملك قطب الدين إلى والده، وجاهدوا الكفار ببسالة مدة أربع سنوات.

وكان هذا الكاتب وهو منهاج بن سراج مشتركا مع أهل تولك فــى الجهــاد طوال الأربع سنوات هذه، وكانوا جميعا أقرباء وأخوة. وفى النهاية نجا من أيــدى الكفار. وحينما عصى أهل تولك الملك قطب الدين، اتجه الملك قطب الــدين إلــى الهند فى سنة عشرين وستمائة، وبقيت قلعة تولك سالمة.

وبعد ذلك سافر الكاتب حاملا رسائل إلى قهستان مرتين، المرة الأولى كانت فى سنة إحدى وعشرين وستمائة والمرة الثانية فى سنة اثنتين وعشرين وســتمائة. ثم ذهب فى شهور سنة ثلاث وعشرين وستمائة إلى الملك تاج الدين ينالتگين مــن قبل الملك ركن الدين خيسار، وذهب فى هذه السنة أيضا برسالة من قبل تاج الدين إلى ملك قهستان فى ناحية نيه بسيستان ،وبعد ذلك قدم إلى أنحاء الهند.

وجاء تاج الدين ينالتگين إلى تولك، فقدم له أهل القلعة فــروض الطاعــة، وصحبهم إلى سيستان، واستشهدوا جميعا فــى حادثــة سيســتان، والقــوم الــذين ظلواهناك هم أبناء أمير تولك هزبر الدين محمدابن مبارك الذى توجه إلى كيــك خان، ولا زالوا يحكمون تلك القلعة حتى اليوم والسلام.

ذكر حوادث قلعة سيفرود

قلعة سيفرود بغور هى أقوى قلاع الجبال، وكان السلطان بهاء الدين محمد ابن سام بن حسين والد السلطانين غياث الدين ومعز الدين (طاب ثراهما) قد بنى تلك القلعة.

وحينما ذهب السلطان محمد خوارزم شاه من بلخ إلى مازندران، أمر بأن يعمر الملك قطب الدين تلك القلعة، وكان الوقت ضيقا، فلم يستطع أن يبنى أكثر من حوض واحد فوق القلعة.

وبعد هذا بشهرين، حدث أن جاء (وبأمر الله) جيش المغول، فلم يبق مجال للبناء، فجمع فى ذلك الحوض ماء يكفى مدة أربعين يوما لأهل القلعة. وبدأ جيش المغول فى مهاجمة أنحاء غور، ووقعت ماشية الغور كلها من جميع الأنواع فى أيدى الكفار، واستشهد من أهل غور ما يساوى نسبة أربعة دوانق [٢٤] من الدرهم.

وقد التجأ الملك قطب الدين مع جيشه إلى تلك القلعة، وتوجه منكوته نوين وقراچه نوين والبرنوين بجيوش جرارة إلى هناك. وحينما علم المغول أن أهل القلعة عندهم ماء قليل، أقاموا معسكرهم أمام قلعة سيفرود، وبدأوا الحرب، وقد حاربوا تلك القلعة بعنف مدة خمسين يوما، فاستشهد من الجانبين مسلمون كثيرون، كما ذهب العديد من الكفار إلى الجحيم.

وكان فى القلعة ماشية كثيرة، فذبحوا ما يكفى لعمل لحم مجفف ، ونفق الباقى (الذى كان يقدر بأربعة وعشرين ألف وأربعمائة رأس ونيف) نتيجة لعدم وجود الماء، وألقوا بها جميعا من سور القلعة فوق الأرض أسفل القلعة، فغطت وجه القلعة القائمة فوق الجبل تماما، بمسافة أربعين ذراعا من الحيوانات الميتة، بحيث لم يكن يظهرذراع واحد من الجبل.

ثم صدر الأمر إلى أهل القلعة بأن يعينوا لهم قدرا من الماء والمؤونة كل يوم: فكان للرجل الواحد ما يساوى نصف من من الماء وستة عشر رطلا من الطعام، وكان مقرر الملك منا واحدا من الماء، نصفه للشرب ونصفه للوضوء، ولم يبق فى القلعة أى حصان إلا جواد الملك الخاص، فكان يتم جمع ماء وضوء الملك فى طشت أمام الحصان حتى يشربه.

وحينما انتهت مدة الخمسين يوما، أعلنت الجماعة التى كانت قد عينت لحراسة حوض الماء، بأنه لم يبق فى الحوض من الماء أكثر من مؤونة يوم واحد، فخرج شخص من القلعة وأخبر جيش المغول بهذا الوضع.

وحينما شاهد الملك قطب الدين هذا الوضع، جمع رجال القلعة لصلاة العصر، وأمرهم بأن يقتلوا كل الأطفال والنساء بأيديهم فى صباح الغد، وأن يفتحوا باب القلعة ويختفوا فى أنحائها الداخلية بسيوفهم المسلولة، حتى إذا ما دخل الكفار القلعة، يهاجمونهم بقلب واحد ، ويوجهون إليهم سيوفهم، ويتلقون الضربات، حتى يستشهدوا جميعا.

فتعاهد الجميع على هذا الأمر، واستسلموا للشهادة، واستقر هذا الأمر فى نفوسهم جميعا، وصار الواحد منهم يودع الآخر.

وعند صلاة المغرب، فتح الحق تعالى وتقدس باب الرحمة، وأرسل السحب بكمال كرمه حتى منتصف الليل، فأمطرت أمطار الرحمة ونزل الجليد على أسطح الجبال وأنحائها وأطرافها، بحيث كان يصدر من جيش الكفار ومجاهدى القلعة مائة ألف صيحة وبكاء من التعجب بسبب عناية البارئ تعالى هذه.

وتناول أهل القلعة (الذين كانوا قد فقدوا الأمل من حياتهم، ويئسوا من الدنيا، وتحملوا العطش مدة خمسين يوما، ولم يتناولوا شربة ماء بارد فى تلك المدة) ثلجا

كثيرا من وراء الخيام والحجرات والمطابخ ، بحيث ظل الدخان يخرج من حلوقهم مع لعابهم لمدة أسبوع .

وحينما رأى جند المغول المدد الإلهى، وشاهدوا عناية الخالق تعالى، علموا أن أهل القلعة قد جمعوا ذخيرة من الماء لمدة شهر أوشهرين، حيث وصل فصل الخريف إلى نهايته، مؤكدا يقينا مجيء الشتاء وموسم نزول الجليد.

وبناء على هذا رحلوا فى اليوم التالى عن حرم القلعة، وذهبوا إلى الجحيم، حتى حلول العام التالى سنة ثمانى عشرة وستمائة، حينما جاءوا مرة أخرى من خراسان وغزنين وسيستان إلى جبال الغور.

فبعد حادثة السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه جاء فوج من جيش المغول بعتاد كامل من فرسان ورجالة وأمراء لا حصر لهم إلى ساحة قلعة سيفرود، وعسكروا وبدأوا الحرب. ولما كان الملك قطب الدين قد اغتنم الفرصة، وبنى أحواضا، وجمع غلة احتياطية وافرة، فقد قاتل المسلمون المغول ببسالة، وبذلوا جهدا كبيرا.

وكلما كان الكفار يزيدون فى الجد والجهد، كانت القلعة تصير أقوى، والمجاهدون أكثر شجاعة. وفى هذه المرة حارب المغول شهرين آخرين، وحاصروا القلعة، ولم يستطيعوا فتحها بأى طريقة.

بعد ذلك لجأ الكفار إلى المكر والخداع، ودخلوا من باب الصلح، وأذاعوا حديث الاتفاق، ولأن الناس كانوا قد ذاقوا مشقة الحصار مدة طويلة، فقد رضوا بالصلح طمعا فى الذهب والأثواب والماشية الرخيصة، وكان الملك قطب الدين يحذر الناس كثيرا من الصلح مع الكفار، ولكن الناس بسبب عجزهم ولأن الموت كان قد حصد البعض منهم، فلم يكن لذلك التحذير أى جدوى لديهم.

وفى النهاية تم الصلح على أن يأتى أهل القلعة لمـدة ثلاثـة أيـام وسـط المعسكر، ويحضروا البضاعة التى لديهم ويبيعوها، ويأخذوا ثمنها ذهبـا وفضـة، وأن يشتروا ويبيعوا كل ما يجب من ماشية وأثواب وفراء.

وبعد ثلاثة أيام رحل جيش المغول من أمام القلعة عنـدما تقـرر الصـلح، وحمل أهل القلعة البضاعة التى لديهم كلها إلى معسـكر الملاعـين، وتـم البيـع والشراء مدة يومين حسب الاتفاق، ولم يضايق أى واحد مـن المغـول الكـافرين وغيرهم شخصا قط.

ولما أقبلت الليلة الثالثة اختفى رجال الكفـار المسـلحين تحـت الأحجـار والأثواب وسروج الدواب وفى المضايق القديمة. وحينما حل صباح اليوم الثالـث، نزل الناس واختلطوا معهم وسط المعسكر.

وفجأة دقت الطبول وارتفعت الصيحات، وأمسك كـل مغـولى كـافر ومرتـد بالمسلم الذى كان يبيع ويشترى معه وقتله، إلا من وهبـه الله تعـالى الحيـاة، وكـل شخص كان يظهر سلاحا أوخنجرا، كانوا يجردونه من سلاحه أولا ثم يقتلونه .

وفى هذا الصدد توجد عبرة وحديث للمتأملين والقراء وهى: أنه كان هنـاك قائد نيسابورى، يسمى فخر الدين محمد أرزير وكان مقاتلا ممتازا وشجاعا، ومن جملة خدم حبشى نيزه ور، وحدث أن جاء فى ذلك الوقت إلى قلعة سيفرود لخدمة الملك قطب الدين، وكان من بين الذين ذهبوا وسط جيش المغول، ليشترى ويبيع، وكان يحتفظ بخنجر فى ساق حذائه، وحينما أراد المغولى الذى كان يتعامل معه أن يمسك به، أمسك فخر الدين بالخنجر، وسحبه من ساق الحذاء، فكف ذلك المغـولى يده عنه، ومضى فخر الدين إلى الجبل، وعاد سالما إلى القلعة.

والعبرة من إيراد هذه الحادثة هى أنه يجب على الرجل فى جميع الأحوال ألا يغفل أمرحراسة نفسه، خاصة فى الموضع الذى يحادث فيه خصما أويجالس عدوا، فعليه أن يحافظ على حزمه، فلا يأتى لأمر بدون سلاح، ثم يتوقف الأمر على عصمة الله تعالى لمن يشمله بحفظه.

وقد روى الثقات: أن مائتين وثمانين رجلا معروفا من القواد المقاتلين أسروا على يدِ كفار المغول، وهكذا أصابت عين السوء أهل الإسلام بسبب الغفلة فلم يكن هناك أى منزل ليس به مأتم.

وبعد أن وقعت هذه الحادثة أرسل قواد المغول رسلا إلى قطب الدين، وقالوا له ليعد رجالك مرة ثانية إلى الشراء، فلم يوافق الملك قطب الدين.

وفى اليوم التالى وحينما علم المغول أن هذا الغدر لن يؤثر فى أهل القلعة قيدوا جملة أسرى المسلمين فى مجموعات، وأخذوا يقتلونهم عشرات عشرات وخمس عشرات بضرب السيوف وقذف الأحجار وطعن الخناجر، حتى قتلوهم جميعا رضى الله عنهم.

وفى اليوم الثانى استعد أهل القلعة للحرب، وكان الملك قطب الدين قد أمر فى الليلة السابقة برفع كل الأحجار الثقيلة حول التراب المحيط بالقلعة على وجه الجبل وفعل هذا بحيث تنزلق الأحجار وتتدحرج من مكانها بأقل حركة.

وكانوا قد سحبوا ما يزيد عن مائة حجر طاحونة ورحى فوق الأخشاب الثقيلة، على رأس كل لوح خشب رحى منزلية، وربطوا تلك الأخشاب بحبال فى فتحات القلعة، وقسم جميع أهل القلعة إلى قسمين: نصف على قمة الحصن يختفى خلف الفتحات، ونصف خارج القلعة تحت السور خلف الأحجار، وكان قد أمر بألا تدق الطبول وألا يظهر أى شخص نفسه، فاستعدوا على هذا الأساس.

وفى الفجر توجه جيش الكفار دفعة واحدة من صغير وكبير مـن المغـول الكفار المرتدين وهم بكامل أسلحتهم من المعسكر إلى القلعة، ولمـا كـان الـذين صعدوا يزيدون عن عشرة آلاف عليهم دروع من جلـد الثيـران، فقـد أعطـاهم المسلمون الفرصة لأن يتقدموا إلى القلعة ما يزيد عن مسافة رمية سـهمين، ولـم يظهر أى شخص من المسلمين.

ولما أصبحت المسافة بين الكفار والمسلمين من الأرض حتى الجبل حـوالى مائة ذراع دقت الطبول من فوق القلعة، وصاح المجاهدون والمقـاتلون والجنـود والقواد، وقطعوا الأحجار وأيادى الطواحين المربوطـة علـى الخشـب بالحبـال ودحرجوها.

وبهذا أراد الحق تعالى ألا ينجوأى شخص من جملة جيش الكفار، إما بالقتل أوالجرح، فتساقط المغول والكفرة كلهم بعضهم على بعض من فوق القلعـة حتـى أسفلها، وقتل كثيرون من أكابر قواد المغول وأبطالهم، ونهض الباقون، ونقلوهم من أمام القلعة.

كان هذا النصر بفضل الحق تعالى ووعده فى الآية الكريمة ﴿ وَكَـانَ حَقًّـا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥). وفى يوم الخميس سنة عشرين وستمائة ويـوم الأحـد الثانى عشر من الشهر المذكور، فتحوا الكمين من قلعة تولك، وحاربوا بضـراوة، وفى ذلك اليوم قتل كثيرون من الكفار أسفل تولك وانسحبوا.

وعندما عاد كفار المغول من خراسان، وخلت جبال الغور وخراسـان مـن تلك الجماعة، سافر الملك قطب الدين إلى الهند مع ملوك الغـور الآخـرين ومـع أتباعهم، كما كان يرافقه الملك سراج الدين عمر خروش من ولاية حـار والملـك سيف الدين.

وفى ذلك العام وبسبب القضاء الربانى توجه فوج من جيش كفار المغول للهجوم على خراسان، وكان على رأس ذلك الجيش مغولى عظيم اسمه " قزل منجق"، فدخلوا خراسان وجاءوا من ناحية هراة واسفزار إلى قاعدة قلعة تولك، وقتلوا وأسروا كل مسلم وجدوه فى القلعة.

ولما علم المغول بخبر ذهاب الملك قطب الدين مع ملوك الغور الآخرين وأتباعهم وجنودهم، تعقبوا جيش الغور، وأدركوا جنودهم عند شاطئ نهر أرغند، وكان الغور قد أقاموا جسرا على شاطئ هذا النهر حتى يعبر الجند والأتباع والعتاد، وفجأة لحق بهم جيش المغول، فالتجأ الملك سيف الدين بجيشه إلى سفح الجبل، فسلم من الأذى، وعاد إلى غور.

أما الملك سراج الدين عمر خروش فقد وقف للحرب واستشهد، وألقى الملك قطب الدين حسن بنفسه وبحصانه فى النهر، ونجا بحيل كثيرة، وخرج سالما مع رجال قليلين، واستشهد بقية أمراء الغور والقواد والمقاتلين والنساء، واستشهد جميع أخوة الملك قطب الدين، وبنات أخواته، ثم عاد جيش المغول من هناك وسار إلى غور وخراسان. والله أعلم.

ذكر حادثة ملوك غرجستان والقلاع الأخرى

روى الثقات: أنه حينما توجه جنكيزخان من هضبة النعمان بطالقان إلى غزنين، ترك المؤن والخزائن فى المكان نفسه؛ لأن سير العربات لم يكن ممكنا فى أعماق غرجستان ووديانها بسبب راسيات الجبال ومضايق الطرق الصعبة.

وحينما جاء جيش المغول إلى غزنين، كان مع تلك المؤونة والعربات قليل من الفرسان للحراسة، وكانت قلاع غرجستان وخراسان قريبة ، مثل قلاع: رنگ وبندار وبلروان ولاغرى وسناخانه وسنگه وأشيار، وأكثر تلك القلاع عبارة عن

فتحات فوق الجبال، بحيث إن المطريمطر على أهل القلعة، وتخرج عيون المياه من مقدمة طاقات القلعة.

وكان فى قلعة أشيار أمير من أمراء غرجستان، كان فدائيا للغاية وشجاعا، وكان اسمه الأمير محمد مرغزى. ولما كان فى معسكر المغول أموال كثيرة، وأسرى لاحد لهم وجياد تفوق الحصر، فقد ذهب محمد مرغزى بجيش جرار من قلعة أشيار، واستولى على عربات محملة بالذهب والنعم من هناك بقدرما تيسر له، وأسر كثيرين، وحرر كثيرين، واستولى على كثير من الجياد. وقد أقدم على هذا اللون من الشجاعة، وأظهر هذا الضرب من الفداء مرة واثنتين.

وحينما اتجه جنگيزخان من ولاية كيرى إلى التركستان وأرسل ابنه اكتاى إلى الغور، أقام اكتاى بين فيروزكوه وغزنين فى ذلك الشتاء، وأرسل جيوشا إلى سائر الأنحاء (كما سبق ذكر ذلك) وقد عين أبكه نوئين وكان أميرا على عشرة آلاف رجل من رجال المجانيق لفتح قلعة أشيار، فجاءت تلك الجماعة أمام القلعة، والتحموا فى القتال، وحاربوا مدة طويلة.

ولما رأوا أن الاستيلاء على تلك القلعة غير ممكن بسبب شدة استحكامها ورجالها الشجعان، بقوا مدة خمسة عشر شهرا. والله أعلم.

وقد ضاق الأمر على أهل القلعة بسبب قلة المؤونة، فما دامت المؤن واللحوم متوفرة صاروا يستهلكونها ، فلما نفدت المؤونة، وصل الأمر بهم إلى حد أنهم كانوا يأكلون لحم كل من يقتل أويموت. وقد أدى هذا إلى أنهم كانوا يحتفظون بكل شخص يموت أويقتل لأكل لحمه أوتجفيفه.

وقد روى البعض والعهدة على الراوى: أنه كانت فى قلعة أشيار مطربة لها أم وخادمة، فلما ماتت أمها جففت لحمها، وحينما ماتت خادمتها صنعت منها قديدا

أيضا، وباعت لحم الاثنتين، بحيث إنها حصلت من هاتين الجثتين على مائتين وخمسين دينارا من الذهب الخالص، وفي النهاية ماتت هي أيضا.

وحينما انتهت مدة الخمسة عشر شهرا، تبقى من أهل القلعة ثلاثون رجلا فقبضوا على محمد مرغزى، وقتلوه، وألقوا برأسه عند معسكرالمغول أملا في النجاة. فلما رأى جيش المغول ما حدث، تقدموا دفعة واحدة للحرب، واستولوا على القلعة، وقتلوا الجميع.

وفي هذه المرة فتحوا قلاع غرجستان كلها، وانتهوا من القتال بحيث فتحت جميع قلاع غرجستان في شهور سنة تسع عشرة وستمائة .

ليفتح الحق تعالى أبواب النصر والظفر لعبيد دولة السلطان ناصر الدين أبى المظفر محمد ابن السلطان بمحمد وآله .

ذكر عودة چنگيزخان إلى التركستان وذهابه إلى الجحيم

هكذا روى الثقات: أنه حينما قدم چنگيزخان إلى خراسان، كان في الخامسة والخمسين من عمره، وكان رجلا طويل القامة قوى البنية ضخم الجثة طويل اللحية، وكانت لحيته بيضاء، وله عينان تشبهان عيني القط، وكان في غاية الشجاعة والذكاء والعقل والعلم والهيبة والاستعداد للقتال، كما كان عادلا ومنظما وقاهرا للعدووشجاعا وسفاكا للدماء.

وكانت هذه الصفات واضحة لأهل العالم جميعا، فقد كانت له عدة صفات عجيبة: أولا أنه كان يتصف بالمكر والاستدراج لخصومه. ويقال إن بعض الشياطين كانت تصادقه، فكان يغيب عن الوعى كل عدة أيام، وفي ذلك الإغماء كان كل شيء يجرى على لسانه.

ومؤدى هذا الأمر، أن أول ظهور لتلك الحال عليه كان حينما أخبره ذلك الشيطان المستولى عليه عن الفتوحات، فقام جنكيز بوضع الثوب والقباء اللذين كان يرتديهما ذلك اليوم فى صندوق الملابس وختمه وكان يحمله معه. وكلما كانت هذه الحال تعرض له، كان يجرى على لسانه كل ما كان يتمناه من أحداث وفتوحات وأسفار ومواجهة الأعداء وهزيمتهم، والاستيلاء على الولايات، وكان أحد الأشخاص يسجل ذلك كله ويضعه فى مظروف يتم ختمه.

وحينما كان جنكيزخان يعود إلى وعيه، كانوا يقرءون عليه ما قاله كلمة كلمة، فكان يعمل به كله، وكان أغلبه وأكثره، بل إن كله كان يتحقق .

أما الصفة الثانية: فهى أنه كان يعتقد فى علم كتف الخروف، فكان دائما يضع عظم الكتف فوق النار ويحرقه، ويقرأ علامات الكتف على نحو يخالف علماء الكتف فى بلاد العجم الذين كانوا ينظرون فى الكتف.

والصفة الثالثة هى أن جنكيزخان كان على درجة من العدل بحيث إنه لم يكن يمكن لأى شخص فى سائر الجيش أن يلتقط سوطا واقعا فى الطريق سوى صاحبه، ولم يكن هناك شخص يكذب ويسرق بين جنده، وكل سيدة كانوا يأسرونها من خراسان والعجم لا يتزوجها أى مخلوق إذا كان لها زوج، وإذا رغب كافر فى إحدى السيدات وكان لها زوج، كان يقتل زوج تلك السيدة أولا، وعندئذ تؤول إليه. ولا يمكن أن يتأتى الكذب على لسان أى شخص منهم، وهذا المعنى يتضح فى القصة الآتية:

حكاية

فى شهور سنة ثمانى عشرة وستمائة قابل كاتب هذه الطبقات منهاج بن سراج الذى كان قد عاد من تمران إلى الغور الملك حسام الدين عبد الملك فى قلعة سنگه التى تسمى خول مانى.

وهناك وفجأة عاد أخوه الملك تاج الدين حبشى عبد الملك الذى كان يلقب بملك الغور (وقد سبق ذكره) من طالقان إلى الغور بناء على إذن چنگيزخان، وقد سمعت منه هذه الحكاية:

"حينما خرجنا من عند چنگيزخان، وجلسنا فى خيمة كان اقلان چربى الذى كنت قد جئت معه حاضرا مع عدد من القواد الآخرين، وكان أكبرهم جميعا اقلان چربى.

وحدث أن أحضروا اثنين من المغول كان النوم قد غلبهما فى الليلة السابقة، حينما كانا يقومان بالحراسة، فقال اقلان چربى: " من أحضرهما من المغول؟" فركع ذلك المغولى الذى كان قد أحضرهما قائلا: "أنا الذى أحضرتهما". قال اقلان:"ما جريمتيهما؟ " قال: " كان هذان الاثنان يعتليان جواديهما، وحينما كنت أمر وأفتش على الحراس وصلت إليهما ورأيتهما نائمين، فضربت رأس جواديهما بالسوط قائلا: إنكما مذنبان بسبب نومكما! ومضيت، وأحضرتهما اليوم".

التفت اقلان إلى هذين المغوليين قائلا: " هل كنتما نائمين؟ " فاعترف الاثنان قائلين: " نعم كنا نائمين". فأمر بقتل الأول وربط رأسه فى شعر الآخر والطواف به على جميع الجنود، ثم بقتل الآخر، فأدوا جميعا فروض الطاعة، وفى الحال نفذوا ذلك الأمر.

فبقيت مندهشا وقلت لأقلان چربى: " لم يكن هناك شاهد ولا حجة على هذين المغوليين ، فلماذا اعترفا وهما يعرفان أن جزاءهما سوف يكون القتل ؟ وإذا أنكرا كانا سينجوان من الموت. " قال اقلان چربى: " لماذا تتعجب ؟ على هذا النحوتسلكون أنتم الأعاجم وتكذبون فالكذب شيمتكم ، أما المغولى فلوكان لديه ألف روح تفتديه، لاختارالقتل ولا يكذب، ولذلك سلط الله تعالى بلاءنا عليكم".

نعود إلى السياق التاريخى: حينما ذهب چنگيزخان إلى كيرى فى إثر الإغراقيين بعد هزيمة السلطان جلال الدين منكبرتى، ظل يقيم فى تلك القلعة الجبلية مدة ثلاثة أشهر، وكان يذهب إلى الصيد، ويحرق الكتف لمعرفة وقت غزوالهند، فلم يسمح له بالذهاب، ولم ير علامة النصر.

وكان ينوى غزوالهند، ومن ثم قد يعود إلى بلاد الصين عن طريق لكهنوتى وكامرود، ولما لم تسمح له علامات الكتف بذلك توقف، وفجأة وصل الرسل من طمغاج وتنكت وأخبروه بأن أهالى بلاد الصين وطمغاج وتنكت كافة قد شقوا عصا الطاعة، وأن هذه البلاد توشك أن تخرج من أيدى عمال المغول بسبب بعد المسافة، وبسبب هذا الخبر قلق چنگيزخان وعاد عن طريق لوب وبلاد پشت.

وحينما وصل إلى تلك البلاد، كان هناك خان فى بلاد تنكت، رجل يتصف بمنتهى الشجاعة والجرأة، وكان لديه جيش جرار وعتاد وعدة لا حصر لها. ونظرا لكثرة جنده وقوة أتباعه واتساع ولايته ووفور نعمه وأمواله وخزائنه كان قد لقب نفسه بتنگرى خان، وكانت جيوش المغول قد هرعت عدة مرات إلى ولايته، إلا أنها لم تستطع السيطرة عليه، ولا على ولايته، وقد حارب هذا الخان چنگيزخان عدة مرات وهزمه .

وبعد أن عاد چنگيزخان من بلاد العجم وديار الإسلام ، تشاور تنگرى خان هذا مع ملوكه وأمرائه قائلا: "إن چنگيزخان قد رجع، ونحن حاربناه فى المرات

السابقة وهزمناه، والآن وقد عاد للمرة الثانية وكثر جنده، وهومتجه الآن إلى آلتون خان ملك طمغاج، فالصواب أن نصطلح معه ونوافقه، ونذهب معه إلى ولاية الخطا، ونقضى على آلتون خان".

واستقر رأيه مع الملوك على هذا، وتصالح مع جنگيزخان، وأحكم العهد والميثاق بينهما. وبعد أن اطمأن قلبه إلى هذا الصلح، جاء إلى جنگيزخان، واختلط جنده بجنود جنگيزخان، وتوجهوا إلى بلاد الصين والخطا، وكان هناك نهر اسمه قراقرم عبروه بهدف نهب ولاية الخطا.

غير أن جماعة القواد والمغول قالوا لجنگيزخان: " إن جيشنا سوف يذهب إلى الخطا، وإذا هزمنا فسينقلب جيش تنگرى خان علينا أيضا، وولايته تقع وراء ظهرنا، وعندئذ لن يصل واحد منا سالما إلى ولايته، والصواب هوأنه حينما يكون تنگرى خان بيننا نقتله وننتهى من أمره، حتى لا يبقى لنا عدوفى الخلف، ونتجه إلى بلاد الخطا بقلب مطمئن".

فاستقر قلب جنگيزخان على هذا الرأى، وقبض على تنگرى خان وأمر بقتله. وحينما أيقن تنگرى خان بأنهم سوف يقتلونه قال: " أبلغوا جنگيزخان كلمة منى، وهذه الكلمة هى: إننى لم أغدر بك، وجئت إليك بناء على عهدك، وأنت تغدر بى، وتنقض هذا العهد، فاستمع إلى ما أقوله الآن: حينما تقتلنى إذا خرج منى دم لونه أبيض يشبه اللبن، فاعلم أنك سوف تموت بعدى بثلاثة أيام ".

فلما أبلغوا جنگيزخان هذا الكلام ضحك وقال: "لقد جن هذا الرجل، فإنه لا يخرج أبدا دم مثل اللبن من جرح المقتول، ولم ير شخص هذا الدم الأبيض، فيجب أن يقتل بأسرع ما يمكن".

وحينما ضرب الجلاد تنگرى خان بالسيف ، خرج من جرحه دم أبيض مثل اللبن ومات. وحينما وصل خبر ذلك الأمر العجيب إلى چنگيزخان الملعون قام بسرعة، وذهب إلى هناك، وحينما رأى الواقعة على تلك الحال، خفق قلبه، وخارت قواه، وفى اليوم الثالث توقف قلبه وذهب إلى الجحيم .

وكان چنگيز قد أمر أتباعه بأنه يجب عليهم أن يقتلوا كل أهل تنگرى خان من رجال ونساء ومن صغار وكبار، ولا يتركوا أى شخص منهم على قيد الحياة. وقد أوصى عند موته لأكتاى بالملك، فعاد أكتاى، وقتل جميع أهالى ولاية تنگرى خان.

ليبق الحق تعالى سلطان سلاطين الإسلام فى الحكم على عرش الملك. آمين يا رب العالمين.

الثالث توشى[٢٦] بن چنگيزخان

كان توشى الابن الأكبر لچنگيزخان، وكان فى غاية الشجاعة والجرأة والرجولة والقتال، وقد وصلت عظمته إلى حد أن أباه كان يخشاه.

وفى سنة خمس عشرة وستمائة حينما كان محمد خوارزم شاه قد ذهب لنهب قبائل قدرخان بتركستان، وكان يحكمها ابن ثقفتان يمك، وكان توشى (كما سبق ذكره عند الحديث عن خوارزم شاه) قد جاء أيضا من طمغاج إلى تلك الناحية، وحارب جيش خوارزم شاه يوما وليلة.

ففى ذلك الوقت حينما هزم السلطان محمد عند شاطئ جيحون وأنحاء بلخ، أرسل چنگيزخان توشى وچغتاى بجيش جرارإلى خوارزم. وحينما ذهب الجيش إلى باب خوارزم ، وبدأ الحرب، تحارب أهل خوارزم معهم لمدة أربعة أشهر وجاهدوا.

وفى النهاية استولى المغول على المدينة، وقتلوا النـاس كافـة ، وخربـوا المبانى كلها ما عدا مكانين: جوسق اخجك والثانى مقبرة السلطان محمد تكش.

وقد قرر البعض أنه حينما استولى المغول على مدينة خوارزم، وأحضـروا الناس من المدينة إلى الصحراء، أمر بأن يفصلوا النساء عن الرجـال، واحتفظـوا بالنساء اللائى يرغبن فيهن، وطلبوا من الأخريات الانقسام إلى فـريقين وجـردوا الجميع من ثيابهن، ووقف حولهن الأتراك المغول شاهرين سيوفهم، عندئـذ قـال چنگيزخان: " فلتقم النساء من كلا الفريقين بالملاكمة ، حيث تشتهر بلادكن بها".

وبمثل هذه الفضيحة التحمت النساء المسلمات فى ملاكمة بعضهن الـبعض، وصرن جميعا يتلاكمن ويتضاربن خلال فترة من اليوم، إلـى أن انتهـى الأمـر بإعمال السيوف فيهن، واستشهادهن جميعا. رضى الله عنهن.

وحينما انتهى توشى وچغتـاى مـن أمرخـوارزم، اتجهـا إلـى القبچـاق والتركستان فصارا يغلبان ويأسران جنود القبچاق وقبـائلهم واحـدة تلـو الأخرى، وأخضعوا جميع القبائل. وحينما رأى توشى (الذى كان الابن الأكبر لچنگيزخان) بيئة القبچاق وأرضها، علم أنه لا يمكن أن يكون فى كل بلاد العالم أرضا ألطـف ولا هواءً أطيب، ولا ماءً أجمل، ولا مروجًا ومرعى أوسع منها.

فبدأ يجول فى خاطره مخالفة والده فقال للمقربين إليه: "إن چنگيز خان قـد جن فهو يقتل الكثيرين من الناس، ويقضى عليهم، ويخرب العديـد مـن الـبلاد، ويبدولى أنه من الصواب أن أقتل أبى فى حلبة الصيد، وأن أتقرب إلـى السـلطان محمد، وأعمر هذه البلاد، وأساعد المسلمين".

وعلم أخوه چغتاى بهذه الفكرة فأخبر أباه بما يعتمل فى نفس أخيه من غدر وبما يحيكه من مؤامرة، فلما علم چنگيزخان بذلك، أرسل رسله فدسوا السم لتوشى فقتل.

وكان لتوشى أربعة أبناء:

الأكبر اسمه باتو (بودو) والثانى چغتاى والثالث شيبان والرابع بركا.

وقد روى الثقات: أن ولادة بركا هذا كانت فى وقت فتح بلاد الإسلام، وأنه حينما ولد، أمر أبوه توشى قائلا: "أعطوا هذا الطفل لمربية مسلمة، حتى تقطع سرته مسلمة، ويرضع لبن مسلمة كى ينشأ مسلما، فقد جعلت هذا الولد مسلما".

وإذا صدقت هذه الرواية (خفف الله عنه العذاب) فلا شك أنه ببركة هذه النية، تمسك بركا بالإسلام عندما كبر، وحتى هذا الوقت بتاريخ هذه الطبقات سنة ثمان وخمسين وستمائة، كان هذا الملك هو الباقى من أبناء توشى.

ليبق الحق تعالى سلطان الإسلام فى ارتفاع مدارج الملك سنوات طوال لا نهاية لها. آمين.

الرابع أكتاى بن چنگيزخان

حينما كان چنگيزخان يحتضر، أوصى بالملك لابنه أكتاى على الرغم من أن چغتاى كان أكبر من أكتاى، ولكن چغتاى كان قاتلا وظالما. وحينما جلس أكتاى على العرش، نفذ وصية چنگيزخان، وقتل جميع أهل تنكت من نساء ورجال.

ومن هناك عاد أكتاى إلى التركستان، وفتح بلادها، وأرسل أفواجا من الجنود إلى أنحاء خراسان والعراق وغور وغزنين، وأقام شئون البلاد على جادة العدل، وإعداد الجيوش ورفاهية الرعية .

وكان أكتاى فى حد ذاته كريما إلى أقصى حد، وطيب الخلق، وكان يحب المسلمين للغاية، ويجتهد جدا فى تعظيم أهل الإسلام ورفاهيتهم، فكان المسلمون الذين يوجدون فى بلاده مرفهى الحال، وذوى حرمة فى عهده.

وقد بنيت المساجد أثناء حكمه فى كل بلاد تنكت وطمغاج والتبت وبلاد الصين، وأوكل جميع قلاع بلاد الشرق وحصونها إلى جماعة أمراء الإسلام، وأسكن الأمراء الذين كانوا قد أسروا من إيران وتوران فى مدن التركستان وبلاد طمغاج وتنكت.

كما أمر أكتاى بأن ينادى المسلمون بكلمتى صاحب وأخ، وأمر المغول بأن يزوجوا بناتهم للمسلمين، وإذا رغب شخص فى خطبة أولادهم لا يمانعون. وقد قامت صلاة الجمعة فى كل بلاد الشرق، وسكن المسلمون فى تلك البلاد، وبنوا قصباتهم ومدنهم، وأقام كل شخص موضعا يتفق مع نسق مدينته. وقد سمعت أحاديث تدل على حب أكتاى للمسلمين نذكرها فيما يلى:

حكاية

روى الثقات: أن جغتاى كان يكره المسلمين، وكان يجول فى خاطره دائما أن يريق دماءهم، ولا يترك أى واحد منهم حيا، وكان چنگيزخان قد وضع أحكاما جعل القتل فيها جزاء لارتكاب بعض الأفعال، منها السرقة والزنا والكذب والخيانة، كما يقتل كل من يأخذ لقمة فى فمه غصبا، وكل من يغتسل فى نهر صغير أوكبير، وكل من يغسل وجهه على شاطئ النهر، بحيث يعود الماء من وجهه المغسول إلى ذلك النهر.

وكل ذنب أقل من تلك الذنوب تكون عقوبة فاعله الضرب ثلاث عصى أوخمس عصى أوعشر عصى، لكن بشرط أن يخلعوا عنه ملابسه تماما، ويضربوه بالعصى بغاية الشدة والإحكام، وقد سموا هذه الأحكام يسه، وتعنى حكم وأمر باللغة المغولية.

وذات يوم كان الأخوان أكتاى وچغتاى يسيران فى طريق بالصحراء، وكان أكتاى يسير فى الأمام وچغتاى خلفه على بعد ربع فرسخ، وفجأة وصل أكتاى إلـــى حوض ماء، ورأى مسلما يغسل رأسه وجسمه فى الحوض، فلما وقع نظر أكتـــاى على ذلك المسلم، التفت إلى أتباعه وقال: " وا أسفاه على ذلك المســلم المســكين، سوف يقتل الآن على يد أخى چغتاى، فما العمل؟ "ثم قال: "أليس هناك كيس ذهــب أوفضة مع أى شخص؟ "فقدم أحد خواصه فروض الطاعة وقال: "يوجد معى كيس فضة. " قال أوكتاى: "أعطه للمسلم وقل له بأن يرميه فى الحوض، وحينما يصــل أخى چغتاى إلى هناك، ويراه، ويسأله، يقول المسلم إن كيس الفضة قد وقــع فــى النهر، ونزلت أبحث عنه، حتى ينجومن القتل".

وهكذا أعطى أتباعه كيس الفضة للمسلم، فألقى به فى الماء ثم ألقى بنفســه. فلما وصل چغتاى إلى هناك، رأى المسلم فأمر بالقبض عليه واستجوابه قائلا: " بما أن أحكام الخان تنص على عدم نزول أى مخلوق فى النهر، فلماذا خالفــت هــذه الأحكام ؟ لقد وجب القتل عليك؟". قال المسلم: "لقد وقع كيسى المملوء بالفضة فى النهر، فنزلت فى هذا الحوض للبحث عنه".

عندئذ أمر چغتاى فنزل جماعة من المغول فى الماء، وبحثوا عن الكــيس، فلما وجدوه مضى چغتاى إلى سبيله ونجا المسلم بتدبير ذلك الملك العــادل الكــريم أكتاى ولطفه (خفف الله عنه العذاب) وقد نجا بسببه كثير من المسلمين مــن يــد ذلك الظالم الملعون چغتاى.

وقد روى جماعة من الثقات أنه لم يأت إلى الدنيا فــى التــواريخ الســابقة والأيام السالفة والقرون الماضية فى بلاد التركســتان وممالــك الصــين وتنكــت وطمغاج ملك أكرم ولا أحسن أخلاقا ولا أطيب من أكتاى أبدا.

وحينما استقرت لأكتاى مملكة أبيه، واستعد الأخوة والخانات، أعد الجيوش وأرسلها إلى أنحاء الممالك، فأرسل جرماغون نوين إلى العراق فى شهور سنة خمس وعشرين وستمائة، وأرسل منكوته نوين إلى غزنين فى الشهور المذكورة، كما فوض إليه طخارستان وقندز وطالقان.

أما ملوك خراسان والغور وكرمان وفارس الذين كانوا قد بقوا فى القلاع والحصون، فقد ذهبوا جميعا إلى قراقرم لدى أوكتاى، وقدموا له فروض الطاعة، وعمرت أنحاء خراسان، وتوجد حكاية أخرى توضح رعاية أكتاى للمسلمين:

حكاية

هكذا روى الثقات أن چغتاى الملعون كان يجد دائما فى إيذاء المسلمين، وكان يختلق الأسباب كى يلحق البلاء والفناء بأهل الإسلام ، ويقضى على البقية الباقية من المسلمين، ويستأصل شأفتهم، بحيث لا يبقى من المسلمين أثر فى أى مكان. وكان يسعى ويجد فى نشر تلك الفتنة، فكان يحث المغول والقواد الآخرين والأبطال على ذلك، كى يبلغوا أكتاى أقوالا وأفعالا عن المسلمين توجب العناء والضر لأهل الإسلام، وتكون سببا فى القضاء عليهم.

وحدث أن حرض چغتاى أحد الكهنة من البوذيين ممن يسمون باللغة التركية " توينان" فجاء إلى أكتاى وقال له:

"رأيت چنگيزخان فى المنام ، وحملنى أمرا أبلغك إياه، ولا يليق بك أنت أكتاى ابنه وخليفته أن تهمل أمره بأى وجه من الوجوه، أوأن تعدل عن هذا الدستور (الياسا)، ويجب عليك أن تدرك رضاء چنگيز خان وتفوز به وهذا الأمر هو: أن چنگيزخان قال: "لقد كثر المسلمون، وسيكون سقوط ملك المغول فى النهاية على أيديهم، فيجب عليك أن تقتل الآن المسلمين كافة فى كل ممالكنا من

بلاد الصين وطمغاج وتنكت وتركستان حتى بلاد إيران والعجم، وألا تترك منهم اسما أو أثرا! والآن وقد أبلغت أمر جنگيزخان، وأبرأت ذمتى من هذه الأمانة، فعليك الامتثال وتنفيذ الأمر ولا تهمل طوائف المسلمين، حتى لا يزول الملك."

وحينما أتم البوذى كلامه، أدرك الملك العادل العاقل العالم الذكى والمحب للمسلمين بفراسته الملكية أن هذا الكلام كذب وزور، وتصل روائح الكذب من أدائه إلى مشام الفراسة فقال: "إنه من تدبير أخى چغتاى الظالم لعنه الله".

وأمر فى الحال، فأعدوا للكاهن البوذى قصرا فخما مجهزا بكل ما يحتاج إليه وبكل ما يلزمه وقال: " إن هذا الأمر خطير جدا ومخيف، إذ يوجب إراقة دماء أناس كثيرين، ولا يوجد شخص قط من الملوك والقادة والأبطال والجنود ليس عنده كثرة من أسرى المسلمين، وهم متفرقون فى أنحاء ممالك الصين وطمغاج وتركستان وإيران والعجم ،وعلى أية حال يجب إبلاغ هذا الأمر للجميع ليعملوا به، فعليك أن تصبر الآن حتى يبلغ إلى سائر ممالك المغول، ويجتمع القادة والجيش والأبطال والملوك الآخرون ويعلن لهم هذا الأمر الخطير، الذى يجب أن ينقاد الجميع له. "

ثم أمر فأنزلوا هذا الكاهن البوذى فى المكان الذى كانوا قد خصصوه له، وكانوا لا يهملون لحظة قط فى إعزازه وإكرامه، فقد كان هذا المجوسى اللعين ذائع الصيت فى بلاد التركستان وطمغاج والصين.

وحينما انقضت المدة المحددة، واجتمع أكابر مملكة المغول، أمر أكتاى بإعداد مجلس ملكى فخم، وطبقا لما كان معهودا لدى تلك الجماعة، ووفقا لرسومها وتقاليدها المحببة لديهم، قاموا بما يقتضيه ذلك الحفل من ترتيبات، ثم جلس أكتاى على العرش، ومثل أمام العرش عظماء الممالك القادمين جميعا فى خضوع، وركعت الجماعة المعين لها أماكن للجلوس طاعة وولاء.

ثم أمر أكتاى بإحضار ذلك الكاهن إلى البلاط بإعزاز تام، فما إن حضر وجلس أمام العرش، حتى قال أوكتاى: " إن هذا هوالوقت المناسب لكى تبلغ أمر چنگيزخان، وأن تبلغ ما أمرت به حتى يمتثل له الجميع".

فنهض الكاهن، وأعلن أمر چنگيزخان على النحوالذى كان قد ادعاه، فأدى الجميع فروض الطاعة، وقالوا جميعا:

"سمعنا الأمر وأطعنا، فبماذا يأمر ملكنا أكتاى ؟ وعلى أى وجه يجب أداء هذا الأمر وكيف ينفذ ؟ حتى نلتزم به جميعا. "قال أكتاى": يجب أن يكون لكل دعوى حجة وبرهان، حتى يظهر الصدق من الكذب، والصحة من السقم، فيلزم أن يكون لهذا القول شاهد مطلع على حقائق الأحوال، فإذا صح أن هذا الكلام هوأمر الخان فيلزم أن ينقاد الجميع له، وإن كان كذبا وزورا من ادعاء شخص أوافتراء مغرض، فإن دماء الناس والرعايا والعبيد سوف تراق دون معنى".

وحينما قال أكتاى هذا الكلام، قبل الحاضرون الأرض قائلين: "إنّ ما يقوله الخان فى رأي جملة عقلاء العالم وأهل التمييز والعقل لامزيد عليه؛ لأنه كلام ملكى وحديث عظيم يصدر عن كمال العقل وحنكة القيادة، ولا يمكن لأى مخلوق أن يعترض عليه، ولكن يجب أن يبين أكتاى كيف يعلم كذب هذه الدعوى أوصحتها أوفسادها؟".

عندئذ التفت أكتاى إلى ذلك الكاهن البوذى وقال: " أتعرف اللغة المغولية أم التركية أم اللغتين؟" قال الكاهن الوثنى: "أنا أعرف اللغة التركية ولا أعرف اللغة المغولية".

فالتفت أكتاى إلى كبار رجال المغول من ذوى الأصل والنسب المغولى الخالص وقال: "إنكم تعرفون يقينا أن چنگيزخان لم يكن يعرف لغة أخرى قط غير

المغولية". فقبل الجميع الأرض، وقالوا بالإجماع: "إن هذا الكلام حقيقى، فلم يكن جنگيزخان يعرف لغة أخرى غير المغولية".

ثم التفت أكتاى إلى الكاهن قائلا: "بأى لغة أبلغك جنگيزخان هذا الأمر بالمغولية أم بالتركية؟ فلو كان قد حدثك بالمغولية فكيف فهمت ما قاله، وأنت لا تعرف المغولية؟ وإن كان قد حدثك بالتركية فكيف أبلغك الأمر وهو لم يكن يعرف التركية؟ أجب بقول تفوح منه روائح الصدق حتى ينفذ".

فصمت ذلك الكاهن سيئ العقيدة الوثنى الملعون وخجل بحيث إنه لم يخرج نفس من ذلك الجهنمى اللعين. وبهذا افتضح أمره وقبّل جميع الأتراك والمغول وملوك تركستان الأرض بالإجماع قائلين: "إن هذا الأمر كذب وينعدم فيه الصدق".

وفى النهاية قال أكتاى للكاهن: "لن أعاقبك احتراما لأخى، فعد إلى مكانك وقل لجغتاى وأتباعه أن يكفوا أيديهم عن إيذاء المسلمين والتعدى عليهم؛ لأنهم أخوتنا وأصدقاؤنا، وقد ظهرت قوة دولتنا بهم، وخضع أهل العالم لنا بمساعدتهم". خفف الله عنه العذاب.

وقد قال بعض الثقات إن مبعث هذا اللون من الألطاف والإكرام هو أن أكتاى كان قد أسلم فى السر. والله أعلم

ذكر إرسال الجيوش إلى بلاد العراق والتركستان

حينما أرسل أكتاى الجيوش إلى ناحية العراق وخراسان، عين جرماغون نوين قائدا على رأس ذلك الجيش، فلما بلغ ذلك الجيش أطراف العراق، كان هناك ما يقدر بخمسين ألف مغولى وأجناس أخرى من عظماء التركستان وأسرى خراسان، ممن كانوا قد توجهوا إلى تلك الديار، بحيث بلغوا فى شهور سنة ثلاث وعشرين وستمائة حوالى مائة ألف فارس.

وحينما وصلوا إلى تلك الديار، قتلوا كثيرين من أهالى تلك البلاد والأنحاء مما لايتسع له المجال هنا، ونهبت بلاد العراق كلها والجبال واران وآذربيجان وگيلان وولاية رستم دارى، التى تقع على أطراف بحر الخزر حتى دربندان وآذربيجان جميعها، وخربوها.

أما مدينة أصفهان فقد ظلت صامدة (كما سيجىء ذكره فى موضعه) مدة خمس عشرة سنة منذ ظهور چنگيزخان المغولى وجيشه فى بلاد العراق ،حتى الوقت الذى فتحت فيه.

وقد مرت جيوش المغول على عقبة حلوان، ونهبوها حتى أطراف بغداد مدينة السلام. وتوجه ملوك الإسلام بجيوش العجم والترك والكرد والعرب من قبل أمير المؤمنين المستنصر بالله (طاب ثراه) عدة مرات لدفع طائفة المغول وجيوش الكفار وقاتلوا وجاهدوا الكفار جهادا كبيرا.

وكان الفتح والنصر فى كل الأوقات لجيش الإسلام فلم يتيسر فى ذلك العهد لجيش الكفار بلوغ أنحاء دار الخلافة وأطرافها بأى وجه من الوجوه. وأقام جرماغون الملعون وكان قائدا لكفار المغول فى حدود قم وكاشان، وعجلوا بإرسال البعض إلى نواحى فارس وكرمان.

وقد سلك الأتابك أبو بكر صاحب فارس وملكها وأخوالحاجب براق الخطائى الذى كان قد أصبح قائدا على كواشير وكرمان طريق الصلح مع جيش المغول، وقررا أن يدفعا مبلغا معينا يرسلانه كل عام. فاستقرت الأمور فى مملكتى فارس وكرمان واستتب السلام والأمن وسلمتا من جيش كفار المغول، وخربت بقية مدن العراق وآذربيجان وطبرستان جميعا.

وفى الوقت نفسه توجهت جيوش المغول من ناحية التركستان إلـــى كابـــل وغزنين وزاولستان، ولما رأى الملك سيف الدين حسن قرلغ رحمة الله عليه عـــدة مرات أنه لا يمكن دفع تسلط الكفار إلا بطريق الخضوع ودفع الخراج، اســـتقبلهم خاضعا وقبل شحنتهم.

كما قبل ملوك الغور وخراسان جميعا الدخول فى طاعتهم، وتوجـــه طـــاير بهادر من ناحية التركستان إلى بلاد هراة، وذهبت جيـــوش المغـــول إلـــى بـــلاد نيمروز.

وفى واقعة سيستان ونيمروز هذه، وفى شهور سنة خمس وعشرين وستمائة توجه جيش المغول إلى نيمروز للمرة الثانية فى عهد الملك تاج الـــدين ينـــالتگين الخوارزمى الذى كان قد اكتسب مكنة وقوة فى سيستان، وجهـــز ذخـــائر وافـــرة، وحاصر المغول قلعة ارگ بسيستان التى تقع علـــى الـــركن الشـــرقى والشـــمالى لسيستان، وأقاموا أمام تلك القلعة مدة تسعة عشر شهرا.

وعلى الرغم مما بذله كفار المغول من سعى واجتهاد، فإنهم لـــم يســـتطيعوا الاستيلاء على تلك القلعة بأية صورة حتى غلب المرض والوباء علـــى مجموعـــة المسلمين بالقلعة، ووصل أمر الناس إلى حد أنه كان يموت منهم مائة أومائتان من الرجال دفعة واحدة مجتمعين فى مكان واحد. حاشا للسامعين.

وقد روى الثقات أنه ذات ليلة فكر أهل القلعة فى أن يقيموا كمينا فى الليـــل لدفع جيش المغول، وذلك بأن يجلسوا فى بعض فتحات الباب الشـــمالى، وحينمـــا يجىء الفجر يخرج المحاربون من البوابة الشرقية للقلعـــة، وينشـــغلون بالجهـــاد، وبمجرد أن يتوجه جيش المغول إلى تلك الطائفة المجاهدة، تـــدق الطبـــول فـــوق القلعة، وحينما يصل صوت قرع الطبول إلى الطائفـــة الموجـــودة فـــى الكمـــين،

يفتحون الكمين من البوابة الشمالية، ويدخلون منهـا مـن خلـف جـيش الكفـار ويجاهدون وفقا للسنة.

وبناء على هذا القرار، ذهب ما يقرب من سبعمائة جنـدى تـولكى كـاملى السلاح من القلعة فى منتصف الليل إلى تلك الناحية التى اتفقوا عليها، وتوجهوا إلى الكمين واستقروا هناك. وفى الفجر حينمـا أدوا الفريضـة وتـدرع أهـل القلعـة بالأسلحة، خرجوا من البوابة الشرقية، وبدأوا الجهاد.

وتوجه كفار المغول من معسكرهم إلى المسلمين المجاهدين، ودارت حـرب ضروس، وحينما اختلط كل من الجيشين بطعنات السيوف والحراب والسهام، دقوا طبول القلعة مرة ومرتين لفتح الكمين وفق القرار الليلى، ولكن لم يخرج أى رجل من الكمين، ولم يظهر لتلك الطائفة أثر.

فأرسل الملك تاج الدين ينالتكين رسلا قائلا: " اذهبوا وانظروا مـا سـبب توقف أهل الكمين؟ فلما جاء هؤلاء الرسل إلى مكان الكمين وجـدوا السـبعمائة رجل جميعهم موتى، وكانوا قد أسلموا الروح للحق تعالى، ولم يكن قد بقى فيهم أى أثر للحياة. نعوذ بالله من ذلك.

أدام الحق تعالى دولة سلطان المسلمين حتى انتهاء العالم.

وقد ذكرت هذه الحكاية حتى يتضح ويبرهن لذوى النظر والـرأى، كيـف تظهر آثار العقوبة إذا ما حل غضب الله. نعوذ بالله من غضبه.

وقد قرر الثقات أن أعم أعراض وباء أهل أرگ بسيستان وأغلبها، كانت بأن يبدأ ألم فى أفواههم، وتصطك أسنانهم، وفى اليوم الثالث كانوا يلتحقون برحمة الله، وقد استمر حال وباء أهل القلعة على هذا المنوال حتى بدأت الآلام فى فـم إحـدى نساء القلعة فجأة، وفى اليوم الثانى اصطكت أسنانها، وكان لها ابنة صغيرة نادتهـا

وأجلستها وقالت لها: " سوف أخضب لك الليلة يا ابنتى يديك وقدميك بيدى؛ لأن غدا هواليوم الثالث لمرض أمك وموعد رحيلها".

وبهذه النية خضبت الأم يدَى طفلتها وقدميها. وكانت السيدات معتادات إذا وضعن الحناء على يدى شخص وقدميه، أن يضعن أصبعهن على لسانهن حتى يبللنه بلعابهن، فيأخذن الحناء من مكان إلى مكان آخر.

وحينما خضبت الأم يدى طفلتها ورجليها، استسلمت للموت ونامت، وفى الفجر كانت جذور أسنان تلك السيدة قد ثبتت، وزال ألم فمها تماما. وفى اليوم الثالث وجدها الجيران والمعارف سليمة، وفى اليوم الرابع صارت فى صحة تامة.

فتعجب الناس، ورأوا ضرورة الاستفسار منها عن هذه الظاهرة، فسألوها قائلين: " ما سبب بقائك على قيد الحياة، وزوال علة فمك واستحكام أسنانك، وأى دواء صنعته وأى علاج قمت به؟ " فأجابت المرأة: " لم يكن عندى دواء، ولم أتناول شيئا، لقد وهبنى الله الصحة. " قالوا: " العالم عالم أسباب، فما العمل الذى قمت به إذن ؟"

فقصت تلك المرأة قصة تخضيب ابنتها، وذكرت بل إصبعها، ووصول أثر الحناء إلى فمها، فاتفق الجميع على أن دواء هذه العلة هوالحناء. وكان الأمر كذلك فانتشر أمر هذا الدواء فى القلعة، وانتشر هذا الحديث.

ووصل الأمر إلى حد أن كل واحد كانت العلة تظهر عليه، كان يضع الحناء فى فمه فيصح، حتى بلغ ثمن المن من الحناء مائتين وخمسين دينارا من الذهب الأحمر، فحقق كل من كان لديه حناء مالا وفيرا من ثمنها.

وللحق تعالى ألطاف كثيرة مع عباده، ولكن لا حيلة قط للأجل، ففى النهاية أصاب سهم عين الملك تاج الدين ينالتكين، وذهبت إحدى عينيه، ثم زلت قدمه فجأة

من المكان الذى كان يقود منه الحرب فوق البرج، فوقع من فوق القلعة إلى أسفل، وأسر، واستشهد.

وبذلك سقطت قلعة أرگ بسيستان فى يد الكفار، فقتلوا الخلق بعد أن قتل كثيرون من الكفار (كما سبق ذكره) ومضوا إلى الجحيم.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام على عرش الملك وخلده. آمين

ذكر توجه جيوش المغول إلى ناحية الغور وغزنين ولاهور

حينما جلس أكتاى على العرش، أرسل الجيوش إلى ناحية الغور وغزنين، وكان طاير بهادر قد أظهر شجاعة كبيرة على باب مدينة سيستان، فقد كان فريد عصره فى الحرب.

وحدث أن مات أحد القواد الكبار للمغول فى حرب سيستان، فأصبح طاير بهادر رئيسا وقائدا لتلك المجموعة من المغول بناء على أمر أكتاى، وحل محل ذلك المغولى الكبير الذى مضى إلى جهنم.

وحينما جاءوا من سيستان إلى خراسان، قدم إلى غزنين القائد انبان والقائد نكودر والجيوش التى كانت فى مناطق غور وخراسان. وكانوا قبل مجيئهم قد هزموا الملك حسن قرلغ فى بنيان، وفرضوا عليه الخراج.

وعلى الرغم من محاولاتهم القضاء على الملك سيف الدين حسن قرلغ السابقة، فإنه لم يتيسر لهم ذلك إلا فى شهور سنة ست وثلاثين وستمائة ، حينما هجموا بغتة على الملك سيف الدين حسن قرلغ، فتقهقر مهزوما من كرمان وغزنين وبنيان إلى بلاد ملتان والسند.

وفى ذلك الوقت كان عرش الهند قد ازدان بالسلطانة رضية (طاب ثراهــا) ابنة السلطان شمس الدين (نور الله مرقده) ونزل الابن الأكبر للملك حسن قرلــغ بدهلى، وأسندت السلطانة رضية إليه ولاية برن تعطفا. ثم انقضت مــدة، وفجــأة ذهب ابن الملك حسن وعاد إلى خدمة أبيه دون إذن السلطانة.

وبعد أن جاء الملك سيف الدين إلى بلاد السند، بقيت بلاد غزنين وكرمــان فى يد عمال المغول، وفى شهور سنة تسع وثلاثين وســتمائة، توجهــت جيــوش المغول وجيوش الغور إلى لاهور، ووصل طاير بهادر وهوحاكم هراة وبــادغيس والقواد الآخرون من حكام بلاد الغور وغزنين وگرم سير وتخارستان جميعا مــع جيوشهم إلى شاطئ نهر السند.

وكان صاحب إقطاع ملتان هوكبيرخان إياز، وصــاحب إقطــاع لاهــور هوالملك اختيار الدين قراقش، وكان عرش السلطنة قد آل آنذاك إلى السلطان معز الدين ، وحينما وصل خبر قدوم جيوش المغول إلى ملتان، عقد كبيرخــان العــزم على رفع راية الجهاد، وجمع الجند، واستعد للجهاد.

وحينما وصلت أنباء احتشاد جند كبيرخان إلى معسكر المغول، قرر الكفــار التوجه إلى لاهور، وجاءوا إلى باب هذه المدينة .

ولم يكن فى قلعة لاهور عدة من الذخيرة أوالسلاح، كما لم يكن أهل لاهور متحدين ومتفقين ومتفاهمين. فقد كان أكثر سكان تلك المدينة مــن التجــار الــذين سافروا كثيرا شمالا إلى خراسان والتركستان فى عهد المغول، وقد حصــل كــل واحد منهم على وسام ومرسوم أمان من المغول إيثارا للسلامة.

وبناء على هذا لم يوافقوا الملك قراقش على الحفــاظ علــى القلعــة، ولــم يساعدوه ولم يشتركوا فى الدفاع أوالقتال، ولم يتحد جند الإســلام بســبب خــوف ملوك الترك والغور من السلطان معز الدين بهرام شاه.

ولهذا السبب لم يتوجه الجيش بسرعة من دهلى لـدفع المغـول، واندلعت الحرب لمدة أمام باب مدينة لاهور، ووجه جيش المغول مجانيق كثيرة إلى أنحاء قلعة لاهور، وخربوا الحصون، وقام الملك قراقش، وجاهد بقدر ما تيسر له، وحينما وقف على اختلاف أهواء أهل لاهور وتفرقهم، حيث كان القاضى والعظماء يقصرون كثيرا فى حراسة واجهة قلعة المدينة، أيقن الملك قراقش أن عاقبة أمره وخيمة، وأن السيطرة على المدينة أكبر من قدرته وطاقته.

فخرج مع جيشه للهجوم الليلى، وهجم على جيش الكفار، وشتت صفوفهم بحملة واحدة، واتجه إلى دهلى، وقد فقد بعض خواصه ونسائه فى ذلك الهجوم ، وقتل البعض، واستشهد قوم ، وألقى البعض بنفسه من فوق الجياد فى ظلمة الليل وضوضاء الحرب، واختفوا فى الخرابات والقبور، واختفت زوجة الملك فى تلك المعمعة فى مكان ما.

وفى اليوم التالى حينما علم أهل المدينة وجيش المغول بفرار الملك قراقش وخروجه، حزن أهالى المدينة وسكان القلعة جدا، وانتصر جيش المغول، واستولى على المدينة، ونشب القتال فى كل مكان، وجاهد المسلمون كثيرا.

وكان فوجان من المسلمين قد عقدا العزم على الجهاد حتى الموت فى تلك الواقعة، حيث أخذوا يعملون السيوف ويقتلون المغول حتى آخر لحظة كانت دماؤهم تتحرك فيها وتجرى فى عروقهم، إلى أن نال كل من الطائفتين حظ الشهادة بعد جهاد طويل.

وكان آقسنقر (أحد المقاتلين فى القلعة) حاكما على لاهور، وكان يرجح ألف رستم فى قصص المبارزة والحرب هو وأتباعه. وكان المبارز الثانى الرجل التقى محمد أمير الركائب الذى كان يجاهد وفق السنة ويؤدى واجبه كما يجب فى ذلك

اليوم، بحيث كانت الروح الطاهرة لعلى المرتضى رضى الله عنه مع الأنبياء والرسل كافة ترسل الرحمة من فراديس الجنان له ولأتباعه وأبنائه رضى الله عنهم.

وحينما استولى جيش المغول على المدينة، قتلوا الناس وأسروهم، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيرا من المغول قد مات مما لا يدخل تحت عد أوحصر، ويقدر عدد من مات منهم بين ثلاثين وأربعين ألف فارس مغولى مع ثمانين ألف حصان، بل ما يزيد على ذلك.

ولم ينج أى شخص من جيش المغول من الإصابة بجرح من سهم أوسيف أوسنان، ومات أكثر القواد والأبطال، وتبارز طاير بهادر مع آقسنقر الحارس، وجرح كل منهما الآخر بالحربة، فذهب طاير بهادر إلى الجحيم، وتهادى آقسنقر وكان كالأسد فى رحاب الجنة: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [٢٧].

وبعد أن استولى جند المغول على مدينة لاهور خربوها ومضوا، فعاد الملك قراقش من حدود نهر بياه إليها، وكان قد ألقى فى ليلة الفرار من لاهور مالا كثيرا من الذهب الخالص وغيره فى النهر مع خزائن الملابس الملكية، وجعل على ذلك الموضع علامة تدل عليه، فعاد لأخذ تلك الأموال.

وحينما وصل إلى مدينة لاهور استعاد تلك الأموال التى لم تكن قد وقعت فى أيدى المغول. وبعد رحيل الكفار، كان الهنود والكوكهران والمجوس الأبتر[٢٨] قد جاءوا إلى لاهور وأخذوا يخربونها ، فأدركهم الملك قراقش، وأرسل الجميع إلى الجحيم، وقدم بالسلامة إلى بلاط الحاضرة دهلى.

نصر الله تعالى أولياء دولة سلطان سلاطين الإسلام، وقهر أعداء ملكه. آمين.

ذكر وفاة أكتاى بن چنگيزخان

روى عن السلف- رضى الله عنهم- أنه حينما يخــرج التــرك، ويســتولى ذووالعيون الضيقة على العالم ، ويخربون بلاد العجم وممالك إيران، وعندما تصل جيوشهم إلى لاهور، يدبر أمر تلك الجماعة، وتذوى قوتهم بعد ذلك .

وفى تلك الأيام التى كان فيها كاتب هذه الطبقات منهاج بن ســراج (أصــلح الله حاله) فى السابعة من عمره، كان يذهب ليحفظ كلام الله عند المعلم الإمام على الغزنوى رحمة الله عليه وقد سمع منه هذه الرواية:

روت جماعة من الثقات عن الإمام جمال الدين بستاجى رحمه الله أنه كثيرا ما كان يقول وهوفى مدينة بخارى فى عهد دولة أكتاى وهوجالس علــى كرســى الوعظ: " اللهم اجعل جنود المغول يصلون إلى لاهور". حتى وصلوا. وقد ظهــر هذا المعنى حينما فتحت لاهور فى شهر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وفى اليوم التالى لفتح لاهور، قال جماعة من الرواة من تجار خراسان وما وراء النهر إن أكتاى قد مات ورحل عن الدنيا.وبعد موته اصطدمت قبائل المغول فيما بينها عدة مرات، ومات أغلب أكابر الملاعين، وتفرقت قبائلهم .

وذهب أبناء أخى چنگيزخان، وهم أولاد اوتگين إلى آلتون خان فى الصــين، وبدأ چغتاى وأبناؤه العصيان، وقتل كثيرون منهم على أيدى بعضهم البعض (لعــنهم الله وقطعهم) وكانت مدة حكم أكتاى بن چنگيزخان تسع سنوات. وحينما مــات لــم يجلس أحد قط على العرش من سلالة أولئك الملاعين مدة سنة ونصف، فقد كان من تقاليدهم أنه حينما يموت ملك لايخرجون للحرب لمدة عام ونصف عام .

ويقال إن هذه المدة كانت ثلاث سنوات. وبعد أن انتهت الســنة والنصــف، حكمت زوجة أكتاى تركينه خاتون ممالك المغول مدة أربع ســنوات. وفــى هــذه الفترة ظهرت منها حركات النساء الناتجة عن نقصان العقل وتغلب الأهواء.

ورأى أكابر ممالك المغول تلك الأفعال، وطالبوا بملك حازم، فألحقوها بأكتاى، وأجلسوا ولده على العرش. لعنهم الله .

الخامس چغتاى بن چنگيزخان

كان چغتاى الملعون الابن الثانى لچنگيزخان ، وكان رجلا ظالما وقاتلا سيئ الأفعال. ولم يكن هناك أى شخص من قواد المغول أكثر عداوة منه للمسلمين، وكان لايروق لچغتاى أن يذكر أى مخلوق قط المسلمين إلا بالسوء، ولم يكن من الممكن فى سائر قبائله أن يذبح شخص شاة على الطريقة الإسلامية ، بل كانوا يخنقونها جميعا، ولم يكن مسموحا لأى مسلم بأداء الصلاة.

وكان چغتاى يحث أكتاي دائما على قتل المسلمين، وعلى محوهم تماما، ولم يكن أى مسلم يستطيع أن يمثل أمامه. وكان چغتاى أكبر من أكتاى، ولكن حينما علم چنگيزخان بصفاته هذه وبأنه سفاك عظيم وبالغ الظلم، لم يوص له بالملك، وأوصى به لأخيه الأصغر أكتاى.

وكانت إقامة چغتاى فى مقر الوطن المغولى الأصلى، وقد جعل له چنگيزخان نصيبا معينا من الولايات التى كانت تحت تصرفه. وكانت جيوشه فى كل موضع فيما وراء النهر وفرغانه والتركستان.

كما أنه كان قد وشى بأخيه الأكبر توشى ، وأشاع أنه ينوى قتل أبيه چنگيزخان أثناء الصيد. وحينما وصل ذلك إلى مسامع أبيه دس السم لابنه توشى وقضى عليه. وظل چغتاى الملعون هذا على رأس قبائله وجيوشه عدة سنوات. وحينما حل أجله، جعل الحق تعالى مقتل أحد أوليائه على يديه، فذهب بسبب ذلك إلى جهنم .

حكاية شيخ

روى أنه كان هناك فقير عارف صوفى باطنى من منطقة خراسان، وكـــان يسمى الشيخ محمود آتش خوار[٢٩] ، وكان شيخا عظيما جدا، وصوفيا مشـــهورا، سار فى طريق الفدائية، وأوهن نفسه فى حب الحق، وأسلم جسده للمشقة، وسار فى الحياة سائحا، فكان يطوف البلاد حتى وصل إلى مكان بين جبلين، يمر به النـــاس فى طريقهم من التركستان إلى بلاد الصين، وقد أقيمت بين الجبلين سدود محكمـــة لها حراس، ونصب عليها عيون بحيث كان كل واحد يذهب إلى الصـــين أويـــأتى منها إلى التركستان، يسألونه عن الحال هناك، ويقفون على أخبارهم منه.

وحينما وصل الشيخ محمود آتش خوار إلى ذلـــك المكـــان، رأت جماعـــة الحراس شخصا غريبا عن عادات الخلق، يبدوفى ظاهره كالمجنون، فأمسكوا بـــه قائلين: "أفدائى أنت.؟ "قال الشيخ محمود: "نعم أنا فدائى. "ومهمـــا ألحـــوا عليـــه قائلين:" قل من تكون. ؟ "قال: "أنا كما قلتم فدائى".

فلما أصر على ذلك القول، أحضروه عند چغتاى، فعرفه مسعود بيك وزيـــر چغتاى، ولكن لم يستطع أن يتحدث عن أمره وعظمته قط خوفا من چغتاى. فقـــال چغتاى الملعون للشيخ محمود: "من أنت.؟" قال: "أنا فدائى. "قال چغتـــاى: "مـــاذا أفعل معك؟ ماذا يجب أن يفعل معك؟". قال الشيخ: "مر حتى يرموننى بالسهام كـــى أتحرر"؛ فأمر چغتاى بأن يقذفوه بالسهام.

وحينما التحق الشيخ محمود برحمة الحق، وبعد عدة أيام كان چغتـــاى فـــى مكان الصيد. وبينما كان يرمى سهما صوب فريسة، ارتد إليه السهم، وأصاب ظهر ذلك الملعون، وفى الحال ذهب إلى الجحيم. وخلص ونجا خلق الله تعالى من شره، خاصة أهل الإسلام.

السادس كيك بن أكتاى عليه اللعنة

روى الثقات أنه كان لأكتاى ولدان، الأول كتن والثانى كيك. أما كتن الذى كان الأكبر، فبسبب ابتلائه بعلة الفلج ولعدم صلاحيته للملك وضبط الممالك والقيادة، فقد عهد بالعرش إلى أخيه كيك.

وحينما جلس كيك للحكم ، قدم له كبار رجال المغول كافة الطاعة، وأرسل الجيوش إلى أنحاء الصين وإيران والهند وخراسان والعراق، وعين منكوته نوين قائدا على رأس جيوش طخارستان وختلان وغزنين مرة أخرى. وكان منكوته مسنا طويل القد ذا عين واحدة، وكان من جملة خواص چنگيزخان.

وحينما نزل منكوته أرض إيران، جعل مقامه فى طالقان وقندوز وولوالج. وفى شهور سنة ثلاث وأربعين وستمائة، توجه إلى بلاد السند، وأحضر جيش تلك الديار إلى أنحاء أچه وملتان.

وفى ذلك الوقت كان عرش الهند مزدانا بعظمة السلطان علاء الدين مسعود وبهائه. وكانت مدينة لاهور خربة، وكان الملك سيف الدين حسن قرلغ يحكم ملتان، وكان هند وخان مهترمبارك الخازنى، حاكما على مدينة أچه وقلعتها، وكان قد نصب من قبله نوابا فى قلعة أچه مثل الخواجه صالح الحارس.

وقد وصل منكوته مع جيش المغول إلى شاطئ نهر السند، وترك الملك سيف الدين حسن قرلغ قلعة ملتان ومدينتها خاليتين، واستقل قاربا، وذهب إلى ديول وسندستان.

ثم جاء منكوته إلى قلعة أچه وحاصرها ، وقامت الحرب، وخرب منكوته أطراف أچه وأنحاءها، وأظهر أهل القلعة جدا واجتهادا كبيرين، وبذلوا أقصى ما فى وسعهم للحفاظ على القلعة، وتم قتل كثيرين من المغول.

وعلى الرغم من الجهد الذى بذله جيش المغول وقادة الكفار، فإن مجاهدوالقلعة قد استطاعوا المحافظة على مداخلها، حتى جاء واحد من المغول البارزين، من الموضع الذى كان قد توجه إليه، وحينما اقترب من منكوته، أخذ يلومه قائلا: " أى قلعة وحصن هذا الذى تقضى كل هذا الوقت من أجل الاستيلاء عليه ! وتبطئ طوال هذه الفترة فى السيطرة عليه، إنى أستطيع السيطرة على تلك القلعة بهجمة واحدة. "

وهكذا استعد فى تلك الليلة، وسلح الكثيرين من المغول. وعلى حين غرة، وفى نوبة الحراسة الثالثة، وكان وقت راحة حراس القلعة ورجالها، نفذ إلى منفذ لها. وكان أهل القلعة من فضل الله قد خلطوا خلف تلك الفتحة ماء مع طين كثير، وعمقوا الخنادق الموحلة بالطين بعمق يزيد على حربة. وحينما دخل قائد المغول تلك الفتحة، مفترضا أنها أرض، وقع فى ذلك الخندق الموحل وغرق. فصاح أهل القلعة، وحملوا المشاعل، وتدرعوا بالأسلحة، وارتد المغول الآخرون .

وفى اليوم التالى أرسلوا أشخاصا يقولون: ردوا ذلك القائد الذى أسر بالأمس، حتى ينفض الجيش من حول القلعة. ولما كان هذا اللعين قد ذهب إلى الجحيم، وغاص فى الماء والطين الأسود، ولم يكن رده ممكنا، فقد أنكر أهل القلعة أسره.

وخلاصة القول أن فضل الخالق تعالى قد هيأ أسبابا كى يبقى مسلموأچه بمأمن عن طائلة عدوان الكفار. وكان أحد هذه الأسباب أنه عندما جاء جيش المغول إلى أچه، رفع مسلمو القلعة الأمر إلى بلاط دار الملك دهلى (حرسها الله) لطلب العون، فجمع السلطان علاء الدين عليه الرحمة والمغفرة جيش الهند بمساعدة ألغ خان الأعظم وجهده، وسار إلى الشمال عازما على رد جيش المغول .

وكان كاتب هذه الكلمات منهاج بن سراج فى خدمة الركاب الأعلى فى ذلك السفر والجهاد. وحينما وصلت الرايات العليا إلى نهر بياه (السند) توجه إلى أجـــه على شاطئ هذا النهر، كما سبق ذكر ذلك وتحريره.

وحينما علم جيش المغول بمجيء جيش الإسلام، وصـــلت طليعـــة الغـــزاة بالقرب من تلك البلاد، ولم تر فى نفسها القدرة على المقاومة، فعادوا من أمام قلعة أجه دون تحقيق هدفهم، وذهبوا ، وبقيت هذه القلعة فى سلام من شـــر الملاعـــين، بفضل جيش الإسلام والعناية الربانية. والحمد لله على ذلك .

ذكر كرامة الإسلام

روى الثقات أنه حينما اكتسب كيك قوة فى الملك، وأهلك أبناء أعمامه الذين كانوا أبناء چغتاى، وانقاد له قواد المغول وأبطالهم كافة، أرسل جيوشا لاحصر لها إلى الصين مرات عديدة، وتحققت له انتصارات فى تلك البلاد .

ولكن تسلطت على كيك جماعة كبيرة من كفـــار الصـــين ووثنـــى تنكـــت وطمغاج، ممن كانوا يدعون " توينان ". وكانت تلك الجماعة تجد دائما فى إلحـــاق الأذى بالمسلمين، وتثير دائما ما يضر أهل الإسلام، كى يقتلعوا أساس الإسلام من الجذور، ويستأصلوا شأفة المسلمين، ويمحوا اسم المؤمنين وأثرهم مـــن صـــحائف تلك البلاد.

وحدث أن جاء إلى كيك واحد من هؤلاء الكهنة البوذيين، وكان لـــه صـــيت ذائع فى بلاد الصين والتركستان وقال له: " إذا أردت أن يبقى لك عـــرش الملـــك وجيش المغول، فعليك بأحد أمرين: إما أن تقتل المسلمين كافة، أوأن توقف توالدهم وتناسلهم."

وظل مدة يحث كيك على هذا الأمر، ويغريه بهذا الفساد، ويظهر كثيرا من لطائف الحيل. ولم يكن من الميسور قتل المسلمين كافة لكثرتهم فى بلاد الصين والتركستان وتنكت، لذا فقد رأى أن يكون الأصوب إصدار الأمر بجعل جميع المسلمين خصيانا وحجبهم عن النساء، حتى ينقطع نسلهم، وتسلم مملكة المغول من خروجهم وفسادهم .

وحينما استقر هذا العدوان وكمن ذلك الظلم فى فكر كيك على هذا النحو، واستراح لهذا الأمر، أمر بإصدار مرسوم بذلك إلى جميع أنحاء ممالك المغول، من أقصى چين وماچين حتى أقصى بلاد العجم والعراق والروم والشام وبأن ينقاد جميع قواد المغول المهيمنين على أنحاء الممالك لهذا الأمر على النحوالمذكور وأن يمتثلوا له.

وبعد أن كتب هذا المرسوم أحضر إلى كيك، فختمه بالشنگرف (اللون الأحمر) الذى يسمى طمغاج باللغة التركية، ثم أعطى المرسوم لذلك القائد المغولى قائلا: "أبلغ هذا المرسوم إلى جميع الممالك بنفسك، وجد فى هذا الأمر إلى أقصى مدى".

وبينما كان هذا الملعون الحقير يخرج من بلاط كيك ممسكا بالمرسوم فى يديه بفرح واستعلاء كامل، كان الكلب الذى يقيم دائما على أعتاب البلاط وحول العرش وحول مركب كيك الخاص وموكبه الخصوصى ، ويحمل الخاتم الملكى لكيك على طوق ذهبى مرصع حول رقبته، ويفضل ألف أسد من أسود العرين، وألف فهد من خيرة الفهود فى جرأته وهجمته فى البلاط حين خروج ذلك القائد المغولى.

فأمسك بالكاهن كما يمسك الذئب بالشاة ، وكما تمسك النار بالقطن، وطرحه أرضا، وفى اللحظة نفسها انتزع بأسنانه خصية ذلك الحقير من جذورها، فقضى عليه فى الحال بقوة سماوية وتأييد ربانى، فظهر فى حق ذلك الخسيس سيىء الفعال الملعون أثر حديث دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى كان قد قاله في حق ابن أبى لهب: "اللهم سلط عليه كلبا من كلابك".

وهكذا منح الله تعالى مثل هذه الكرامة لدين الإسلام ويمن الملة الحنيفية ، وذلك الإعجاز لدولة الأمة المحمدية وأتباع السنة الأحمدية، حتى سلموا من شر هؤلاء الملاعين فى عصمة البارئ تعالى.

وحينما شاهد كيك والكهنة البوذيون والحاضرون من المغول الكفار مثل هذا البطش وتلك العقوبة تراجعوا عن تلك الفكرة الفاسدة، ورفعوا أيديهم عن أذى المسلمين ومزقوا ذلك الطمغاجى تمزيقا. والحمد لله على نصرة الإسلام وقمع الأصنام.

فلما انقضى عام ونصف العام من حكم كيك، جرى القضاء بالأجل، ووضع كيك لقمة الموت فى فم الحياة على مائدة الأجل. ونذكر هنا كيف كان ذلك:

ذكر موت كيك الملعون

هكذا روى الثقات أن جماعة القواد كانوا دائما يغرون كيك بإيذاء المسلمين، وكانوا يحثونه على إيذاء أهل الإيمان، وكان هناك إمام فى تلك البلاد من علماء أهل الإسلام، يتحلى بفتوحات علم الطريقة ، ويزدان بصنوف علم الشريعة ، ويتجمل بفنون دقائق الحقيقة، ظاهره محلى بزينة العلم والفضل، وباطنه متصف بأنوار الصفاء والعمل، حتى صار يشار إليه بالبنان فى دين الإسلام، وفى سنة

المصطفى صلى الله عليه وسلم، كان قطبا عالى المدار، وكان يلقب بالإمام نور الدين الخوارزمى عليه الرحمة .

وحدث أن التمس جماعة المسيحيين والقساوسة وطائفة الكهنة البوذيين الوثنيين من كيك أن يحضر إمام المسلمين هذا، حتى يناظروه ليثبت لهم رجحان الدين المحمدى ونبوة محمد وإلا وجب قتله.

وبناء على هذا الطلب تم إحضار ذلك الإمام الربانى فكانت عصمة الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣٠] تحوط دينه بحراسة الآية: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[٣١].

وحينما جلس الإمام فى ذلك المجلس، سألوه أى شخص كان محمد ؟ وضح لنا ذلك. فقال الإمام الربانى: " محمد هوخاتم النبيين وسيد المرسلين ورسول رب العالمين، رأسه مزين بتاج ﴿لَعَمْرُكَ﴾[٣٢]، وصدره محلى بدرع ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾[٣٣]، موسى عاشق لمنقبته لقوله: "اللهم اجعلنى من أمة محمد".

وعيسى مقدم كوكبته لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٣٤].

فقالت تلك الجماعة من الكفار: " النبى هومن يكون روحانيا محضا، ولا يميل إلى شهوة النساء، ولا يلتفت إليها مثلما كان عيسى، وقد كان لمحمد تسع زوجات، وكثير من الأولاد، فكيف يتأتى ذلك ؟ "

قال الإمام الربانى: "كان لداود الرسول عليه السلام تسع وتسعون امرأة مصداقا للآية: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[٣٥]. وكان لسليمان صاحب المكنة ثلاثمائة وستون زوجة فى ذمته، وكانت له ألف جارية يخدمن فراشه."

فأنكرت جماعة الكفار نبوة داود وسليمان عليهما السلام من قبل التعنت واللجاجة والمكابرة والإصرار وقالوا لقد كانوا ملكين.

وفى نهاية الأمر حينما ضعف تماما اعتراض هؤلاء الملاعين، وابتعد الصدق عن أقوالهم، كفوا عن المعارضة، فرسموا نقش العدوان والإيذاء على صحائف المعاملة، والتمسوا من كيك قائلين: " قل للإمام أن يؤدى ركعتين من الصلاة على طريقة الشريعة المحمدية، حتى يظهر لنا ولك حركاته الممجوجة فى أداء تلك العبادة.

فأمر كيك ذلك العالم بأن ينهض ويؤدى ركعتين لصلاة الجماعة على سنة دينه، فنادى الإمام الربانى رضى الله عنه واحدا من المسلمين، وكان قريبا منه، ونهض وأقام سنة الأذان وإقامة صلاة الجماعة بدقة ثم قرأ آية ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣٦). من قلبه وروحه مثل الخليل، وألحق بها تحريمة الصلاة ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٣٧).

ثم بدأ فى الصلاة وأدى أركان القيام والقراءة والركوع والسجود مع جميع الفرائض والسنن وواجبات الصلاة. وحينما وضع رأسه للسجود، أحضر كيك عدة أشخاص من الكفار، أخذوا يضايقون الإمام الربانى وذلك المسلم الآخر الذى كان يتبعه فى الصلاة كثيرا أثناء السجود، ودقوا رأسيهما بقوة على الأرض، وقاموا معهما بحركات سمجة عساهم يخرجونهما من الصلاة.

وكان الإمام الربانى والعالم الدينى يتحمل كل ذلك الاعتداء والإيذاء ويؤدى أركان الصلاة وينفذ شروطها ، ولم يخرج من صلاته قط، فلما سلم رفع وجهه إلى السماء، وحقق شروط ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (٣٨)، ثم نهض مستأذنا وعاد إلى منزله.

وفى تلك الليلة سلط الحق تعالى وتقدس بقدرتـــه الكاملـــة وقهـــره المـــاحق للأعداء داء على كيك، وركله بسكين الأجل. وهكذا ذهب كيك فى تلك الليلة نفسها إلى الجحيم ، وتخلص المسلمون من ظلمه وعدوانه.

وحينما شاهد أبناء كيك ذلك البطش والقهر، اعتذروا للإمام فى اليوم التالى، وطلبوا رضاءه. رضى الله عنه وعن المؤمنين.

السابع باتو بن توشى بن چنگيزخان

ذكرنا قبل ذلك أن توشى كان الابن الأكبر لچنگيزخان. وحينما رحل توشى عن الدنيا نتيجة لتآمره على أبيه، بقى بعده أبناء كثيرون كان أكبرهم جميعا باتووقد أجلسه چنگيزخان مكان أبيه، وخضعت له ممالك قبائل التركستان مـــن خـــوارزم وبلغار وبرطاس وسقلاب حتى حدود الروم كلها.

وفى تلك الديار استولى على جميع قبائل القبچاق والقنكلى ويمـــك والبـــرى وروس وچركس وآس حتى بحر الظلمات، وكان رجـــلا موفـــور العقـــل ومحبـــا للمسلمين ، وكان المسلمون يعيشون فى كنفه مرفهى الحال؛ حيث كانت المســـاجد قائمة فى معسكره وبين قبائله، وقد توفر لها الأئمة والمؤذنون، وفـــى مـــدة ملكـــه وعهد حياته لم يلحق ببلاد الإسلام أى ضرر، أو من قبل أتباعه أو من جيشه نتيجة لأوامره، وكان لمسلمى التركستان فى ظل حمايته رفاهية كبيرة وأمن لا حد له.

وكان لباتو نصيب معين من كل ولاية دخلت تحت سلطان المغول، فنصـــب عماله فى ذلك الجزء التابع له، وانقاد له جميع عظماء قـــواد المغـــول، وكـــانوا ينظرون إليه مثل أبيه توشى.

وحينما توفى كيك، وذهب إلى الجحيم، اتفق الجميع على تنصيب باتوملكـــا (باستثناء أبناء چغتاى) والتمسوا منه أن يقبل عرش المغول وأن يجلـــس للحكـــم

بحيث يمتثل الجميع لأمره، فلم يقبل باتوفأجلسوا منگوخان بن تولى بن چنگيزخان، كما سيجىء ذكره بعد ذلك.

وقد روى بعض الثقات أن باتوكان قد أسلم فى السر والخفاء، إلا أنـــه لـــم يظهر ذلك. وكان باتو يثق فى أهل الإسلام ثقة تامة، وقد حكم مدة ثمانية وعشرين عاما تقريبا ثم مات (رحمه الله إن كان مؤمنا، وخفف عنه العذاب إن كان كـــافرا) وقد دفنوه طبقا لتقاليد المغول.

وكان المتبع عند هذه الطائفة أنه حينما يموت واحد منهم، يعدون موضعا فى باطن الأرض بقدر منزلة ذلك الملعون الذى يكون قد ذهب إلى جهـــنم ومكانتـــه، ويزينون ذلك المكان بسرير وسجادة وأوانٍ وأموال كثيرة مع ســـلاحه، ويـــدفنون معه كل ما كان خاصا به، كما يدفنون معه فى ذلك المكان بعض النســـاء والعبيـــد وأعز الأشخاص لديه، وعندئذ يردمون (لعنهم الله) سطح ذلك المكـــان، ويجـــرون الخيل فوقه، بحيث لا يبقى له أثر يدل عليه، وعادتهم هـــذه معروفـــة لـــدى أهـــل الإسلام كافة.

وقد سمعت فى هذا الشأن قصة عجيبة، نوردها لتزيد إيمان القـــراء بـــأمر الآخرة. والله أعلم.

حكاية عجيبة

فى سنة ثمان وأربعين وستمائة سمعت رواية من سيد صادق القـــول كـــان يسمى رشيد الدين حكيم البلخى، حينما جاء من خراسان إلى الهند للتجارة، وكـــان يصاحب كاتب هذه الطبقات منهاج بن سراج فى سفر ملتان، حيث قدم إلى هنـــاك ليحظى بمقابلة سلطان سلاطين الإسلام .

وقد روى هذا السيد رشيد الدين الحكيم قائلا: " إن واحدا من عظماء المغول كان لديه الكثير والعديد من الخيل والخدم والمال والحاشية، وكان قد ذهب إلى الجحيم في بلاد قراقرم المغولية.

فرتبوا مكانا في غاية الأبهة لدفن ذلك الملعون، ووضعوا السلاح والأموال الوافرة والسجاد والأواني الكثيرة التي كانت عنده، وأعدوا تابوتا مزينا، وأرادوا أن يدفنوا معه أحب الناس إليه، فتشاوروا أي شخص يدفنونه من خدمه حتى يؤنسه.

وكان هناك شاب قد وقع في أسر ذلك المجوسي حينما كان طفلا على الحدود بين ترمذ وخراسان في أوائل واقعة خراسان، وبعد أن بلغ الرشد وصار شابا ورجلا ووصل إلى مرحلة الرجولة، أصبح في غاية الشجاعة والمهارة، وصارمحنكا وكفئا، حتى أصبحت جميع الشئون العامة والخاصة لذلك الملعون تحت تصرفه، فقد كان يعتبره مثل ابنه، ولهذا السبب دخلت كل أموال ذلك المغولي ومواشيه وما كان يملكه في حوزة الشاب.

وكان كل خدم المغولي وأتباعه تحت إمرة هذا الشاب، فلم يكن أي واحد منهم يتصرف دون إذن الشاب في أي شيء يخص هذا الملعون، فأجمع الجميع في ذلك الوقت، وحزموا أمرهم على هلاك ذلك الشاب، حيث لم يكن لذلك المغولي شخص أحب إليه من ذلك الفتى، لذا وجب دفنه معه.

وكان هدفهم أن يقبضوا عليه، ويثأروا منه بسبب تسلطه، فاتفق الجميع على هذا القول، وبقي ذلك الفتى المسلم في حيرة وسط هذه الأحداث، واستسلم للموت، فلما رأى أنه لا مفر ولا مهرب إلا غياث المستغيثين بيد التضرع في حبل أمن الآية ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [٣٩]. فأحضر غسلا طاهرا، وارتدى ثوبا نظيفا، ودخل ذلك القبر.

وحينما ردموا المكان، اتجه الشاب المسكين إلى القبلة فى ركن من ذلك المكان، وصلى ركعتين، وانشغل بذكر كلمة الشهادة، وفجأة فتحت زاوية، ودخل شخصان ذوا هيبة بحراب نارية ، يفزع من منظرهما مائة ألف أسد، بحيث تسللت أشعة النار من حرابهما حول التابوت المغولى، ووقع شرر من تلك الشرار النارية بمقدار رأس إبرة على وجه الشاب وحرقه وجرحه، وقال أحد هذين الشخصين: "يبدعون فى هذا المكان مسلما". فالتفت الآخر إلى الشاب قائلا: "من أنت؟" قال الشاب: " عاجز وأسير وضعيف أسر على يد هذا المغولى ." قالوا: " من أين أنت ؟ " قال: "من ترمذ" فوجهوا حرابهما على زاوية القبر، فانشق ركن ذلك الموضع بمقدار باب فقالا لى أخرج فخرجت، ورأيت نفسى فى بلاد ترمذ بينما الطريق من قراقرم المغولية حتى ترمذ يستغرق ما يزيد على ستة أشهر".

ويقيم ذلك الشاب حتى الآن فى حدود ترمذ فى أملاكه وبين أهله، ولا يجديه أى مرهم يضعه على جرح شرارة النار تلك، ولا يزال يعانى من رشح فى موضع يماثل رأس الإبرة. سبحانه المقدر لما يشاء.

خلد الله تعالى سلطان الإسلام على عرش السلطنة والمملكة ، وأدامه آمين.

الثامن منگوخان بن تولى بن چنگيزخان

روى الثقات أن تولى كان الابن الأصغر لچنگيزخان، وقد خرب مدن خراسان (كما ذكر ذلك فى حوادث مدينة هراة) وكان له أربعة أبناء كان الأكبر منگوخان، والثانى هولاكو، والثالث أرق بوقا ، والرابع قبلا. وحينما ذهب كيك إلى الجحيم، طالب أبناء چغتاى بالملك، وكان لهم أتباع وفرسان كثيرون، ولم يوافقوا على ملك منگوخان.

وكانت بداية هذا الأمر أنه حينما مات كيك، اتجه كل عظماء المغول إلى باتو قائلين له: "يجب أن تكون أنت ملكنا؛ لأنه بعد جنگيزخان لا يوجد أى شخص أعظم منك، فالعرش والتاج والقيادة أولى بك". فأجاب باتو: "إنه لى ولأخى بركا فى هذه الناحية سلطان كبير وممالك شتى لا يتيسر ضبطها مع ضبط ممالك الصين والتركستان والعجم، وبما أن عمنا تولى الابن الأصغر لجنگيزخان قد رحل عن الدنيا فى شبابه، ولم يتمتع بالملك، فالصواب هو أن نمنح الحكم لابنه، ونجلس منگوخان على العرش، وإذا ما أجلسته أنا باتو على العرش أكون أنا القائد فى الحقيقة". فاتفق الجميع على هذا الرأى.

وحينما كانوا يجلسون منگوخان على العرش قال بركا وكان قد أسلم: "لقد انقضت دولة أهل الكفر، وأى ملك كافر يجلس على العرش لاتدوم دولته؛ فإذا رغبتم فى دوام دولة منگو واستمرارها، فلينطق منگو بالشهادة حتى يسجل اسمه فى دفتر الإسلام، وعندئذ يجلس للحكم".

فاتفقوا على هذا ونطق منگو بكلمة الشهادة(٤٠)، عندئذ أخذ بركا بيده، وأجلسه على العرش، وقدم له كل قواد المغول فروض الطاعة، إلا أتباع چغتاى وأبناءه الذين بدأوا التمرد وأظهروا العصيان، وأرادوا أن يغدروا خفية، ويهجموا فجأة على جيش منگوخان، ويقبضوا عليه ويقتلوه. فأرسلوا الرسل إلى منگوخان قائلين: "حينما تجلس على العرش، سوف نأتى طائعين للتهنئة".

وبهذه الحجة رحل الفرسان المغاوير ذوى العتاد التام والسلاح الوفير، عاقدين العزم على أن يحملوا فجأة على منگوخان، ويقضوا عليه هو وباتو ويقهروهما، ويستولوا على الملك. ولكن العبد يدبر والله يقدر.

فقد شاء التقدير السماوى أن يضيع جمل لأحد رعاة الإبل من معسكر باتو ومنگو، فتوجه الجمّال إلى الصحراء للبحث عن الجمل، وأخذ يتجول فى كل ناحية حتى وجد نفسه فجأة وسط معسكر أبناء چغتاى.

فلما وقف على حال ذلك الجيش، كان يجيب كل من يسأله: "من أنت؟ ومن قوم من؟ ومن جند من أنت؟ "بأن ينسب نفسه لواحد من أمرائهم؛ لأن لغة رعاة الإبل وجند چغتاى لغة واحدة، حتى حل الظلام، واغتنم الجمَال الفرصة، وتسلل من وسط جنود أبناء چغتاى، وعاد إلى معسكره، وأخبر باتو ومنگوخان بما حدث.

وحينما وصل الخبر إلى مسامع منگوخان، أعد الجيش بعد أن احتاط للأمر تماما، واستقبل جيش أبناء چغتاى بالحرب والقتال، فقد هجم منگوخان وجيش باتو على تلك الجماعة قبل أن يصل جيشهم إليه، وقتل من جنوده ما يقرب من عشرة آلاف مغولى من القادة المشهورين والعظماء البارزين، وأعملوا السيوف واستقبلوا بها كل من كان من أتباع چغتاى وجيشه، فقضوا على الجميع، واستراح خاطره، واستقر الملك لمنگوخان، واعتلى عرش الصين وبلاد التركستان.

وهكذا فعل منگو بحيث لم يبقَ أثر من جيش چغتاى على وجه الأرض، إلا بعض أبناء چغتاى الذين ذهبوا إلى الصين عند آلتون خان فى طمغاج.

وبعد ذلك أرسل منگوخان الجيوش إلى قهستان التابعة للملاحدة. وفى خلال السنوات التى ذهبوا فيها إلى تلك البلاد، وعسكروا وأقاموا فيها، ضعف أهل قهستان، وعجزوا، فاستولت جيوش منگوخان على مدنهم وقلاعهم، وخربوا القلاع وسقط الملاحدة ، وذكرهم على نحو ما سيأتى تحريره.

ذكر سقوط الملاحدة لعنهم الله أجمعين

كان سبب إرسال الجيوش إلى بلاد الملاحدة وقلاعهم، أنه فى بداية الأمر وأوائل العهد وضع الحسن بن الصباح (لعنه الله) قواعد مذهب الملاحدة، وسن قانون ذلك الضلال، وعمر قلاع ألموت ولمبسر التى كانت عاصمة الإلحاد الكبرى. وكانت تلك الجماعة (عليها لعنات الله تترى) تدعوه مولانا، وكان الحسن

قد اشترى القلعة بمبالغ باهظة من ديالمة العراق، وأحضر فيها جارية من جواريه حاملة منه، وقال للخلق إن هذا الحمل من المستنصر المصرى، وقد أحضرتها من عند الخصوم، هربا إلى هذا الموضع، وسوف يكون إمام الزمان ومهدى الأوان من نسب هذا الحمل، وردد (لعنه الله) قوله بكلمات لا طائل منها لا يقول عاقل مثلها قط، ولا يصدقها لبيب.

فلما اشترى تلك القلاع، وعمر قلعة لمبسر، أنفق أموالا دون حساب في تعمير تلك القلعة بالذخيرة. وهذه القلعة تقع على جبل في أنحاء مدينة قزوين، حيث كان سكان مدينة قزوين كافة يتبعون مذهب أهل السنة والجماعة، وهم طاهروالمذهب، أصفياء العقيدة، وبسبب ضلال الباطنية والملاحدة كان القتال على نحودائم بين الطرفين، والجدال والنزاع على أشدهما .

وقد روى الثقات أنه كان لجميع الخلق في مدينة قزوين سلاح كامل وعتاد حرب معد، بحيث إنه كان لكل واحد من أهل السوق سلاح يدوى معد وحاضر في الدكان، وكانت الحرب تنشب كل يوم بين أهل قزوين وبين ملاحدة الموت، حتى ذلك الزمن الذى كان فيه خروج چنگيزخان، واستيلاء المغول على العراق والجبال.

وقد سافر القاضى شمس الدين القزوينى وكان إماما صادقا وعالما محققا من قزوين إلى الخطا عدة مرات، وتحمل ألم مفارقة الأوطان حتى عهد الملك منگوخان، فذهب إليه للمرة الثانية بالطريقة التى يسرت له وطلب المدد، وعرض شرور الملاحدة وفسادهم في بلاد الإسلام.

وقيل إنه تفوه في حضور منگوخان بكلمات عنيفة بسبب قوة حميته للإسلام والدين، بحيث استولى الغضب والكبرعلى منگوخان؛ لأن القاضى وصف قوة ملكه وسيطرته بلفظ العجز والضعف، فقال منگوخان: "أى عجزقد شاهده القاضى في

بلادنا، حتى يتفوه بمثل هذه الكلمات الجافة؟ "قال القاضى شمس الدين: "ماذا يكون الحال وقد بنى جماعة من الملاحدة عدة قلاع، ودينهم على خلاف الدين المسيحى، ومغاير للدين الإسلامى والمغولى ، وهم يغرونكم بأموالهم، ويترقبون فرصة أقل وهن فى دولتكم ، لتخرج تلك الجماعة من بين الجبال والقلاع، وتقضى على بقية أهل الإسلام، بحيث لا يتركون من الإسلام أثرا.

كان هذا الكلام باعثا ومحرضا لمنكوخان على قمع قلاع الملاحدة وبلادهم فى قهستان وألموت، فأمربأن تتوجه جيوش التركستان التى كانت موجودة فى بلاد إيران والعجم من خراسان والعراق إلى قهستان وبلاد الموت.

وفى مدة عشر سنوات أوأكثر فتحوا جميع البلاد والقلاع، وأعملوا السيوف فى الملاحدة كافة باستثناء النساء والأطفال الصغار، وأرسلوا الباقى إلى الجحيم، فظهرت عظمة الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ (٤١).

وقد سافر هذا الداعى منهاج بن سراج كاتب هذه الطبقات ومؤلف هذه التواريخ ثلاث مرات برسائل إلى هذه الديار. وكانت المرة الأولى من قلعة تولك فى شهور إحدى وعشرين وستمائة، بعد أن كانت خراسان قد أخليت من جيش المغول، وبقيت فى شظف العيش بسبب ندرة الأثواب وقلة الحوائج الضرورية، حيث كانت قد تخلصت من وقائع الكفار.

وكان منهاج قد سافر من قلعة تولك إلى اسفزار بأمر من الملك تاج الدين حسن سالار خرپوست، حتى يفتحوا طرق القوافل، ومن اسفزار إلى قاين، ومن هناك إلى قلعة سرتخت وجواشير.

وفى ذلك الوقت كان حاكم بلاد قهستان هوالمحتشم شهاب منصور أبوالفتح، وقد وجدته على درجة كبيرة من المعرفة بالعلم والحكمة والفلسفة، حتى إنه لم يكن

يظهر في بلاد خراسان ند له في الفلسفة والحكمة، وكان كثير الإكرام للغرباء، كما كان يأوي ويرعى مسلمي خراسان الذين كانوا قد التجأوا إليه.

ولهذا السبب كانت مجالسه مع علماء خراسان مثل إمام العصر أفضل الدين باميانى والإمام شمس الدين خسروشاهي وعلماء خراسان الآخرين الذين كانوا قد وصلوا إليه فأعزهم جميعا، ورحب بهم بحيث يذكر الثقات أنه خلال عامين أوثلاثة من العهود الأولى لخراسان، وصل إلى العلماء والغرباء ألف وسبعمائة خلعة وسبعمائة جواد من الجياد الأصيلة من خزانته العامرة.

ولما ازدادت شفقة ذلك المحتشم، وكثرت إنعاماته على المسلمين، وطغت على دعوته، أبلغ جماعة من الملاحدة تلك القصص إلى قلعة ألموت قائلين: "لقد أوشك المحتشم شهاب على أن يعطي كل أموال بيت الدعوة إلى المسلمين".

فصدر الأمر من قلعة الموت بأن يتوجه إليها شهاب، وتم إرسال المحتشم شمس الدين حسن اختيار لقيادة قهستان.

وحينما عاد داعي الدولة القاهرة من عند ذلك المحتشم شهاب، ذهب إلى مدينة تون لشراء حوائجه من الأثواب، ثم عاد من هناك إلى قاين واسفزار وتولك.

وبعد مدة سافر منهاج من تولك إلى الملك ركن الدين محمد عثمان المرغني (طاب ثراه) في خايسار بغور في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وذهب بناء على أمر هذا الملك السعيد مرة ثانية إلى قهستان برسالة حتى يفتحوا طريق القوافل، وذهب من خايسار إلى فراه ومن هناك إلى قلعة كاه بسيستان، ومن هناك إلى قلعة كره، ومنها إلى طبس، ومنها إلى قلعة مومن آباد، ثم إلى قاين حيث رأى هناك المحتشم شمس الدين، وكان رجل حرب، وعاد من هناك إلى خايسار.

وفى شهور سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وقرر هذا الكاتب منهاج بن سراج السفر إلى الهند، فذهب إلى فراه بإذن الملك ركن الدين محمد خيسار (طاب ثــراه) ليشترى قدرا من الحرير، وحينما وصل إلى أنحاء فراه، وكان الملك تــاج الــدين ينالتگين الخوارزمى (الذى سبق ذكره فى طبقة ملوك نيمروز) قد تولى الملك فى سجستان.

وكانت قد وقعت خصومة بين تاج الدين وبين الملاحدة بسبب قلعة شهنشــاه الموجودة فى أنحاء مدينة "نيه"، وانهزم تاج الدين أمام جيش الملاحدة، وجاء إلــى فراه، واستولى عليه الخوف، وكان يتوقع أي واحد من رجال البلاط المحيطين بــه أن يذهب إلى قهستان، ويعقد مصالحة ومعاهدة بينه وبين قائد قهســتان المحتشــم شمس الدين .

ولم يكن أحد رجال البلاط يقبل ذلك السفر، حتى أخبروه عن وصــول هــذا الداعى وهومنهاج بن سراج إلى أنحاء فراه ، فأرسل الراحلــة والرســل ورجــال البلاط لاستقبال الداعى، واستدعاه، وحينما وصل منهاج إلى حضرته، التمس تاج الدين منه ضرورة التدبر لعقد صلح، والذهاب إلى قهستان، وقــال لــه: " ســوف يصحبك فى هذا الأمر ابن الملك ركن الدين خيسار، وسوف تكــون أنــت حامــل الرسالة، وهوالوسيط. "

فذهب الداعى إلى قهستان بناء على هذا الالتماس، وكان جــيش الملاحــدة بالقرب من مدينة " نيه ". وحينما وصل إلى حدود قهستان ،غير طريقه مضــطرا، وذهب إلى مدينة " نيه "، وعقد ذلك الصلح بين تــاج الــدين ينــالتگين وزعــيم الملاحدة شمس الدين الملحد.

وبعد العودة من ذلك السفر، توجه الداعى إلى تاج الدين ينــالتگين فقــال لــه بوجوب الذهاب إلى قهستان مرة أخرى وطلب الحرب من الملاحدة، ولم يلب داعــى الدولة السفر الثانى؛ لأنه كان قد اعتزم السفر إلى الهند، وكان يهتم جدا بهذا السفر.

فلم يقبل تاج الدين ينالتگين امتناع الداعى عن السفر، وأمر فحبسوه لمدة ثلاثة وأربعين يوما فى قلعة صفهبد ستان، حتى أرسل الملك ركن الدين خيسار طاب ثراه رسالة من بلاد الغور.

وقد نظم الداعى أيضا قصيدة يشرح فيها أحواله فى السجن، حتى نجا بفضل الله تعالى من تلك القلعة. ونذكر هنا خمسة أبيات من تلك القصيدة، حتى تكون تحت النظر المبارك لسلطان السلاطين. أدام الله سلطنته. آمين.

إلى متى يريق الفلك الأزرق دموعى البللورية

على وجهى الأصفر فيحيله إلى اللون الأحمر

تأوهى كدخان الجمار فلا غرو

إذا كنت أيتها الدموع ماء ورد يتصاعد.

سريرتى ليست سوداء، ولم أعمل سوءا

فلماذا أنا محبوس وأسير فى قلعة صفهبدى ؟

لست أنا طائر السيمرغ، وليس هذا الجبل جبل قاف

ولا يطيب وجود الببغاء فى الحبس إلى الأبد .

منهاج أفضل أن يكون طريقك المستقيم فى الفضاء الواسع

ولا يتأتى الطريق المستقيم من الاستناد إلى القلعة.

وهى قصيدة متوسطة، ونسختها الكاملة ليست موجودة، وقد اختصرت إلى هذا القدر.

أدام الله تعالى شخص ملك العالم إلى أبعد مدى ممكن.

نعود إلى السياق التاريخي: كان في بلاد الملاحدة مائة وخمسة من الحصون والقلاع، سبعون قلعة في بلاد قهستان، وخمس وثلاثون قلعة في جبال العراق تسمى قلاع ألموت. وقد طالت مدة إقامة جيش المغول، وزاد القتل والأسر في جماعة الملاحدة، وكان لمولانا علاء الدين محمود بن جلال الدين حسن نومسلمان غلام قتل في قلعة لمبسر .

وحدث أن خرج ابن علاء الدين من تلك القلعة، والتحق بمعسكر المغول، فأخذوه مع أتباعه إلى منكوخان، وصدر الأمر فقتلوه أثناء الطريق، وخرب المغول قلاع الملاحدة كلها، واستولوا على مدنهم، وخربوها، إلا قلعة گردكوه التي تقع بين خراسان والعراق.

وحتى هذا الوقت، وقد انتهت شهور سنة ثمان وخمسين وستمائة مضت مدة عشر سنوات، وهذه القلعة محاصرة، فقد تحصن فيها ما يقرب من مائة رجل أو مائتين، وحتى الآن لم يستول المغول عليها. دمرهم الله.

ذكر حادثة وقعت للمحتشم شمس الدين

رويت حكاية عن زاهد من زهاد الإسلام، جديرة بأن تكون تحت نظر سلطان السلاطين، حيث تدعو للاعتبار، فحينما اتفق لداعي الدولة القاهرة منهاج بن سراج كاتب هذه الطبقات السفر إلى قهستان للمرة الأولى ومقابلة المحتشم شهاب الحكيم محب المسلمين: "رأيت لديه زاهدا مسنا من نيسابور كان من جملة المقربين إلى محمد خوارزم شاه ووالدته الملكة جهان رحمهما الله، ففي عهد دولة محمد خوارزم شاه حظي هذا الزاهد بالقرب والقبول لدى السلطان ووالدته الملكة جهان، حيث كان يحفظ مصالح المحتشم شهاب الدين لدى عرش السلطان رعاية لحرمته، وكان يعز رسله وينجز مهماته لدى البلاط.

وحينما ظهر أمر جنكيز خان، وتفرق أهل خراسان وخوارزم، وذهب ذلك الزاهد لهذا السبب إلى قهستان عند المحتشم شهاب الدين، حظى بقرب تام بسبب ما قام به من خدمات سابقة، ورأى إعزازا وإكراما وافرين.

وحينما عزل المحتشم شهاب من قيادة قهستان، وذهب إلى قلعة الموت، وجاء المحتشم شمس الدين، لم يحظ هذا الزاهد بإعزاز من هذا المحتشم؛ لأنه لم تكن له به سابق معرفة، فأثرت غيبة المحتشم شهاب فى قلب الزاهد، وأراد أن ينتقم من المحتشم شمس أداء لحق المحتشم شهاب الذى حل محله، وأن ينال الشهادة، وأن يقوم بالغزو.

وذات يوم دخل إلى بلاط المحتشم شمس، وقال له: "يجب أن اختلى بك، فعندى أسرار هامة سأقولها فى الخلوة ". فأخلى المحتشم بلاطه، لكن الزاهد قال: " لا آمن، فقد يحدث أثناء عرض الأسرار أن يدخل غريب، ويختل الترتيب، فلويأمر المحتشم أن أقفل باب البلاط من الداخل ليأمن قلبى من الخوف ". قال المحتشم: " صحيح يجب أن يقفل باب البلاط من الداخل". فنهض الزاهد الصادق وقفل باب البلاط من الداخل.

وجاء الزاهد أمام المحتشم وجلس، وكانت سنة ذلك المحتشم وعاداته أنه كان يحمل خنجرا فولاذيا لامع النصل على ذراعه دائما، وأحيانا كان يمسكه فى يديه، ثم التفت الزاهد إلى المحتشم قائلا: " أيجرى الظلم علىّ وفى مدينتك ومملكتك ؟ لماذا أعطوك هذا الخنجر؟ لتدفع به عن الضعفاء ظلم الظالمين وعدوانهم على الضعفاء، أعطنى الخنجر فى يدى ، حتى أرى هل هوحاد النصل أم لا .؟ "

فأعطى المحتشم الخنجر للزاهد فى يديه ، متصورا أن الزاهد رجل ضعيف لن يصدر عنه اعتداء، فأمسك الزاهد الخنجر بيده، وأعمله فى المحتشم ، وضربه

عدة ضربات محكمة، بحيث أحدث عدة جروح في جسد المحتشم ، وكان فصل الشتاء، ولما كان المحتشم يرتدى ثوبين من الشعر، والزاهد شيخ ضعيف، فلم يؤثر الضرب كثيرا، ولوكان الزاهد شابا، والفصل صيفا لكان المحتشم قد ذهب إلى الجحيم بدون شك.

وقد تلقى المحتشم الضربة ، ونهض وأمسك بالزاهد. وعلى الرغم من تلك الطعنة التي أصابته أمسك به وصاح بحيث كسر جماعة الملاحدة ممن كانوا في الدهليز وفي البلاط باب مجلسه، ودخلوا وقتلوا الزاهد رضى الله عنه وأرضاه.

ثم حدثت فتنة في المدينة، وقصد الملاحدة المسلمين، ليقتلوا الفقراء منهم. إلا أن المحتشم أصدر أمرا بسرعة، فنادوا بأنه يجب ألا يؤذى أحد أى مسلم؛ لأنه لا يجب قتل المسلمين كافة نتيجة لعمل شخص واحد.

وفي أثناء تلك الفتنة استشهد إمام عظيم وعالم، كان يسمى نجم الدين سرباري الرومي لعداء كان بينه وبين أحد الملاحدة، ولم يلحق الباقون أذى بمسلم قط.

وبعد ذلك صدر الأمر، فشنقوا الملحد الذى قتل الإمام. والفائدة من سرد هذه المعاني هوأنه يجب أن يكون الملوك دوما ذوى حزم ، وألا يكون السلاح بعيدا عنهم قط، كما لا يصح أن يكون لهم ثقة واطمئنان في أحد. "

نعود إلى السياق التاريخي: حينما اعتلى منكوخان العرش ، منح أخاه هولاكومملكة إيران والعجم، ونصب أخا آخر له اسمه قبلا بعد انتصاره في العراق على رأس قبائل التركستان ، ثم أجلس أخاه أرق بوقا نائبا له في ممالك طمغاج، وجمع هوجيشا كبيرا، وذهب إلى بلاد الصين، حتى وصل إلى موضع تزايد فيه نفوق جياد جيشه نظرا لتغير الجو والعلف، فأرسل الرسل إلى التركستان وما وراء النهر، وطلب جيادا للجيش.

وقد روى الثقات أن النواب والعمال الذين كانوا فى بلاد التركستان وما وراء النهر اشتروا فى أقل من أسبوع ثمانين ألف جواد من سمرقند وبخارى، وضموها إلى ما كانوا قد اشتروه فى تركستان الشمالية، وأرسلوها إليه.

وقد ذكر أنه بعد فترة أحضر ملك الصين جيشا كبيرا، لايدخل تحت عد ولا حصر، وفى النهاية انهزم منگوخان، وحوصر فى جبل كان محاطا من كل الأنحاء ببحر وأرض موحلة، فهلك منگوخان فى ذلك الجبل مع جنود المغول جميعا بسبب الجوع. وكانت مدة حكمه تسع سنوات.

أدام الله تعالى عصر الملك سلطان الإسلام حتى انتهاء حياة الآدميين، وخلد الخان الأعظم فى الدولة والقيادة حتى انتهاء العالم.

التاسع هولاكو بن تولى بن چنگيزخان

هولاكوأخومنگوخان وابن تولى بن چنگيزخان، وتولى هذا كان الابن الأصغر لچنگيزخان. وحينما عبر چنگيزخان نهر جيحون، وجاء إلى خراسان، أرسل تولى إلى نيسابور وهراة ومرو، فاستولى تولى على هذه البلاد جميعها وخربها .

ويروى الثقات أن تولى كان شابا جميل الوجه، وقد مات بعد عودته من بلاد خراسان إلى التركستان ، وبقى عنه أربعة أبناء كما ذكرنا.

وكان منگوخان بن تولى بعد أن جلس على العرش، قد أرسل هولاكووإلى بلاد إيران والعجم، وأعطاه تلك البلاد، وأمر الجيوش التى ذهبت إلى العراق وتلك الطائفة التى كانت فى التركستان وختلان وطالقان وقندز والجيش الذى كان فى غور وخراسان وهرات وگرمسير كافة بإطاعة أوامر هولاكو.

وحينما جاء هولاكو إلى خراسان اختار بادغيس مقاما له، والتحـق ملـوك بلاد العجم بخدمته، وكان جيش جرماغون المغولى فى ناحية العراق دائـم القتـال والحرب مع جيش أمير المؤمنين، إلا أن المغول لم يستطيعوا الانتصار على جيش دار الخلافة بأى وجه، وكانت الهزيمة دائما تحل بالكفار، وخاصة فـى الاسـتيلاء على مدينة أصفهان.

وقد استلزم الأمر مضى خمس عشرة سنة حتـى أمكـن أن تسـلم مدينـة أصفهان، ولولم يستشهد قاضى أصفهان ، لما تيسر للكفار أخذ المدينة، فقـد ظـل جيش جرماغون وختيا نوين يقاتل مدة خمس عشرة سنة على باب مدينة أصـفهان وضواحيها، وكان أهل أصفهان خلال تلك المدة قد فتحوا أبواب المدينة بحيث لـم تكن هناك بوابة مغلقة أثناء الليل، ولم يسمح مجاهدوأصفهان للمغول بالنفاذ إليهـا لما كانوا عليه من جلد بالغ وشجاعة فائقة، حتى أرسلت جماعة المرتدين رجـلا قال لهم يجب قتل القاضى الذى قامت حرب الدفاع عن المدينة بسببه.

فلما قتلوا القاضى، استولوا على المدينة، حتى كانت شـهور سـنة خمـس وخمسين وستمائة ، حينما جاء حامل راية أمير المؤمنين الخليفة المستعصـم بـالله (رضى الله عنه) إلى العراق بناء على أمر دار الخلافة ، وكان اسمه سليمان شـاه إيوائى التركمانى (رحمة الله عليه) وهزم جيش المغول الـذى كـان فـى ديـار آذربيجان والعراق، وأرسل مغولا كثيرين إلى الجحيم، بحيث إن تلك الجماعة مـن جيش المغول لم تستطع مقاومة سليمان شاه وجيش دار الخلافة، فأرسـلوا الرسـل إلى هولاكو فى خراسان، وطلبوا منه المساعدة.

فأعد هولاكو جيش خراسان من المغول وغيرهم، وقرر السفر وسار للقتال. والله أعلم بالصواب.

ذكر سقوط دار الخلافة

حينما ذهب هولاكوإلى العراق، قبل ملك الموصل وكان يسمى بدر الدين لؤلؤ (لعنه الله) الدخول فى طاعة كفار المغول، وكان الأتابك أبو بكر ملك فارس قد قبل أيضا الاستسلام ودفع الخراج، وجاء الاثنان من ولايتيهما لمساعدة جيش الكفار.

واجتمعت جيوش الكفار مع هولاكوفى العراق، وتوجهوا إلى بغداد، وكان لأمير المؤمنين المستعصم بالله وزير فاسد الدين ورافضى اسمه أحمد بن العلقمى، وقد وقعت بينه وبين الابن الأكبر لأمير المؤمنين وكان اسمه الأمير أبا بكر خصومة بسبب الغارة على الروافض الذين كانوا يسكنون الكرخ ومشهد الإمام موسى بن جعفر رضى الله عنهما.

وكان الأمير أبوبكر ابن أمير المؤمنين قد أغار عليهم، وقتل البعض منهم، وانتقاما لذلك خالف وزير دار الخلافة وكان رافضيا فاسد الدين أمير المؤمنين، وكتب رسائل فى السر والخفاء إلى هولاكو، وتواطأ معه، واستدعى الكفار، وأرسل جيوش العراق المحتشدة من بغداد إلى الأطراف بموافقة الخليفة، وأظهر لأمير المؤمنين أنه قد عقد صلحا مع الكفار، ولا حاجة للجيش، فخلت بغداد من الجنود، وفجأة وصل جنود كفار المغول إلى أنحاء بغداد، وكانوا قد استولوا على جسر من ملك الموصل، وأقاموا الجسر جنوب بغداد، وعبروا دجلة.

وكانت تكريت قلعة فى غاية الاستحكام، فخرج مجاهدوها، وأحرقوا ذلك الجسر، وفى اليوم التالى أصلح المغول الجسر مرة ثانية، وقتلوا المسلمين، وقام كل من أمير المؤمنين أبى بكر ابن الخليفة، وأمير علم دار الخلافة سليمان شاه الإيوائى التركمانى بمهاجمة الكفار عدة مرات بقيادتيهما جنبا إلى جنب، وكانا قد حاربا المغول مدة ثلاثين سنة، وقاما بغزوات عديدة وفق السنة، وهزما جيش الكفار.

وفى المرة الأولى تعقبا كفار المغول من حدود بغداد حتى أصفهان ، حيث ذهب كثيرون من جيش الكفار إلى الجحيم، وكان الأمير حامل راية الخلافة سليمان شاه الإيوائى ملكا من قبائل "أنبوه" وهى قبائل التركمان الذين كانوا علــى درجــة كبيرة من الشجاعة والجلد والخبرة بالقتال ، وكانت لهم ميسرة أمير المؤمنين.

وفى خلال فترة ثلاثين سنة منذ وقت رحيل جرماغون إلى العراق، وحتــى هذا العهد، مارس سليمان شاه القتال بما يعيد إلى الأذهان سيرة رستم بن داســتان أيام الجاهلية، وعلى المرتضى رضى الله عنه فى عهد الإسلام .

ولما كان هلاكوقد انهزم أول مرة ، فقد جمع فى المــرة الثانيــة الفرســان والرجالة من الكفاروالمرتدين والأسرى من سائر أنحاء خراسان والعراق وتوجــه إلى بغداد بناء على دعوة الوزير الرافضى (عليه اللعنة) الذى سمح للجيش الــذى كانت بغداد مدينة السلام قد جمعته بالانصراف، فقد كان العصيان والارتــداد فــى طبع ذلك الملعون المدبر الرافضى .

وكان مسيحيو بغداد قد اتصلوا ســرا بهولاكــو أيضــا، وكتبــوا رســائل، واستدعوا جيوش الكفار. وقد علم ملوك الخليفة وسلاطينه بــأمر خــداع الــوزير، فعرضوا رسالة الوزير التى كان قد كتبها إلى هولاكوالملعون على الخليفــة ذات مرة، فشك فى نيتهم.

وكان سبب ذلك أنه كان بين الوزير والسلطان مجاهد الدين أيبــك رئــيس الديوان نزاع وخلاف، وكان رئيس الديوان على علم بأمر خلاف الــوزير وابــن الخليفة الأمير أبى بكر بسبب قتل الروافض، فأوصل رئيس الديوان هذا المعنى إلى مسامع أمير المؤمنين المبارك.

وحينما علم الوزير بسعى رئيس الديوان، أظهر للخليفة أن رئــيس الــديوان يريد أن يبعده عن الخلافة، ويجلس الأمير أبا بكر مكانه.

وحينما علم أمير المؤمنين بسعى كل من الطرفين، لم يكن يهتم بكلام أى واحد منهما. وعندما أظهر الملوك رسائل الوزير للخليفة، التى كان قد أرسلها إلى هولاكو، أجاب إن هذا مجرد وشاية أيبك رئيس الديوان، وإلا فالوزير لا يقوم بمثل تلك الأعمال.

فيئس الملوك من تلك الإجابة حتى وصل هولاكو إلى ما يقرب من عشرة فراسخ من بغداد، وتشاور كل من سليمان شاه وكان أمير الراية والملك عز الدين ابن فتح الدين كرد وكان بطل دار الخلافة، وصاحب الميمنة، مع مجاهد الدين أيبك رئيس ديوان تحرير المستنصرى بأن الأمر قد خرج عن السيطرة، واقترب العدو القوى، وتواطأ الوزير مع الأعداء، فيجب توضيح الأمر مرة ثانية لأمير المؤمنين، حتى يهيئ تدبيرا لمقاومة الكفار.

فقال مجاهد الدين أيبك: "لقد قلت للخليفة كل ما أمكننى فى هذا المجال، فلم يعر هذا الكلام اهتماما، ويبقى أن أطلب لكما الإذن بمقابلة الخليفة لتعرضا عليه الأمر."

وعلى ذلك النحو عرض الملك سليمان شاه والملك عز الدين بن فتح الدين كرد على الخليفة أمر وصول العدو وطلبا منه التفكير فى تدبير لمقاومة العدو وقهره". فقال الخليفة: "لقد عرضت هذا الأمر قبل ذلك على الوزير فاسألوه عن ذلك".

فخرج الاثنان من بلاط الخلافة يائسين، وحصل باجونوين ومعه ثمانين ألف فارس من أنحاء إيران وآذربيجان على جسر من ملك الموصل جنوب بغداد، وأقاموا جسرا بالقرب من تكريت، وخرج مجاهدو تكريت من المدينة والقلعة وأحرقوا جسر الكفار الممدود تماما، وأرسلوا كفارا كثيرين إلى الجحيم، واستشهد قليل من المسلمين.

وفى اليوم الثانى أصلح كفار المغول الجسر مرة ثانية (كما ذكر قبل ذلك) ومضوا وعبروا، حتى أسرعوا إلى ناحية الكوفة وحلب والكرخ، وقتلوا الخلق.

وعبر الملك عز الدين بن فتح الدين كرد ومجاهد الدين رئيس الديوان دجلة بعشرين ألف فارس من بغداد، وطلبا من جماعة سكان الكرخ والقصبات الأخرى المساعدة، وحاربا جيش الكفار.

ولما كان لجيش الإسلام رجالة كثيرون، لذلك أظهر جيش الإسلام ثباتا أكثر وأعاقوا تحرك جند الكفار، وحاربوهم فحلت الهزيمة بالكفار، وقتل كثيرون.

وكان رأى الملك عز الدين أنه يجب تعقب الكفار المهزومين، حتى يتم القضاء بذلك على بقية الكفار أيضا بالسيوف، ولكن مجاهد الدين رئيس الديوان أبطأ فى تعقبهم، فحل الظلام على معسكر المسلمين وهم فى المكان نفسه.

وكان بجوار ذلك المكان، مدينة تسمى مدينة " شير " ويشقها نهر الفرات، وأرض تلك المدينة مرتفعة، بينما كان معسكر المسلمين فى منخفض.

وفى تلك الليلة أرسل الوزير الشيعى الملعون جماعة، ففتحوا ماء النهر على معسكر المسلمين، فغرق الجيش كله تحت الماء، وفسدت أسلحتهم، وعجزوا عن الحرب، وعاد الكفار فى الفجر، ونشبت الحرب، وانهزم المسلمون من شدة العوز ومشقة الليل.

وقد عبر الملوك المهزومون دجلة، وعسكروا فى بغداد ، فى المكان الذى يوجد فيه جامع سنجر وقصره.

وحينما وصل جيش الملاعين إلى هناك، جاء سليمان شاه والملك عز الدين ومجاهد الدين رئيس الديوان إلى الخليفة قائلين: " إن العدوقد وصل إلى باب

المدينة، ولنا في بغداد قلة من الفرسان، وعدد الكفار يزيد على مائتي ألف، والصواب هو أن يركب أمير المؤمنين سفينة، ويضع الخزائن والنساء في سفينة بينما نجتمع نحن جميعا في سفينة في خدمة أمير المؤمنين، ونعبر دجلة إلى حدود البصرة، ونقيم في تلك الجزائر حتى يأتي نصر الحق تعالى وينهزم الكفار".

فما كان من الخليفة إلا أن قص على الوزير هذا الكلام ، فقال الوزير الملعون لأمير المؤمنين: "لقد مهدت طريق الصلح مع المغول، وليست هناك حاجة لذلك، وسوف يأتون إلى أمير المؤمنين طائعين، وإذا لم يثق في كلامي، فيجب إرسال الأمير أبي بكر لهم حتى يعلم نية هولاكو المغولي".

فاستصوب أمير المؤمنين هذا الرأي، وأرسل ابنه الأمير أبا بكر، وعلم الوزير فأرسل رسولا في السر إلى هولاكو قائلا له: " قدم للأمير أبي بكر كثيرا من مظاهر الترحيب، وأعزه وأكرمه واستقبله استقبالا حسنا ليثق الخليفة بك ويتحقق هدفك".

وحينما خرج الأمير أبو بكر ووصل إلى معسكر هولاكو، استقبله الناس كافة من كفار ومسلمين، وقدموا له فروض الطاعة.

وعندما وصل إلى بلاط هولاكو، تقدم هولاكو أربعين خطوة لاستقباله، وقام بمراسم الترحيب وأجلسه مكانه، وركع بين يدي الأمير أبي بكر احتراما وقال: "لقد جئت لتقديم الطاعة، وسأقدم الولاء، وبركا عمي كان قد أسلم على يد الشيخ سيف الدين باخرزي (ساخوري) وأنا أيضا سوف أسلم هنا، ولكن حينما سألت من هو أعظم المسلمين ؟ دلوني على الخليفة، فجئت حتى أسلم على يدي أمير المؤمنين".

وحينما قال هولاكو هذه الكلمات المعسولة، وثق الأمير أبو بكر في هذه الكلمات المسمومة، وعاد من هناك بإعزاز إلى أمير المؤمنين، فعرض عليه كل ما

شاهده وسمعه، فقال الوزير الملعون: " إن الصواب هوأن يخرج أميـر المـؤمنين بجلال تام فى موكب الخلافة حتـى يقـوم هولاكو المغـولى بمراسـم الاسـتقبال والترحيب".

ومهما حاول ملوك الإسلام (رضى الله عنهم) إقناع أمير المؤمنين بعدم الثقة فى الوزير، إلا أن القضاء السماوى كان قد حل، والقدر الإلهى قد نفذ ، فلم يفد بأى وجه اعتراض هؤلاء المسلمين المجاهدين (رضى الله عنهم)، وفى النهايـة كـان القضاء يضرب بسوط القهر مؤخرة موكب الخلافة.

فخرج أمير المؤمنين مع ألف ومائتى فارس معروف من الملوك وصـدور العلماء والأكابر والتجار وعمال الدولة الأكفاء. وحينما وصل إلى معسكر هولاكو المغولى الملعون، صحبوه مع ذلك الموكب إلى مكان حيث فرقوا الجميع بعضـهم عن بعض، وهناك أسر أمير المؤمنين وأمر بأن يكتب بقلمه إلى بقية رجالات بغداد ممن كانوا قد بقوا بها حتى يأتوا، حيث أمسك هولاكو بالجميع وقتلهم.

وتوجد عدة روايات فى موت الأمير أبى بكـر ابـن الخليفـة. والله أعلـم بأصحها:

ففى رواية أن هولاكو قتله مع سليمان شاه وفتح الدين كرد ومجاهد الـدين أيبك الدواتدار.

ويروى البعض أنه حينما عاد الأمير أبو بكر من عند هولاكوإلى أبيه وقـت خروج أمير المؤمنين، لم يخرج معه، وذهب من بغداد إلى بادية بجانب الشام.

ويقول البعض إنه استشهد؛ لأنه قال كلمات عنيفة فى حضور هولاكو بعـد الأسر، وكانت كلماته: "لقد اعتقدنا أن لك أصلا عظيما، وأنك رجل كامل، وسوف

تكون ملكا عظيما، فوثقنا فى قولك، والآن قد اتضح أنك لست ملكا ولا رجلا، فقد غدرت والملوك والرجال لا يغدرون". فأمر هولاكو بقتله.

ويروى البعض: أنه أمر بأن يحملوا الأمير أبا بكر مع واحد من السادة العظام إلى آذربيجان، على أن يبقى هناك بعض الوقت، حتى يفصل هولاكو فى أمره بعد انتهائه من أمر بغداد.

وبعد أن حملوا الأمير أبا بكر إلى هذا السيد العظيم، وقطعوا عدة مراحل إلى آذربيجان، قال جماعة الكفار لهولاكو: " إنك أخطأت؛ لأن الأمير أبا بكر سيصل سالما إلى آذربيجان، وسيجتمع حوله جيوش الروم والشام والمغرب كافة، ومن المؤكد أنه سينتقم لنفسه. " فأرسل هولاكو أشخاصا فى إثره، وأعاده وقتله. والله أعلم.

ليكن لملك الإسلام وسلطان سلاطين الإسلام وملك الأقاليم السبعة عمر وحياة فى الملك والعدل. آمين يا رب العالمين.

ذكر استشهاد أمير المؤمنين المستعصم بالله رضى الله عنه

أراد الكفار أن يحتفظوا بأمير المؤمنين المستعصم بالله (رضى الله عنه) عدة أيام، فقال جماعة المسلمين الذين كانوا بين جيش المغول إنه إذا أراق هولاكو دم الخليفة على الأرض، فسوف يغوص هولاكو وجيش المغول الكفار داخل الأرض نتيجة زلزال، لذلك لا ينبغى قتله.

وكان هدف هؤلاء المسلمين أن يبقى أمير المؤمنين حيا، فعطل الجميع قتله إلا ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ (لعنه الله)، حيث قال مع الكفار الآخرين لهولاكو: "إذا بقى الخليفة حيا، فسوف يثور سائر المسلمين الموجودين فى الجيش والطوائف الموجودة فى البلاد الأخرى، ويخلصونه، ولن يتركوك يا هولاكو حيا".

فسيطر الخوف على هولاكو الملعون؛ لأنه إذا بقى الخليفة حيا، فسيتحقق خروج المسلمين، وإذا قتل الخليفة بسيف سيقع زلزال حينما يصل دمه إلى الأرض، ويهلك الناس. ففكر فى طريقة أخرى لقتل أمير المؤمنين، فأمر فلفوه فى جوال، وكالوا اللكمات لجسمه المبارك حتى هلك رضى الله عنه وأرضاه.

كما قتلوا ابنه أمير المؤمنين أبا بكر، وأمير الراية سليمان شاه، وكل أمراء حضرة الخلافة وملوكها، فيما عدا ابن أمير المؤمنين الصغير. واستولوا بذلك على جملة خزائن بغداد التى لا يتسع لها سجل، ولا يحيط بها خيال البشر من نقود وجواهر وأوانٍ ومرصعات.

وحمل هولاكو كل هذا إلى معسكره، وأرسل قدرا من الأموال يليق بمنگوخان مع بعض الجوارى وحريم الخليفة وابنة الخليفة إلى التركستان، وأرسل بعض الغنائم على سبيل الهدية والقسمة إلى بركا المسلم، واحتفظ بالبعض الآخر.

وقد روى الثقات أن بركا لم يقبل الأشياء التى أرسلها إليه هولاكو، وقتل رسل هولاكو، فقام العداء بين بركا وهولاكو لهذا السبب. وحينما وصلت الأشياء التى أرسلها إلى منگوخان من أموال ودراهم إلى مدينة سمرقند، استأذنت ابنة الخليفة (رضى الله عنها) من القائد الموكل بها قائلة: "إنَّ قبر أحد أجدادى قثم بن عباس (رضى الله عنه) فى سمرقند، وأريد أن أزوره." فأذن لها القائد القائم على حراستها.

فذهبت المعصومة (رضى الله عنها) إلى قبر قثم بن عباس، وقامت بواجبات الزيارة، وأدت ركعتين من الصلاة، ونظرت إلى الأرض ثم دعت قائلة: " يا إلهى إذا كان لجدى قثم بن عباس مكانة لديك، فلتقبض روحى إلى حضرتك، وتخلصنى من أيدى هؤلاء الأخساء. " وكان باب الإجابة مفتوحا فى تلك الساعة نفسها،

فصعدت روحها الطاهرة إلى حضرة البارئ تعالى. رضى الله عنها وعن أسلافها وعن المؤمنين والشهداء كافة.

ويروى صاحب تاريخ المقدسى فى فصل حادثات خروج الترك عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه قال: "والله لتكونن الخلافة فى ولدى حتى يغلب عليهم الحمر الوجوه كالمجان المطرقة". وقال بعض العلماء هم الأتراك المسلمون، وقال قوم هم كفرة الترك، وقال قوم آخرون، بل هم أهل الصين، يستولون على هذه الأقاليم.

وقد ثبت لجميع عقلاء العالم وعلماء بنى آدم (رضى الله عنهم) أن التفسير الأخير كان صادقا، وأن نكبة دار الخلافة كانت على أيدى كفار الصين لعنهم الله. ولهذا السبب استشهد أمير المؤمنين المستعصم بالله (رضى الله عنه) على يد تلك الجماعة.

أدام الله دولة سلطان سلاطين الإسلام خالدة على عرش السلطنة بحرمة الشهداء من آل على وعباس وأرواح المؤمنين برحمته، وهو أرحم الراحمين، وعضد ملك ذلك الإمام والخليفة الذى تزدان باسمه الخطبة والسكة إلى يومنا هذا.

وحينما أغار هولاكو على بغداد، وقتل الناس، أودع البقية الباقية إلى الوزير، وعين له شحنة من المغول حتى يجمع الخلق، وبعد أن عاد الوزير الملعون إلى بغداد، جمع بعضا من القوم، وأقام فى بغداد.

وكان بعض عبيد الخليفة قد رحلوا إلى أحد الوديان، وظلوا هناك على قيد الحياة، ثم اجتمعوا فى نحو عشرة آلاف فارس، وعبروا دجلة بغتة، وأغاروا على بغداد، وقبضوا على الوزير الملعون وقائد الكفار، وقطعوهما إربا إربا، كما أسروا

كل من وقع فى أيديهم من أتباع الملاعين، وقبضوا كذلك علـــى مســيحي بغــداد، وقتلوا الجميع.

وبذلك قاموا بالانتقام من أولئك الملاعين بقدر ما تيسر لهم، وعادوا أدراجهم على عجل. وما أن وصل الخبر إلى معسكر المغول، حتى توجه ركب الجيش إلى بغداد، فلم يمسكوا بأحد من المجاهدين المسلمين.

ويروى البعض أنه حينما فرغ هولاكومن أمر بغداد وقتل المســلمين، قــال للوزير: " مما كانت نعمتك ودولتك ؟ " قال الوزير: " مــن دار الخلافــة. " قــال هولاكو: "بما أنك لم تحفظ حق نعمة أرباب نعمتك، فإنك لا تصلح لخدمتى أيضا." وأمر فقتلوه. والله أعلم .

ذكر توجه هولاكو إلى حلب والشام

حينما فرغ هولاكومن أمر بغداد، توجه إلى حلب وميافــارقين وأيمــد(٤٢)، وهذه البلاد تسمى ديار بكر، وأيمد ولاية ابن شهاب الدين الملك العادل فى الشــام، ولقبه الملك الكامل، وكان رجلا غاية فى التدين والتقوى الكاملــة، وكــان ســبب الذهاب إلى تلك الديار، أن ابن الملك شهاب الدين الغازى كان ملكا على ميافارقين وماردين وأيمد، وكانت حصون تلك المدن الثلاث وقلاعها تحت إمرته.

وحينما أغار جيش جرماغون وباجونوين اللذان كانا قد استوليا علـــى اران وآذربيجان والعراق على حدود تلك البلاد، دخل ملوك تلك المنــاطق جميعــا فـــى طاعة المغول، وتوجه الملك الكامل ابن الملك شهاب الدين الغازى إلى منگوخـــان، وحصل منه على خلعة خاصة.

وكان سبب تلك الخلعة أن منگوخان كان قد طلب فى مجلس الشراب خمرا لابن الملك شهاب الدين الغازى ، فامتنع شهاب ولم يشربه، فسأله منگوخان عــن سبب امتناعه، فأجاب: "إنه حرام فى دين الإسلام، وأنا لا أخالف دينى. "

فاستحسن منكوخان هذا الكلام، وكان يرتدى قباء، فأعطاه لشهاب في المجلس وأعزه. ويتضح من هذا أن التمسك بالدين الإسلامى مفيد فى كل الأوقات عند الكافر والمسلم.

والخلاصة أنه حينما توجه هولاكو إلى مملكة إيران، أمر منكوخان الملك الكامل أن يلحق بهولاكو فى بلاد العجم. وبعد أن وصل مع هولاكو إلى ديار بكر، وقرر هولاكو غزو بغداد، أمر هولاكو الملك الكامل ابن الملك شهاب الدين الغازى قائلا: " يجب أن تحضر من ولايتك سبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل إلى باب بغداد وتساعدنا. " فقال ابن الملك شهاب الدين: " إن عدد جيشى لايصل إلى هذا القدر، فلا يمكن أن أعد أكثر من ألفين أوثلاثة آلاف فارس، وخمسة آلاف أوستة آلاف راجل".

فتغالى هولاكو فى طلب فرسان أكثر، وأصر الملك الكامل على جوابه. فقال هولاكو لوزيره سرا، وكان مسلما من عظماء سمرقند: "يبدو لى أن الكامل ينوى العصيان فى السر، وعدم الاتفاق معنا، فيجب قتله".

وكان الوزير المسلم السمرقندى على علاقة ودية بالملك الكامل، فأطلعه سرا على هذه النية، وفى اليوم التالى ذهب الملك الكامل إلى هولاكو، وطلب الإذن للصيد، فصرح له بذلك، وخرج من جيش الكفار على عجل فى ثمانين من خاصة فرسانه، وسارفى طريق ولايته، بحيث وصل إلى ولايته فى سبعة أيام، وأمر بأن يتم تسمير كل حارس من حرس المغول بخمسة مسامير على الحوائط، مسمار مهلك فى الجبهة، وأربعة مسامير فى الأيدى والأرجل.

وحينما مضت ثلاثة أيام على غيبة الملك الكامل، علم هولاكو بأمر ذهابه، فأرسل فرسانا وجنودا فى إثره، إلا أنهم لم يعثروا عليه فعادوا. وما أن وصل

الملك الكامل ابن الملك شهاب الدين إلى ولايته، حتى أرسل أشخاصا إلى ظهير الدين الناصر، وطلب مددا ليضمه إلى جيشه، ويأتى به إلى دار الخلافة، فوافق الملك الناصر على المدد.

وتوجه ابن الملك شهاب الدين الغازى مع جيشه بكل الفرسان والرجالة إلى بغداد. وفى أثناء الطريق علم بواقعة بغداد واستشهاد أمير المؤمنين، فعاد بسرعة فائقة، وقوى القلاع والمدن، وأخبر بدوو لايته بأن يتوجهوا جميعا إلى أماكن حصينة، وجاء هوإلى قلعة ميافارقين، وجلس مستعدا للغزو والجهاد.

وقلعة ميافارقين مدينة حصينة، ويوجد فى شمالها جبل شديد الارتفاع، وفوق هذا الجبل يوجد دير يسمى مرقومه، وهومكان مبارك، وتتكاثر فوق الجبل أشجار السفرجل الكبيرة ،وفى المدينة مجرى ماء يجرى فيه الماء، وجنوب المدينة حدائق، وشرقها مقابر، ويتوسط المدينة تل وفصيل.

وحينما فرغ هولاكومن أمر بغداد، أرسل ابنه مع سائر جنده من المغول إلى قلعة ميافارقين، فجاءت جماعة الكفار إلى باب القلعة وحاصروها، وبدأوا الحرب، وحاربوا بشدة لمدة تزيد على ثلاثة شهور أمام بابها، وقتل وجرح كثيرون، وذهبوا إلى الجحيم. والله أعلم.

ذكر كرامة مسلمى ميافارقين

يروى ثقات العرب والعجم أن ابن هولاكو حارب على باب قلعة ميافارقين مدة ثلاثة أشهر، وأن كل حجر منجنيق كان الكفار يصوبونه إلى القلعة، كان يرتد إلى رءوسهم، إلى أن أحضروا أحد رجال المنجنيق المشهورين من الموصل.

وفى اليوم الأول عبأ المدافعون عن القلعة النار والنفط فى الأحجار، وألقوا بها فاشتعل المنجنيق، وظلت الحرب مستمرة على باب القلعة مدة استغرقت أقل من شهر.

وخلال هذه الفترة كان يخرج من القلعة كل يوم بقدرة الخالق تعالى وتقدس في رواية سبعة فرسان، وبرواية أخرى ستة فرسان، وبرواية ثالثة أقل من هذا مرتدين ثيابا بيضاء وعمائم، وكانوا يحملون على جيش الكفار، فكانوا يرسلون مائة كافر أومائتين إلى الجحيم، ولم يصب هؤلاء الفرسان ذوى الثياب البيضاء بأى ضرر من سهام الكفار وسيوفهم ورماحهم حتى قتلوا ما يقرب من عشرة آلاف مغولى من تلك الجماعة.

فأرسل هولاكو إلى ابنه قائلا له: "لقد استوليت على بغداد في أقل من أسبوع، وأنت لا تستطيع أن تستولى على قلعة صغيرة طوال هذه المدة". فأجاب ابنه: "لقد استوليت على بغداد بالغدر، أما هنا فيجب أن أحارب كل يوم حيث يهلك رجال كثيرون، فلا ينبغي مقارنة هذا المكان ببغداد".

فلما وصلت هذه الرسالة إلى هولاكو قال: "قولوا لابنى يجب أن تبتعد من أمامى، فمن المؤكد أننى سوف أقتلك". ثم أقسم وقال: "سوف استولى على هذه القلعة في ثلاثة أيام". وجاء إلى ميافارقين بسرعة فائقة، وبدأت الحرب.

وكان يخرج كل يوم (كما سبق ذكره) عدة رجال بأثواب بيضاء وعمائم، وكانوا يقتلون ما يزيد عن مائتى وثلاثمائة كافر، وقد حارب هولاكو بعنف مدة ثلاثة أيام.

وبعد ثلاثة أيام أخرى، أقام فيها هناك، أمر بشن هجمات عنيفة، حتى قتل حوالى عشرة آلاف كافر آخرين ، فقال هولاكو: "هذه القلعة مؤيدة بالتأييد الإلهى، لقد عفوت عنكم الآن، ولكن لى ملتمس وهو أن تقدموا لى الفرسان ذوى الأثواب البيضاء لأنظر أى نوع من الرجال هم؟".

فلما وصلت هذه الرسالة إلى أهل القلعة، أقسموا بشدة قائلين: " كما أنكم لا تعرفونهم نحن أيضا لا نعرفهم، وغير معلوم لنا من هم". فقال هولاكو: "الآن ومن أجل الله أتصدق عليكم بألف حصان وألف دابة وألف شاة، فأخرجوا الرسل حتى أعطيهم تلك الأشياء".

فرد عليه أهل القلعة قائلين: "ليست لنا حاجة بصداقتك ولن نخرج أى شخص، فإذا أردت فأرسلها إلينا، وإلا فاقتل الجميع". وقد ذكر أنه ترك ذلك القدر من الماشية والجياد والدواب هناك، ورحل إلى أحد المروج، ويسمى هذا المرج صحراء موشى وهوذوماء أسود وطينة سوداء.

وقد قرر البعض أن هولاكو حارب جيش الشام، وانهزم وفنى مع كل جيشه، وذهب إلى الجحيم. ويروى البعض أن الملك الناصر صاحب حلب طلب العون من الجميع من جيش الشام وحلب والفرنج، فاجتمع معه جيش جرار، وأن هولاكوالملعون مازال مشغولا بالحرب معهم حتى الآن، وقد هزم مرة، ولكن لايعلم إلى أين سينتهى أمره ؟ إن شاء الله تعالى يكون الفتح والنصر للمسلمين. وقد روى واحد من العباد بمناطق الصين أن هولاكو قد مات، ونصب ابنه مكانه فى مدينة الرى[٤٣]. والله أعلم.

ذكر كرامة أخرى لمسلمى ميافارقين

روى الثقات أن ابن الملك بدر الدين لؤلؤ الموصلى كان بين جنود ابن هولاكو، فكان يشاهد تلك المعارك ويرى هزيمة المغول وانتصار مجاهدى ميافارقين، وكان يتعجب من تلك الحال، ويدهش للعون الإلهى، حتى رأى ذات ليلة فى المنام الجمال المبارك لسيد العالم صلى الله عليه وسلم، حيث كان يقف فوق

حصن القلعة، وينشر ثوبه المبارك حول القلعة ويقول: هذه القلعة في أمان الله تعالى وأماني. "

فاستيقظ ابن الملك بدر الدين لؤلؤ من هيبة الحلم، وأخذ يفكر طوال النهار في ذلك المنام العجيب، ويتأمل ماذا يكون تفسيره، وفي الليلة الثانية والثالثة رأى المنام نفسه، فغلب الرعب والخوف والرهبة ظاهره وباطنه ، وفي اليوم الثالث ركب مع خواصه بدعوى الصيد، وفارق معسكر الكفار، وذهب إلى بلاده.

وحينما علم والده بذلك، أرسل له رسالة قائلا: "لقد ألقيت بي وببلادي إلى الهلاك والموت، فلماذا أقدمت على هذا الأمر وهذا العداء ؟ لن أسمح لك بأن تاتي عندي. "

فأرسل ابن بدر الدين لؤلؤ رسالة إلى أبيه قائلا: "إنني لا أستطيع قتال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فالأمر كان على النحو التالي، وقص رؤياه كاملة، وذهب إلى مكان آخر. ولم يُعْرَف شيء عن أمره وأمر أبيه حتى الآن. والله أعلم.

فصل في تقرير سقوط المغول لعنهم الله

هكذا يقول داعي الدولة القاهرة منهاج بن سراج طيب الله عيشته، إن هذه الأشعار هي قصيدة ليحيى بن أعقب الذي كان تلميذا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، وكان أستاذ الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وقد نظم يحيى القصيدة في خروج الترك، وظهور فتنة جنگيزخان، وظهور أتراك الصين وهي توضح أحوالهم منذ أول أمرهم حتى وقت فنائهم، وتبرهن على سقوطهم، وقد أوردتها لتكون تحت أنظار العظماء، كما ذكرت الترجمة الفارسية للأبيات العربية تحت كل بيت حتى يفهمها الجميع.

أدام الله تعالى ملك المسلمين وسلطان السلاطين ناصر الدنيا والدين على عرش الملك. آمين يا رب العالمين.

قصيدة الإمام يحيى بن أعقب رضى الله عنه

احذر بنى من القران العاشر

وانفر بأهلك قبل نفر النافر

واسكن بلادا بالحجاز وكن بها

واصبر على مضض الزمان الجاير

ولا تركنن إلى العراق لأنها

سيشيعها حد الحسام الباتر

من فتنة أفطس الأنوف كأنهم

سيل طماء أو كالجراد الناشر

حرف العيون ترونهم فى ذلة

كم قد أذلوا من مليك قاهر

ما قصدهم إلا الدماء كأنها

ثأر لهم من كل ناه آمر

سيريك خوارزما يعود منابتا

للعشب ليس لأهلها من قابر

وكذا خراسان وبلخ بعدها

وهرات تؤخذ بعد أخذ نشاور

بلد الديلميين جبالها وقلاعها

تضحى خرابا ما لها من عامر

والرى فيها يقتلون عصابة

من آل أحمد هم بسيف الكافر

ويفر من سفك الدماء مليكهم

فر الحمام من العقاب الكاسر

ويموت من حنق على ما ناله

فى لجة من لج بحر زاخر

وخلاط ترجع بعد بهجة منظر

قفر النبات باختلاف الحافر

وديار بكر سوف يقتل بعضهم

بالسيف بين أصاغر وأكابر

والروم تفزع منهم وتخافهم

ولربما سلموا لذل الكـــافر

والويل إذ وطنوا ديار ربيعة

ما بين دجلتها وبين الخازر

ويطيقون بلاد أردويل كلها

من شهر زور إلى بلاد السامر

هذا وتغلق أربل من دونهم

يوما وتوخذ عند قلة ناصر

ويطوون توتوه وينهب مالها

ويزورها من معشر ومشاجر

ولربما ظهرت عساكر موصل

ترجوالأمان من الخون الكافر

والويل إن حلوا بشاطئ دجلة

ومضوا إلى بلد بغير تناكر

وترى إلى الثرثار نهبا واقعا

ودما يسيل وهتك ستر الساتر

كذلك الخابور ينهب بعضهم

بعضا وليس لأهله من جابر

ويكون وقت خريف زهر نباتها

تلقى النفوس من البلاء المتواتر

ولربما ظهرت عليهم فئة

من آل صعصعة كرام عساكر

هذا ويسقون الفرات خيولهم

من باب طاوى فوق ظهر الطامر

أويلفهم حلب بجيش لوسرى

البحر أظلم كالعجاج الثائر

وإذا مضى نصف القران رأيتهم

فى أرض خلق فى عداد عساكر

يفنيهم الملك المظفر مثل ما

فنيت ثمود فى الزمان الغابر

وقد قال علماء المنقول وأمناء المعقول والتفسير فى معنى القران العاشر الذى ذكر فى أول قصيدة الإمام يحيى بن أعقب رضى الله عنه إن " احذر بنى من القران العاشر بالإضافة إلى نصف القران الذى أتى ذكره فى آخر القصيدة، ووضع علامة لانتهاء دولة كفار المغول" يعنى ما يلى:

قال البعض إن هذا القران العاشر هوالقران الذى انتقل إليه العلويان زحل والمشترى من المثلثة الأرضية إلى المثلث الهوائى بعد عشرة قرانات، والمعروف عن القرانات هوأن فى كل مثلثة اثنى عشر قرانا، وأن كل مائتين وأربعين سنة لكل قران يساوى عشرين سنة، والعلويان انتقلا فى شهور سنة ثلاث وعشرين وستمائة من المثلثة الأرضية إلى المثلثة الهوائية.

فلو كان الأمر كذلك لكان الواجب أن يكون القران فى الجدى. ولكان أول القران العاشر فى سنة اثنتين وستمائة، وهو العام نفسه الذى خرج فيه چنگيزخان فى بلاد طمغاج والصين، إلى أن وصلت فتنته إلى بلاد العجم وخراسان فى آخر سنة ست عشرة وستمائة. والله أعلم.

وقد روى بعض العلماء أن المراد من هذا القران هوالقرن، ويحسبون كل قرن سبعين عاما بناء على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو: " أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين" (٤٤). ومع كلمة إلى السبعين يكون القرن كاملا سبعين عاما.

وهذا القول يتفق مع التنجيم؛ حيث إن ترتيب الكواكب السبعة بأسرها لكل مولود ينتهى عند سبعين سنة، ثم تعود الدورة إلى القمر، وهذه الطبقات ليست مجالا لبيانها، ومن ثم وبناء على هذا القول يجب أن يكون انتهاء أمر دولة تلك الطائفة فى سنة تسع وخمسين وستمائة؛ أوفى سنة ستين، أو فى إحدى وستين بحيث لن يبقى أثر للكفار.

وما قاله الإمام الربانى- رضى الله عنه- هو من أسرار النبوة، ومن معانى كلام القرآن الكريم، فمثل هذه الأسرار لايمكن إلقاؤها من عنده يقينا.

إذن فقد اتضح يقينا أن يحيى لأنه كان تلميذ أمير المؤمنين على رضى الله عنه فقد سمع منه هذه الأسرار التى سمعها أمير المؤمنين (رضى الله عنه) من الرسول(صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فبإجماع علماء التفاسير كان أمير المؤمنين وإمام المتقين على رضى الله عنه يختص بمعرفة هذه الأسرار من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم عن جملة الصحابة. وإذا كان هذا افتراء لما كان قد صح وصدق.

ولأن الأمر قد تحقق صدقه، سواء فيما ذكر عن فرار ملك إيران ووفاته على شاطئ البحر، حيث يتضح لكل عقلاء العجم وإيران أن فرار محمد خوارزم شاه من المغول كان على نحويماثل فرار حمامة من عقاب، ثم موته رحمة الله عليه على شاطئ بحر مازندران، أوفيما قيل بصدق عن وصف تلك الجماعة ووقت خروجها وفرار ملك المسلمين وتخريب مدن الإسلام. فيجب إذن أن يتحقق ما جاء في آخر القصيدة من عبارات تدل على انتهاء دولة كفار المغول وفنائهم على أيدى ملوك الإسلام فى أرض الشام.

ولأنه قد حدد فى آخر القصيدة فى أى بلد سيكون هلاكهم، ووصف تلك البلاد، وذكرأهل بلاد دمشق وأهل الشام وحدود تلك البلاد.

وبما أن هذه الجماعة قد وصلت إلى هناك، وهم يقاتلون جيش حلب والشام الآن، فلم يعد هناك أى شك فى أن هلاكهم أيضا سيكون سواء بشرب ماء نهر الفرات، أوبمحاربة جيش حلب، أو فى نصف القران الذى سيكون فى سنة تسع وخمسين وستمائة أوستين وستمائة أو إحدى وستين وستمائة تقريبا.

أباد الحق تعالى عهد فتنة تلك الجماعة، وأطفأ نار فسادهم بماء الانتهاء، وأخمد ريح ظلمهم التى أثارت مائة ألف عاصفة فى فضاء أمة أحمد بقدرته التى لا شبهة فيها إن شاء الله تعالى.

ولأن ذكر انقراض دولة كفار المغول قد ثبت، فقد أردت ألا يكون اختتام كتاب طبقات ناصرى هذا بفتنة الكفار وبلائهم. لذلك نذكر واحدا من سادة تلك الجماعة ممن وصلوا إلى دولة الإيمان وسعادة الإسلام، نذكر إسلامه لنختم به .

العاشر بركا خان بن توشى بن چنگيزخان المغولى عليه الرحمة

هكذا روى الثقات أن ولادة بركا بن توشى بن چنگيزخان كانت فـــى بـــلاد الصين والقبچاق حينما استولى أبوه توشى خان على خوارزم وقاد الجيوش إلـــى بلاد سقسين وبلغار وصقلاب.

ولما ولد بركا خان قال أبوه: "لقد جعلت ابنى هذا مسلما، فليحضـــروا لـــه مربية مسلمة ، حتى تقطع سرته على الطريقة الإسلامية، وليرضع لبن مسلمة؛ لأن ابنى هذا سوف يكون مسلما".

وبناء على تلك الإشارة، قطعت سرته مربية مسلمة، ورضع اللبن فى كنف مرضعات مسلمات. وعندما وصل إلى سن التأديب والتهذيب، جمعوا قوما من أئمة المسلمين، واختاروا واحدا منهم ليعلمه القرآن.

ويقول بعض هؤلاء الثقات إن تعليمه القرآن كان فى مدينة خجنـــد، وكـــان على يد واحد من علماء تلك المدينة الأتقياء.

وبعد أن وصل بركا إلى سن الختان أجروا له عملية الختان. وعند وصـــوله سن البلوغ صدر الأمر بأن ينتقل المسلمون الذين كانوا فى معســـكر توشـــى إلـــى جيشه.

وحينما مات أبوه توشى خان على إثر دس السم له من قبـــل چنگيزخـــان، وجلس أخوه باتوخان مكان أبيه، ظل باتو يعظم بركا خان أيضا، ويقره على ملكه، ويضع تحت تصرفه الأتباع والإقطاعات.

وفى سنة إحدى وثلاثين وستمائة، جاء رسل بركاخان من بلاد القبچاق إلـــى حضرة السلطان السعيد شمس الدنيا والدين، وأحضروا الهدايا.

ولأن السلطان السعيد لم يكن ليفتح أبواب التعارف والمحبة بأى وجه مع أمراء المغول، أويقتل رسلهم، فقد هادنهم، وأرسل رسل بركا إلى كاليور، حيث كانت جماعة المسلمين يحضرون كل جمعة فى المسجد الجامع لكاليور، وكانوا يؤدون الصلاة خلف نواب كاتب هذه الطبقات منهاج بن سراج حتى عهد السلطانة رضية عليها الرحمة.

وحينما جاء الكاتب بعد ست سنوات من كاليور إلى الحاضرة العظمى دهلى، واختص بعناية السلطانة رضية، صدر الأمر فاصطحبوا رسل بركا خان من كاليور المحروسة إلى قنوج، حيث ماتوا أثناء حصار المدينة.

وحينما تقدمت السن ببركاخان جاء من بلاد القبچاق إلى مدينة بخارى، لزيارة الأكابر وعلماء الإسلام السالفين منهم والحاليين، وقام بزيارات عديدة ثم عاد، وأرسل الرسل إلى دار الخلافة.

وقد قرر جماعة الثقات أن بركا ارتدى خلعة دار الخلافة أيضا مرتين أوأكثر فى حياة أخيه باتوخان، وأن جملة جنده كانت حوالى ثلاثين ألف فارس مسلم، وكانت صلاة الجماعة تقام فى جيشه.وقال الثقات كان دأب جنوده جميعا هوأن يكون أمام كل فارس منهم مصلى بحيث إذا ما حل وقت الصلاة، قاموا بأدائها، كما لم يشرب شخص منهم الخمر قط.

وكان بركا يصطحب دائما العلماء العظماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمناظرين، كما كان يقتنى كثيرا من كتب الدين، وكانت أكثر مجالسه ومناظراته مع العلماء كذلك، أما علم الشريعة فقد كان موضع بحث دائم فى بلاطه، وهوفى إسلامه قوى صلب إلى أقصى درجة .

ذكر صلابة إسلام بركاخان

فى شهور سنة سبع وخمسين وستمائة، قدم أحد سادة مدينة سمرقند من ذوى الشرف والمكانة إلى الحاضرة العظمى دهلى للتجارة، وحظى بالرعاية والإنعام فى بلاط ملك الإسلام وسلطان الأقاليم السبعة (خلـد الله ملكـه وسـلطانه) واخـتص بالإعزاز الملكى والإنعام السلطانى، وقدم أكابر الحاضرة العظمى (ممن كان كـل منهم كوكبا متلألئا فى سماء دولة الإسلام، ونجما مضيئا فى فلك الدين) ضـروب الخدمة والإجلال إلى هذا السيد العظيم.

وكان ذلك السيد العظيم (عصمه الله) هو السيد أشرف الدين ابن السيد جلال الدين صوفيا، وكان يملك فى مدينة سمرقند خانقاه نور الدين أعمى عليه الرحمـة. وقد سمع من هذا السيد العظيم حديثان عن صلابة تدين بركا خان (سلمه الله عـز وجل وزاد فيه خيرا) وعن إسلامه.

الحديث الأول

هكذا قال ذلك السيد العظيم: "إن واحدا من مسيحيى سمرقند كان قـد انتقـل إلى عز الإسلام، فأعزه مسلمو سمرقند، حيث كانـت لهـم صـلابة فـى الـدين الإسلامى، وأغدقوا عليه نعما كثيرة. وفجأة وصل إلى سمرقند أحـد القـادة مـن المغول المتكبرين وكفار الصين، وكانت له صولة ومكانة، وكان ذلـك الملعـون يميل إلى الدين المسيحى، فذهب مسيحيوسـمرقند إليـه، وتظلمـوا قـائلين: " إن المسلمين يخرجون أبناءنا من الدين المسيحى، ومتابعة حضرة عيسى عليه السلام ، إلى دين الإسلام، ويأمرونهم بمتابعة دين المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فلوفتح هذا الباب لتحول أتباعنا كلهم عن الدين المسيحى، فدبر أمرنا بالقهر والقوة."

فأمر ذلك المغولى فأحضروا الشاب الذى كان قد أسلم، واستخدم معه طريق اللطف والمداراة والمال والنعمة، ليتحول عن دين الإسلام، وعلـى الـرغم مـن المحاولات التى بذلت مع ذلك الصديق حديث العهد بالإسلام، فإنه لم يرتد عن دين الإسلام، ولم ينزع من قلبه وروحه ثوب الدين المحمـدى ذا البهـاء والرونـق، فالتجأ المغولى إلى سياسة العنف ، وهدد الفتى وتوعده بالترهيب والعقاب بقدر مـا كان فى مكنته من القهر والسلطان.

لكن الفتى لم يرتد عن الإسلام قط، لبالغ عصبيته لدين الإسلام، ولم يلق من يده كأس الإيمان تحت ضربات طغيان الكفر، فلما ثبت الشاب على دين الحق، ولم يهتم بوعد تلك الجماعة الضالة ووعيدها، أمر ذلك الملعون فعذبوا ذلـك الفتـى ، حتى استشهد مؤمنا (رحمه الله) فحلت بجماعة مسلمى سمرقند نكسة لهذ الأمر.

وقد روى أشرف الدين: "أننا قد أعددنا محضرا، وشهد عليه الثقات ووجوه الإسلام من سكان سمرقند وصدقوا عليه، ومضينا بهذا المحضـر إلـى معسـكر بركاخان فعرضنا على الملك تطاول مسيحيى سمرقند وعـداءهم، وأظهرنـا لـه المحضر الذى يؤكد هذا الأمر، فظهرت على هذا الملك حسن العقيدة حمية الـدين المحمدى، وسيطر عليه الغضب للحق".

بعد هذا أعز بركا خان هذا السيد، ووجه معه جماعة من عظماء الأتـراك والمغول ممن كانوا قد أسلموا، وأمرهم بقتل جماعة المسيحيين الـذين كـانوا قـد اقترفوا هذا الجرم وذاك العدوان، وإرسالهم إلى الجحيم ".

فلما صدر هذا المرسوم، ذهبوا بإعزاز تام إلى سمرقند، وبـدون أن تعلـم جماعة المسيحيين، انتهزوا الفرصة حتى اجتمعت تلك الطائفة التعيسة فى الكنيسة، فنزلوا عليهم فجأة فى مكان واحد، وقضوا على الجميع، وهدموا الكنيسة، فلم يبـق

منها حجر واحد قائما فى مكانه. وكان هذا الانتقام ببركة صلابة ذلك الملك فى دين محمد وملة أحمد.

الحديث الثانى

روى هذا السيد شمس الدين نفسه أنه حينما مات باتوخان، بقى له ولد اسمه سرتاق، كان على درجة كبيرة من الظلم والعدوان والتعصب ضد المسلمين، وقد ذهب سرتاق من ولاية القبچاق وسقسين إلى منگوخان حتى يجلس بإذنه مكان أبيه باتو.

وحينما وصل سرتاق إلى بلاد طمغاج ومعسكر جيش الخان أعزوه وأعادوه، وعندما اقترب من مقر بركاخان، غير وجهته، ومضى، ولم يأت إلى عمه، فأرسل بركاخان رسلا إلى سرتاق قائلا: " إننى فى مقام أبيك، فلماذا تمر مثل الغريب، ولا تأتى إلى؟ "

ولما جاء الرسل إلى سرتاق، وبلغوه رسالة بركاخان، أجاب سرتاق الملعون قائلا: "إنك مسلم، وأنا أدين بالمسيحية، ورؤية وجه المسلمين شؤم". لعنه الله كثيرا.

فلما بلغ ذلك الحديث الممجوج الملك المسلم بركاخان، ثقل ذلك جدا على قلبه العزيز، وفكر كثيرا واضطرب أمره، وأمر بأن يقيموا له خيمة وسط المعسكر فى موضع لايوجد به مخلوق قط.

فلما أقيمت الخيمة، ذهب بركاخان بمفرده إليها ، وربط سلسلة فى رقبته، وأحكم وضع طرف السلسلة فى رأس الخيمة، ووقف على قدميه، وأخذ يبكى وينوح بتضرع كامل وابتهال تام وكان يقول: "يا إلهى إذا كان دين محمد وشريعة الإسلام على حق، فانتقم لى من سرتاق. "

وظل ثلاثة أيام بلياليهما على هذا المنوال، كان ينتحب فيهــا وينــوح بعــد أداء الفرائض ويتضرع حتى إذا ما حل اليوم الرابع، حل الأجل بسرتاق الملعون فى المكان الذى كان قد وصل إليه، حيث سلط الحق تعالى عليه داء البطن فذهب إلى الجحيم.

وقد روى البعض أن منكوخان حينما رأى سرتاق الملعون وقــد وضــحت آثار الفتنة فى جبينه أرسل رسلا فى السر فدسوا له السم، فــذهب إلــى الجحــيم. والحمد لله على ذلك.

كما روى الثقات أنه حينما ذهب سرتاق إلى الجحيم، تزوج بركاخان المسلم زوجة باتو، وكان له خمسة عشر ولدا وحفيدا، ذهبوا جميعا إلى الجحيم فــى إثــر توشى خان، وببركة الإسلام خضعت الممالك كلها لبركاخان مــن بــلاد القبچــاق وسقسين وبلغار وصقلاب والروس حتى الشمال الشرقى للروم وجند وخوارزم.

وفى سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهوتاريخ إتمــام هــذه الطبقــات روى جماعة القادمين من بلاد خراسان، أنه حينما ذهب منكوخان إلى الجحــيم، قــرأوا الخطبة باسم بركاخان فى كل مدن الشرق والغرب وبلاد العجم ومــا وراء النهــر وخراسان، وجعلوا لقبه السلطان جلال الدين إبراهيم (والله أعلم بالحقيقة).

وفى تلك السنة نفسها، أرسل بركا واحدا من أكابر العرب، يســمى الإمــام شمس الدين المغربى من قبله برسالة إلى بلاط ملجأ العالم سلطان سلاطين الإسلام ناصر الدنيا والدين (خلد الله سلطانه) وأرسل ما يليق بهذا الــبلاط مــن إنعامــات وسلك نفسه فى سلك الإخلاص لهذا الملك ملاذ العالم، وحقق له ذلك سعادة ويمنــا يفوق كل سعادة ويمن.

ضاعف الحق تعالى دولة مليك الأرض، وأدامها إلى ما شاء الله بالنبى وآله الأمجاد، وجعل هذه الطبقات موضع قبول فى البلاط الأعلــى. وهــذه الرباعيــة نوردها فى صورة دعاء لختم الكتاب.

ليكن الخضر هوساقى المليك من كأس البقاء

وليكن لإيوان بابه تسع طاقات مثل الفلك

وليدم اسم الطبقات فى الدنيا ما دامت الحياة

وليدم الملك محمود ناصرا للدين

كان هذا هوالقدر الذى خطه القلم وسطره، وهوما كان فى وسع الداعى ودائـرة سمعه ونقله، ولووقع نظر مليك أهل الإيمان (خلد الله سلطانه) والخاقان المعظـم ألـغ خان (خلدت دولته) مع ملوك الدولة وأكابرها وصدورها وأماثلها وأركانهـا وأعيـان الملة على سهو أو خطأ أو نقص أو زيادة خلال حياة كاتب الطبقات أو بعـد مماتـه، فليستروا ذلك بذيل العفو واللطف؛ ليصبح ذلك من بالغ إكرامهم ونهاية إنعامهم.

إنه الكافى لكل معاف، سبحانك اللهم ارحمنا برحمتك يا أرحـم الـراحمين، وصلِّ اللهم على سيدنا سيد الأنبياء وأفضل أهل الأرض والسماء، وعلـى جميـع الأنبياء والمرسلين وآلهم وسائر الصالحين.

تتمة هذا الكتاب

يقول منهاج بن سراج الجوزجانى كاتب هذه الطبقات، إنه حينما عرضـت هذه الطبقات على السلطان ناصر الدنيا والدين (خلد الله سـلطانه) أمـر السـلطان لداعى الدولة القاهرة بثوب خاص موشى بفروة سـنجاب كانـت تغطـى عرشـه المبارك، وأصدر أمرا بمنحه عشرة آلاف جيتل كل عام، وأنعم عليه بقرية.

وحينما وصلت نسخة من هذا التاريخ إلى ألغ خان المعظم، أرسـل الخـان الأعظم (خلدت دولته) إلى الداعى عشرين ألف جيتل نقدا، ووسام تقدير عليه رسم السمكة، ومجموعة من فراء السنجاب، ومجموعة من فراء الثعالب.

وقد نظمت هذه القطعة شكرا على هذه النعمة، وكتبت على ظهـر النسـخة الخانية وهذه هى القصيدة:

ألغ خان ملك العالم

وخان البرى[٤٥] وشاه يمك[٤٦]

كل من حاز الرضا فى حضرته

لم يرج من السماء أكثر من ذلك قط

من يكون حاتم الطائى أمامه

وماذا يكون يحيى البرمكي بالقياس إليه

لقد محا بإحسانه

غصة الدهر من صفحة خاطر منهاج

فلينصت الكافة لكلامى هذا

يقينا لا ريب فيه

له من الكرم نصيب يبلغ تسعا وتسعين فى المائة

وللباقين جميعا الواحد الباقى من تلك المائة

كل دعاء أدعو له به

يؤمن عليه الملك من روحه بصدق وإخلاص

كتبه منهاج بن سراج فى الخامس من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسـين وستمائة.

تمت الطبقات

هوامش الطبقة الثالثة والعشرين

(١) تتأتى أهمية هذه الطبقة فى أنها تسجل جوالفزع العام الذى صاحب الغزوالمغـولى، وهى تقدم لنا صورة دقيقة لمعارك ذلك الزمان، وتفاصيل هامة للأحداث والشخصيات والأماكن.

وقد قدم منهاج وصفا تفصيليا لما يتحدث عنه فى مواضع عديدة، فعند حديثه عن القلاع مثلا كان يصف القلعة بدقة تامة، لأنه كثيرا ما كان داخل الأحداث وجزءا منها، فقد سافر علـى سـبيل المثال ثلاث مرات من قبل الملوك برسائل إلى قلاع الإسماعيلية، لفتح طريق القوافل، مع مـا كـان يكتنف ذلك السفر من مخاطر، فرأى وشاهد وسمع، كذلك ذكر الأسماء والتـواريخ الخاصـة بكـل موضوع يتحدث عنه.

كما تصف لنا هذه الطبقة قوانين الحرب آنذاك وأدواتها وآلياتها، وما جرى علـى ألسـنة الناس من قصص وحكايات عن المغول، وما شاهده المؤلف شخصيا من أحداث، مثلما حدث عند هجوم المغول على قلعة تولك عام ٦١٧ هـ واشتراك منهاج مع مجاهدى القلعة فى الدفاع عنهـا، كذلك اشتراكه مع جيش السلطان علاء الدين وألغ خان فى الدفاع عن قلعة أجه عام ٦٤٣ هـ.

كما يتضح من هذه الطبقة ذيوع الحكايات الخرافية التى تجد لها بيئة صالحة فـى مثـل تلـك الظروف مثل حكاية وفاة جنگيزخان عند رؤيته للدم الأبيض الذى خرج من عدوه، وحكاية المسلم الذى دفنوه مع المغولى ثم نجا من القبر بطريقة غريبة.

وقد سجل منهاج ما ترامى إلى سمعه من روايات على الرغم من وجوده فى الهند وقت تـأليف الكتاب، وكان أمينا فى إيراد الروايات فنذكر مثلا حكاية تدلل على صدق المغول، ولم يتورع عن ذكـر تعليق القائد المغولى على تعجب الملك الفارسى من صدق المغوليين اللـذين أودى الصـدق بحياتيهمـا بقوله: "لماذا تتعجب؟ على هذا النحو تسلكون أنتم أيها الأعاجم وتكذبون فالكذب شيمتكم، أما المغـولى فلو كان لديه ألف روح تفتديه لاختار أن يقتل ولا يكذب، ولذلك سلط الله تعالى بلاءنا عليكم".

وهذه الطبقة تحتوى على معلومات مهمة، لا يمكن الشك فى صحتها، مثل الأحداث التـى شاهدها بعينيه، والحكايات التى سجلها من مصادرها الرئيسة، ولعل أبرزها القصـة المشـهورة للقافلة التجارية التى وصلت إلى أترار من قبل جنگيزخان، وغدر حاكم أترار بهم، وكانت سـببا مباشرا فى الغزو المغولى مما أعطى لكتابه أهمية كبيرة خاصة؛ لأنه لم يكن تابعا للمغول، وقـد نقلها عنه الكثيرون.

وتأريخه للمغول يوضح حالة الهلع التى ألمت بالمسلمين آنذاك، حيث أسند الأحداث كلها للغيبيات، واعتبرها مقدمة للقيامة، ربما لأن وجوده أثناء الأحداث لم يتح له الوقت لاستيعابها جيدا وغربلتها، فقد كان يكتب والأحداث ما زالت جارية، وهولاكو ما زال يحارب فى الشام، والصورة

لم تتضح بعد بكل أبعادها، ويظهر هذا بوضوح فيما كتبه عن بعض الأخبار الواردة وغير المؤكدة له عن موت هولاكو وآخرين، كما أنه توقع اندحار المغول وزوال دولتهم بعد ثلاث سنوات أو أقل من ذلك بناء على ما جاء في القصيدة التي نسبها إلى يحيى بن أعقب، والتي اعتبرها نبوءة عن خروج الترك، مستندا إلى تفسير يقول إن القران العاشر الذي يحذر منه الإمام يحيى قد حدث في عام ٦٠٢ هـ، وهو عام خروج جنكيزخان في بلاد طمغاج، واعتبر أن نهاية دولتهم سوف تكون في عام ٦٥٩ هـ أو ٦٦٠ هـ أو ٦٦١ هـ إذا كان المقصود بكلمة قران قرن، أي ما يقرب من سبعين عاما بناء على الحديث النبوي: أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وقد اعتبر ما قاله يحيى من أسرار النبوة.

والجدير بالذكر أن هذه القصيدة ذكرها ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء وتقع في اثنتين وخمسين بيتا بينما تقع عند منهاج في تسعة وعشرين بيتا، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن ناظم هذه القصيدة، ربما يكون ابن سينا أو غيره، ويقول إن جملة ما قيل في هذه القصيدة من أحوال التتر وقتلهم للخلق وخرابهم للقلاع جرى وقد رأيناه في زماننا، ويرى البعض أن القصيدة التي ذكرت في طبقات ناصري توقفت عند ذكر انتصار الملك المظفر قطز في موقعة عين جالوت ١٥ رمضان ٦٥٨هـ، مع العلم بأن كتاب طبقات ناصري تم في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وستمائة كما ذكر المؤلف نفسه، أما القصيدة المذكورة في طبقات الأطباء فأبياتها أكثر من السابقة وهي تتحدث عن انتصار الملك الناصر في موقعة مرج الصفر عام ٧٠٢ هـ فكأن هذه القصيدة نظمت بعد وقت قصير من موقعة عين جالوت، ثم أضيف لها عدة أبيات بعد انتصار الملك الناصر.

كذلك أظهرت بعض الحكايات الواردة في هذه الطبقة ملمحا للمعركة حامية الوطيس التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، وتنافسهم لكسب قلوب المغول، حيث يسهل غالبا تأثر البدو البدائيين بحضارة المغلوبين، كما أنه لم يكن للمغول دين واحد بعينه يعتنقونه، بل كانت طوائفهم تتنازع الديانات المختلفة، وقد عانت الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية بالتبادل من ضروب المهانة والمذلة وتدمير المساجد والكنائس تبعا لميول الخان أو اعتناقه لديانة محددة، حيث يمكن الخان من يتعاطف معه من الطرف الآخر الذي يقوم بدوره بالانتقام مما سبق أن لحق به.

فهولاكو - على سبيل المثال- كان يدين بالبوذية، وعلى الرغم من ذلك كان شديد العطف على المسيحيين نظرا لنفوذ زوجته دوقوز خاتون المسيحية، وقد عقد هولاكو تحالفا مع الحكام المسيحيين في غرب آسيا، وهما هيتوم ملك أرمينية وبوهيمند ملك انطاكية عند فتحه للشام، حيث تم إحراق المساجد والانتقام من المسلمين ومعاملتهم أسوأ معاملة بعد فتح دمشق.

وحينما يكون الخان متعاطفا مع المسلمين أو يكون قد اعتنق الإسلام مثل بركا خان ابن عم هولاكو الذي كان قد أسلم وكان يحكم في القبجاق تظهر الصورة المقابلة، كما اتضحت من خلال الحكايات الواردة في هذه الطبقة، التي توضح الروح العدائية بين الطرفين وردود أفعال المسلمين تجاه ما كان قد لحق بهم من المسيحيين، وقد ظل الأمر على هذا النحو، حتى أعلن

غازان خان فى عام ٦٩٤ هـ الإسلام دينا رسميا للدولة الإلخانية (التى كان هولاكوخان قد أسسها فى إيران) فاستقرت الأمور إلى حد كبير فى هذه المنطقة حتى نهاية الدولة الإلخانية.

وجدير بالذكر أن المصادر الخاصة بتاريخ المغول اختلفت اختلافا كبيرا فى كتابة أسماء الأعلام المغولية، ونرى هذا الاختلاف لدى منهاج أيضا، إلان الاختلافات لديه مع ما اشتهر من كتابة هذه الأسماء كانت طفيفة.

وتؤرخ هذه الطبقة لتسع شخصيات مغولية، بالإضافة إلى القراخطائيين الذين اعتبر منهاج خروجهم مقدمة لاستيلاء المغول على ديار الإسلام ،وقد رتبهم على النحو التالى:

١- القراخطائيون

٢- چنگيزخان المغولى

٣- توشى بن چنگيزخان

٤- أكتاى بن چنگيزخان

٥- چغتاى بن چنگيزخان

٦- كيك بن أكتاى

٧- باتوبن توشى بن چنگيزخان

٨- منگوخان بن تولى بن چنگيزخان

٩- هولاكو بن تولى بن چنگيزخان

١٠- بركاخان بن توشى بن چنگيزخان

انظر: د. فؤاد عبد المعطى الصياد، الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكوخان)، ص. ٢٥٨، الدوحة، ١٤٠٧ -١٩٨٧ - المغول فى التاريخ، ص. ٢٩١-٢٩٢ - القاهرة، ١٩٧٥- طبقات ناصرى: ج ٢، تعليقات عبد الحى حبيبى، ص. ٤١٩- ٤٢٠ - ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص. ٤٥٤ وما بعدها، بيروت، ١٩٦٥

٢- قرآن كريم: سورة الجمعة، آية ٤

٣- أبوداود السجستانى: مختصر سنن أبى داود، باب الملاحم، ج. ٦، ص ١٦٧ بدون تاريخ. وانظر محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، كتاب الفتن وأشراط الساعة (باختلاف بسيط)، القاهرة ،١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

٤- مطهر بن طاهر المقدسى: البدء والتاريخ، ج. ٢، ص ١٧١، القاهرة ١٨٩٩ م.

٥- هذا الكتاب مفقود، وقد استنتج الأستاذ عبد الحى حبيبى محقق كتاب طبقات ناصرى بعد بحث طويل، واستنادا لما ورد فى كتاب مجمل فصيحى فى الجزء الثانى ص ١٢٣، أن أبا الحسن هيصم بن نابى هونفسه الإمام هيصم بن محمد بن عبد العزيز الناوى صاحب كتاب التهذيب فى اللغة الذى صنفه فى تاريخ الكرامية، وأن هذا الإمام هوابن بنت محمد بن هيصم

الكرامي الناوي الإمام المشهور الذي توفي في ٤٠٩هـ بنيسابور، ومرشد فرقة الهيصمية من الكراميين بهراة، لأن تبديل الباء إلى الواوأمر شائع في لهجة هراة، وتصريح فصيحي بأن ناوتقع في هرانرود يطابق تماما قول منهاج في الطبقة السابعة عشرة. ويمكن القول إن الكتاب قد تم تأليفه أواخر القرن الخامس الهجري، وقد اقتبس منهاج من هذا الكتاب في مواضع عديدة، يتضح منها أن هذا الكتاب كان كتابا كاملا يحتوي على التاريخ العام منذ بدء الخليقة حتى عصر المؤلف، ولا يعرف أكان بالعربية أم بالفارسية.

انظر تعليقات عبد الحي حبيبي: طبقات ناصري، ج. ٢، ص ٢٩٩:٣٠٥- ٤٠٨:٤١٠.

٦- يقول عبد الحي حبيبي إن المؤلف قد ذكر هذا الكتاب مرتين في بداية الطبقة الثالثة والعشرين، وذكر أن مؤلفه هو أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله أبي الليث الشيباني، إلا أن هذا الكتاب ليس سوى أحداث الزمان الذي ذكره حاجي خليفة في الجزء الأول من كتابه كشف الظنون، وأن مؤلفه هو أبو سليمان داود بن محمد الاودني الحنفي، الذي كان يعيش في اودنه إحدى قرى بخارى.

المصدر السابق: ص ٢٧٣

٧- كان آفراسياب هوالملك الحادي عشر من الأسرة الباستانية، والجميع ينسبون الترك إليه، وكان من أبناء يافث بن نوح، وقد تعاهد مع منوچهر، وعاد ونكث العهد، وعبر جيحون، واستولى على العراق وخراسان، وخربهما، وتوالت الأحداث، إلى أن هزم، وعاد إلى التركستان، وكان يعاود مهاجمة إيران حتى عهد كيخسرو.

انظر: منهاج الدين عثمان بن سراج الدين، طبقات ناصري، ج. ١، ص ١٤١.

٨- خان لقب أطلقه المغول على رءوسائهم الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية، وهويختلف عن لقب خاقان الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه الخان الأعظم، وقد استعمل المغول لقب خان أيضا بمعنى خاقان، وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار.

انظر: د. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص ٤٩، القاهرة، ١٩٧٥

٩- بعد وفاة غياث الدين ٥٩٩هـ استعاد محمد خوارزمشاه أملاكه في الهند، إلا أن معز الدين عاد من الهند وقصد إقليم خوارزم على رأس جيش كبير، واستطاع أن يحاصر العاصمة جرجانية، فاستنجد السلطان محمد بالقراخطائيين وعثمان خان سلطان سمرقند، وانتصر السلطان محمد على الغوريين، وعاد إلى عاصمته، أما القراخطائيون فقد استمروا في زحفهم وهزموا معز الدين هزيمة منكرة، ولم ينقذه منهم سوى تدخل سلطان سمرقند، لأنه لم يرض أن يهلك سلطان مسلم على يد الكفار.

انظر فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، ص ٦٤

١٠- النيف الزائد على العقد من واحد إلى ثلاثة، ولا يستعمل إلا بعد العقد، وما كان من أربعة إلى تسعة فهو بضع.

المعجم الوسيط: ص ١٠٠٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ -١٩٨٥ م

١١- قرآن كريم: سورة يوسف، آية ٤٢

١٢- قرآن كريم: سورة الروم، آية ٣ وآية ٤

١٣- تمرچين كان اسم چنگيزخان.

انظر علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد: تاريخ جهانگشاى، نشر وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ج.١، ص ٢٦، ليدن ١٣٢٩-١٣٥٥ هـ =١٩١١-١٩٣٧ م.

١٤- كانت قبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا فى أقاليم آسيا الشمالية، وكانوا يتمتعون بشهرة ذائعة وشوكة كبيرة، وكانوا قبائل مستقلة عن المغول، ومن الغريب أنه على إثر انتصار چنكيزخان على التتار أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه، لذلك كانوا يعرفون بالتتار عند بدء هجومهم على الممالك الإسلامية. وطغرل تگين تعنى أمير الصيد.

انظر فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ٣٩ -٤١ وفرهنگ عميد ٣٣٥، چاپ دهم، تهران، ٢٥٣٥ -طبقات ناصرى، ج. ٢، تعليقات عبد الحى حبيبى، ص ٤٣٢.

١٥- كانت الصين مقسمة بين أسرتين حاكمتين، هما أسرة كين فى الشمال ومنشوريا ومنغوليا، وعاصمتهم بكين ثم كاى فونج، وكان المغول يطلقون على حكام هذه الأسرة (آلتون خان)، وأسرة سونج فى الجنوب وعاصمتهم هانج تشو.

انظر :د. فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ص ٢١-٥٣- ٥٤ – عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران از إستيلاى مغول تا إعلان مشروطيت، ص ٦، جلد اول، جاب سوم، ١٣٤٧ هـ. ش

١٦- كلمة مغولية بمعنى الله.

١٧- القندز: اسم حيوان يشبه الثعلب أوالكلب، ويرتدى السلاطين جلده، ويكثر فى التركستان – السمور :حيوان ثديى لاحم، يستوطن أوراسيا الشمالية، سميك الفراء بنى اللون أوأسود مشوب بالرمادى أوالبنى، هام لتجارة الفراء.

انظر: د. فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ص. ٤٥ – طبقات ناصرى: ج. ٢ هامش ص. ١٠٣ – برهان قاطع: ص.٦٧٩، تهران، ١٣٤١ - طبقات ناصرى:ج.١، هامش ص ٣٨٠

١٨- نجد هذا الاسم عند النسوى ينال خان، وهوابن خال السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه.

انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، نشر وتحقيق حافظ حمدى، ص ٨٥، القاهرة ١٩٥٢. ونجده عند الجوينى (اينال جق ولقبه غاير خان) انظر تاريخ جهانگشاى، ج. ١ ص ٦٠ ، نشر وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ليدن، ١٣٢٩ -١٣٥٥ ، = ١٩١١- ١٩٣٧ م.

١٩- قرآن كريم: سورة الأحزاب، آية رقم ٣٨

٢٠- القميز لبن متخمر، وهويعد من لبن الجياد المتخمر، ويمنح الدفء والقوة.

جهانگشاى: ج.١، ص ١٦٥ - طبقات ناصرى: ج.٢، هامش ص ١٠٥

٢١- كان اسمه تغار گورگان.

عطا ملك الجوينى: جهانگشاى، ج.١، ص١٣٧ وما بعدها.

٢٢- قرآن كريم: سورة فاطر، آية رقم ٣٤.

٢٣- كان المغول يلجأون إلى طريقة بدائية يعتقدون أنها تعينهم على التنبؤ بالغيب وكشف الأسرار، وتتلخص فى أنهم كانوا يضعون عظم كتف الخروف مدة فى النار حتى يسود، ثم ينظرون فيه بدقة، فإذا كان العظم سليما لم تؤثر فيه النار ولم يحدث فيه كسر، عرفوا أن إبرام هذا الأمر سوف يأتى وفق المرام فيمضون فى طريقهم، أما إذا جاءت النتيجة بخلاف ذلك، وانكسرت العظام أواحترقت، عرفوا أن ما يقدمون عليه سوف لا تكون عاقبته سليمة، فيمتنعوا عن المضى فيه.

د. فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ص ٢٥٠.

٢٤- الدرهم ستة دوانق.

مختار الصحاح، ص ٢١٢.

٢٥- قرآن كريم: سورة الروم، آية ٤٧.

٢٦- يكتب جوجى أيضا.

٢٧- قرآن كريم: سورة الشورى، آية ٧.

٢٨- كانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقى البنات أبتر، وتعنى أيضا المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة، وكل أمر انقطع من الخير فهو أبتر.

انظر تفسير القرطبى: الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، ص ٣٤٦ - المعجم الوسيط ج.١ ، ص ٣٨ ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٩- أى آكل النار.

٣٠- قرآن كريم: سورة المائدة، آية رقم ٦٧.

٣١- قرآن كريم: سورة النساء، آية رقم ١٤١.

٣٢- قرآن كريم: سورة الحجر، آية رقم ٧٢.

٣٣- قرآن كريم: سورة الشرح، آية رقم ١.

٣٤- قرآن كريم: سورة الصف، آية رقم ٦.

٣٥- قرآن كريم: سورة ص ، آية رقم ٢٣.

٣٦- قرآن كريم: سورة الأنعام، آية رقم ٧٩.

٣٧- قرآن كريم: سورة العنكبوت، آية رقم ٤٥.

٣٨- قرآن كريم: سورة الأعراف، آية رقم ٥٥.

٣٩- قرآن كريم: سورة النمل، آية رقم ٦٢.

٤٠- هذه الرواية غير صحيحة، فمنكو لم يسلم.

٤١- قرآن كريم: سورة الأنعام، آية رقم ١٢٩.

٤٢- المقصود أمد.

انظر جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول، ص٣٠٦ ترجمة صادق نشــأت ود. فؤاد الصياد ود. موسى هنداوى، القاهرة ١٩٦٠م.

٤٣- ليس هذا بصحيح؛ إذ المعروف أن هولاكو توفى يوم الأحد الموافق ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٦٣هـ.

انظر رشيد الدين: جامع التواريخ، الترجمة العربية، ص ٣٤١، على حين أن الجوزجانى كتب هذه الطبقة سنة ٦٥٨هـ، وكان هولاكو لا يزال على قيد الحياة فى ذلك الوقت

انظر طبقات ناصرى ج. ٢، تعليقات عبد الحى حبيبى ص ٢٠٤.

٤٤- السيوطى: الجامع الصغير فى أحاديث البشير والنذير، ص ٤٣، بدون تاريخ.

٤٥- اسم قبيلة من الأتراك ينتمى إليها ألغ خان.

٤٦- اسم مدينة تشتهر بجمال نسائها واسم ملك.

انظر: طبقات ناصرى، ج.٢، هامش ص ٢٢٠.

فهرس

الأعلام والأماكن والكتب

- أ -[1]

[1] العلامة "×" تشير إلى الأماكن.

- ب -

- ج -

- ن -

- هـ -

المؤرخ فى سطور :

منهاج السراج الجوزجاني

ولد منهاج الدين فى عام ٥٨٩ هـ فى فيروز كوه عاصمة الدولـة الغوريـة، وكانت عائلته سواء من ناحية الأم، أو من ناحية الأب من رجال العلـم والسياسـة وكانوا يعملون فى بلاط الغور، فنشأ منهاج فى حرم الملكة ماه ملك ابنة السـلطان غياث الدين (٥٨٥/ ٥٩٩هـ) وكانت أمه تتمتع بمكانة سامية فى حرم ماه ملك.

وبعد سقوط مراكز الدولة الغورية فى فيروز كـوه وغـزنين وتخارسـتان وباميان فى عام ٦١٢هـ على أيدى الخوارزميين ثقل ذلك على قلب منهاج، فـذهب إلى ملوك سجستان فى نيمروز، وعمل رسولاً لهم، ومع بدء الغزو المغولى ذهـب إلى تولك الواقعة بين غور وخراسان، حيث يوجد أقاربه واشترك معهم فى الـدفاع ضد المغول لمدة أربع سنوات، ولكن يبدو أن الحياة لم تعد محتملة هنـاك فتوجـه منهاج إلى الدولة الغورية فى الهند التى كانت قد ازدهرت وأصبحت مركزا هامـا للإسلام، وملاذا للأمراء والعلماء والشعراء الذين فروا من الهجمات المغولية.

وفى الهند تولى منهاج مناصب قضائية وعلمية ودينية هامة بحيث صار أحد رجال دهلى المرموقين، فصاحب السلاطين فى غزواتهم إلى المناطق النائية فـى الهند، كما تنقل فى ولايات الهند المختلفة تبعا للمناصب التى تولاها هناك. وفـى الهند ألف كتابه (طبقات ناصرى) فى الفترة من ٦٥٥ إلى ٦٥٨ هـ وقد اعتمد فـى تأليفه على الكتـب التاريخيـة السابقة له، وعلى الروايات التى أتيح له سـماعها، ثم على مشاهداته الشخصية ومعاصرته للأحداث، فاحتوى تاريخه على كثير مـن المعلومات التاريخية الهامة خاصة فيما يتعلق بتاريخ الغـور وتـاريخ المغـول، بالإضافة إلى سهولة أسلوبه وبساطته. أما فيما يتعلـق بتـاريخ وفاتـه، فهـو غير معروف ويمكن القول فقط إنه عاش إلى ما بعد عـام ٦٥٨ هـ وهو تـاريخ إتمـام الكتاب.

المترجمة فى سطور:

د. ملكه على التركى

- أستاذ متفرغ بقسم اللغات الشرقية كلية الآداب جامعة عين شمس وأهم مؤلفاتها:

- پند نامه أو كتاب المواعظ للشاعر فريد الدين العطار عرض وتحليل.

- السلطان الغورى غياث الدين محمد بن بهاء الدين.

- السلطان علاء الدين جهانسوز.

- قصة محمد خوارزم شاه مع أهل مدينة سبزوار: من قصص المثنوى المعنوى.

- سعدى الشيرازى وأسرة الجوينيين.

- الشاه شجاع شاعرا ثانى حكام أسرة آل المظفر بإيران.

- تاريخ آل المظفر تأليف محمود الكتبى عن تاريخ آل المظفر بإيران ترجمة وتعليق.

- ترجمة كتاب مصر من زاوية أخرى لجميلة كديور بالاشتراك مع آخرين.

- مدخل إلى الأدب الصوفى الفارسى مع دراسة وترجمة المنظومة الصوفية الهى نامه.

التصحيح اللغوى: غـــادة كمال
الإشــــراف الفنى: حسن كـــامل